كتاب

تاريخ

دولة السلجوق

من انشاء الامام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى
رحمه الله

اختصار الشيخ الامام العالم الفتح بن على بن محمد البنداريّ الاصفهانىّ
رحمه الله ورضي عنه

﴿ طبع على نفقه شركة طبع الكتب العربية ﴾

(بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م)

قرر مجلس ادارة الشركة فى جلسته المنعقدة فى يوم الثلثاء ١١ ربيع آخر سنة ١٣١٨ (٧ اغسطس سنة ١٩٠٠) طبع هذا الكتاب على نفقة الشركة لاحتوائه على تاريخ دول اسلامية مكثت نحو قرن ونصف ولم يوجد لها للآن مؤلف خاص بها بل ذكرت عرضاً فى كتب التواريخ ولما لمؤلفه من الشهرة الفائقة فى عالم التحرير والانشاء

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعـد حمد الله على نعمه الجسام . ومننه العظام . والصلاة والسلام على خير الأنام . سيدنا نبيه محمد وعلى آله البررة الكرام . فانى لما فرغت من انتخاب الكتاب الموسوم بالبرق الشامى من انشاء الامام السعيد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى الكاتب رحمه الله طالعت كتابه الموسوم بنُصْرة الفَترة وعُصْرة القِطرة فى اخبار الوزراء السلجقيه فصادفته قد سلك فيه منهجه المعروف فى اطلاق أعنة أقلامه فى مضمار بيانه . واسباغ ازيال القرائن المترادفة من وشائع ما يحبره راقم بنانه . بحيث صار المقصود مغموراً في تضاعيف ضمائر الاسجاع . وربما كان لا يرفع للاصغاء الى بدائعها حجاب بعض الاسماع . فانتخبت منه هذا المختصر الذي هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب محتو على عيون قرائنه البديعة . وزواهر الفاظه الفصيحة . خدمة لملك اجتمع فيه من الفضائل ماتفرق فى جميع سلاطين الأمم . وصار نظاماً لمحاسن يتزين بافرادها سائر ملوك العرب والعجم . مولانا السلطان الملك المعظم ابى الفتح عيسى ابن السلطان الملك العادل ابى بكر ابن أيوب لازالت معارج دولته راقية في مدارج الاقبال . وعتبات مجده مطمحاً

لعيون الاعظام والاجلال. ومصابيح علومه متوقدة يهتدى بها الشاردون فيخرجون من ظلم الزيغ والضلال . وينابيع أياديه متفجرة يكرع فيها الهائمون فينقعون غلل الآمال . وقد افتتحت به فى شهر ربيع الأول سنة ٦٢٣ مستعيناً بالله تعالى ومستمداً من حوله وقوته ومبتهلا اليه وسائلا اياه ان يوفقنى فى ذلك وفى جميع أمورى بفضله ورحمته وهو حسبي وكفى

ذكر نبذة من بداية حال السلجقية

قال رحمه الله كانت السلجقية ذوى عُـدَدٍ وعَدَدٍ . وأيدٍ ويدٍ . لا يدينون لاحد ولا يدنون من بلد وميكائيل بن سلجق زعيمهم المبجل . وعظيمهم المفضل . وقد سكنو من اعمال بخارا موضعا يقال له نور بخارا وما زالوا فى أنصر شيعة . وانضر عيشة . وهم فى الرعي يكلاؤن الكلأ . وفى الربيع يملاؤن الملأ . لايذعرهم ذاعر . ولا يردعهم داعر . والسلاطين يرعونهم للملمات ولا يروعونهم . ويدعونهم للمهمات ولا يدعونهم . حتى عبر السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الى بخارا لمساعدة قدر خان فرأى مكيال ميكائيل يحصى الحصافة معيّرا . وصاع مصاعه يبأس البسان موفرا . فرغب فى استرغابه . وانجذب الى اجتذابه . وأراد ان يعبر الى خراسان به وباهله . وبكنف اكنافها لذى الحفظ والحفيظة بنبله ونبله . وامتنع ميكائيل عليه ومال عنه ولم يمل اليه فغاظ السلطان تمنعه فقبضه واعتقله . وعبر به وباصحابه الى خراسان ونقله . وقال له ارسلان الحاجب انى ارى فى أعين هؤلاء عين الهول . وانهم لمعروفون بالجراءة والقوه والحول . والرأى عندى ان تقطع أبهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره . ولا يخاف شره . فما قبل خطابه في هذا الخطب . وقال له انك لقاسى القلب .

فلما اقاموا بخراسان تقربوا الى عميدها أبي سهل أحمد بن الحسن الحمدونى وأهدوا اليه ثلاثة افراس ختلية . وسبعة اجمال بختية . وثلاثمائة رأس غنم تركية . وهداه اقبالهم الى قبول الهدية وكانوا سألوه ان يمرجهم فى المروج . ويسد بمواشيهم مخارم تلك الفروج . فعين لهم مروج دندانقان

فقروا بها وبعاقاربها . وتحاماها من عداهم وجانبها . وتوفى محمود بن سبكتكين وهو كاره لامرهم . مشفق من وميض جمرهم . مستشف ستر القضاء فى قضية شرهم . وعد أبو سهل الصعب فيهم سهلا . واتخذهم لارتفاقه بهم صحباً وأهلا . ونفذ مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكراً من غَزنَة الى خراسان فواقعهم وقتل منهم عدة واسر منهم جماعة حملهم الى غزنه منهم بيغو ارسلان فاستعطفوه فلم يعطف . واستسعفوه فلم يعف . ولما غلق رهنهم وتوثق سجنهم . شربوا كأس اليأس وأبدلوا ايناس الناس بايحاش الحاشية . ومشى شحنة طوس لاستياق مالهم من الماشية . وأستلان خشونتهم . واستسهل صعوبتهم . ولما ظن انه آب بالغنم والغنيمة . وبآء بعز العزيمة . ركبوا اليه صهوات الخنَق . وصرفوا نحوه أعنة الخبب والعنَق . حتى لقوه فتركوه لقًى وتبعوا المنهزمين ودخلوا الى طوس فملكوها . وجاسوا خلال ديارها وسلكوها . وتشاوروا فيما بينهم وقالوا هذا بحر خضناه . وفتح ابتكرناه . وطوس مدينتنا التى تؤوينا . وحصننا الذى يحمينا . فلا نفرج عنها . ولا نخرج منها . وشرع أبو سهل الحمدونى فى استدراك ما فرط . واستمساك ما اختبط . وكادوا يجيبونه بالجميل ويجملون فى الجواب . ويميلون بمالأته الى صوب الصواب . فتسرع شحنة نيسابور وتعسر . وجنّد وعسكر . وشن على سرحهم غارة على غرة . ونهض لمنفعة نهضت بمضرة . فركبت السلجقية اليه والى جماعته ارسالا . ونشبوا معهم وشبوا قتالا . وهزموهم وكسروهم وقتلوهم واسروهم وامتدوا الى نيسابور فدخلوها . ووجدوا فى خلوها فرصة فاهتبلوها . وذلك فى شهر رمضان سنة ٤٢٩ وعزموا على مدّ اليد . ونهب البلد . فمنعهم طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق وهو اميرهم وكبيرهم وقال لهم

نحن فى شهر حرام لا نهتك حرمته . ولا ننهك عصمته . ولا يحصل من النهب ارب وانما تسوء به السمعة ويشيع الشنعة . فنفرت جماعته من مقاله وسخفوا رأيه فى تبيين حرام الفعل وحلاله . فما زال بهم طغرلبك يقول لهم امهلوا بقية هذا الشهر واعملوا ما شئتم بعد الفطر وفى أثناء ذلك وصل اليهم كتاب القائم بأمر الله أمير المؤمنين يخوفهم ويذكرهم بالله ويحملهم على رعاية عبادته وعمارة بلاده فخلعوا على الرسول المعروف بابى بكر الطوسى ثلاثة عشرة خلعة . وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة .

ولما كان يوم العيد اجتمعوا من القريب والبعيد وهموا بالنهب فركب طغرلبك لمنعهم . وجدّ فى ردعهم . وقال الآن وقد جاء كتاب الخليفة . المفترض الطاعة على الخليقة . وقد خصنا من توليته ايانا بالحق والحقيقة . فلح عليه أخوه جغرى بك داود وأخرج سكينة وقال إن تركتنى والا قتلت نفسى بيدى فرق له وسكنه . وأراه انه مكنه . وأرضاه بمبلغ أربعين الف دينار قسطه . ووزن أهل البلد معظمه . وأدى هو من ماله الباقي وغرمه وجلس على سرير الملك الذى كان لمحمود بن سبكتكين فى نيسابور ونهى وأمر وأعطى وأخذ وأبرم ونقض . وأحكم وقوّض . وجلس يومى الاحد والاربعاء لكشف المظالم . وبسط المعدلة وبث المكارم . وسيّر أخاه داود الى سرخس فملكها . ونهج له طريقة فى العدل فسلكها . وسيّر الى دار الخلافة المعظمة رسولا يعرف بأبى اسحاق الفُقّاعىّ صبيح البهجة . فصيح اللهجة . بكتاب مضمونه انهم لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو . مشتغلا بالشر والعتو . غاروا للمسلمين وللبلاد . وهم عبيد أمير

المؤمنين فى حفظ البلاد والعباد . وقد سنّوا سنّة العدل . وأسنوا سنا الفضل . وبطلوا مراسم العسف . وعطلوا مواسم الحيف . ومضى رسولهم . وقضى سؤلهم . وتواصلت مع مسعود بن محمود بن سبكتكين حروبهم وهزموه فى سنة ٤٣٠ واشتدت منعتهم . وقويت شوكتهم . واستولوا على خراسان وتجاوزوها الى العراق وطرؤا على ملك الديلم . ورموه بالصيلم . وغلبوا الاملاك . وبلغوا الافلاك . واقتسموا البلاد . وطرفوا طرافها والتلاد .

قال وللسلطان طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق ولأخيه جغري بك أبي سليمان داود بن ميكائيل بن سلجق من نهر جيحون الى نيسابور ولاخيه من أمه وهو ابن عمه ابراهيم بن نيال بن سلجق قهستان وجرجان ولابن عمه أبي عليّ الحسن بن موسى بن سلجق هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور .

قال وامتدّ طغرلبك الى الريّ وقد كانوا جعلوا له جميع ما يفتحه من هذا الصوب فحمد الرأى بالريّ . ونجزت عدة جدته بعد الليّ . ووجد في دور الديلم دفائن وخزائن . سفرت بها أيامه عن أيامن . فتأثل وتأثث . وورى زندسعده بما ورّث . وقدّم قدامه ابراهيم بن نيال فقرّ بقرميسين وانتزعها من الامير أبي الشوك فارس بن محمد بن عنّاز وحل بحلوان وتوفى أبو الشوك فى شهر رمضان وذلك سنة ٤٣٧ وفى هذه السنة وزّر رئيس الرؤساء أبو القاسم عليّ بن الحسن بن مسلمة للقائم بأمر الله وهي أول سنة ورد فيها الاتراك الى العراق .. وانتشروا منها فى الآفاق .

قال وكان عند طغرلبك رسول الخليفة وهو أبو محمد هبة الله بن محمد

ابن الحسن بن المأمون مقيما يدعود الى بغداد ولا يدعه يقيم . ويروم منه صدق القصد ولا يريم . وطال بالحضرة حضوره حتى حرك عزمه فعزم على الحركة واندفع كالسيل . وكسا العلق عجاج فيلقه صبغة الليل . ولم يترك الترك ورداً الا شفهوه . ولا حسناً الا شوّهوه . ولا ناراً الا أرّشوها . ولا داراً الا اشعثوها . ولا عصمة الا رفعوها . ولا وصمة الا وضعوها . وأجفل الملوك من خوف اقدامهم . وتنحوا من طريق ضرامهم . فما جاؤا الى بلدة الا ملكوا مالكها . وملأوا مسالكها . وأرعبوا ساكنيها وأسكنوها الرعب . وغلبوا ولاتها وولوها الغلب . وازوروا الى الزوراء . وأشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء .

ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبك أبي شجاع محمد ابن ميكائيل بن سلجق الى بغداد فى ٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧ ومعه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد ابن منصور الكُنْدُريّ وهو أول وزراء السلجقية

قال : كان حصيفاً نصيحاً رجيحاً نجيحاً متسلطاً بمكانه . متمكناً من سلطانه . يرجى ويخشى . ويقصد ويغشى . والسلطان بأذنه وناظره يبصر ويسمع . وباذنه ونظره يرفع ويضع . وله البهجة المهيبة . واللهجة المصيبة . وكان مع السلطان طغرلبك يوم وصوله الى بغداد وقد خرج رئيس الرؤساء وزير الامام القائم لاستقبال السلطان ومعه أرباب المناصب . وأصحاب

المراتب . وقاضى القضاة والشهود . والجنود والبنود . فلما وصل الى نهر بين . لقيه صاحب للسلطان من المقربين . وقدم للوزير فرساً وقال هذا مركوب السلطان وقرّبه . فنزل عن بغلته وركبه . وجاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر الكندرى فى موكب ضخم . ونخر فخم . وقد وقف يتوقع مطالعه فلما بصر به قصد عميد الملك أبو نصر أن يترجل فمنعه وتعانقا راكبين . وخلطا الموكبين . ووصل السلطان الى بغداد ونزل على دجلة . عند مسناة عز الدولة . رائع الهيبة . رائق الهيئة . قد ضاقت الارض بجنوده . وضاقت السماء عذبات بنوده . فقبض على الملك الرحيم أبى نصر الديلمى من نسل عضدالدولة وسيره الى الريّ فقطع عليه الاجل الطريق فى طريقها وآذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها وقبض عميدالملك أبونصر الكندرى الوزير الاعز أبا سعد وزير الملك الرحيم . ثم استدام صحبته حين الفاه فى الكفاية صحيح الاديم . وأطلقه وأطلق يده فى الحل والعقد والحبس والاطلاق . وعول عليه وفوض اليه النظر فى العراق .

قال : وتوفى فى هذه السنة قاضى القضاة الحسين بن على بن ماكولة فخاطب عميد الملك فى تولية قاضى القضاة ابي عبدالله محمد بن الدامغانى فتسنت قاعدته فى ذى القعدة من السنة . وأحسن العناية به لمعانيه الحسنة . وقال هو قدوتنا بخراسان الموصوف بجميع الألسنة . وحضر عميد الملك الكندرى في بيت النوبة الشريفة . وخص من دار الخلافة بالمنزلة اللطيفة . وانفذت معه برسم السلطان خلع سنيه . وتشريفات سريه . قال: وتقدم طغرلبك ببناء مدينة على دجلة وهى التي جامعها اليوم باق . وكانت حينئذ ذات أسوار وأسواق . قال : ودخلت سنة ٤٤٨ وفى المحرم منها

عقد الخليفة على ابنة أخى طغرلبك ارسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل . وقصد بذلك تعظيمه والتبجيل . ولئلا يجد الاعداء بهذه الوصلة الى قطع سبيل المودة بينهما السبيل .

ذكر الحال فى ذلك

قال : فى المحرم جلس الامام القائم بامر الله أمير المؤمنين . وأحضر عميد الله الكندرى وقدمه على المقدمين . وتقدم اليه باحضار من يجوز احضاره . ويقع عليه ايثاره . فشد وسطه وأخذ دبوساً فى يده . وجرى فى حفظ أداب الخدمة على جدده . واستدعى أماثل دولة السلطان فخدموا الخليفة . وشاهدوا السدة الشريفة . ثم شرع رئيس الرؤسآء فى خطبة النكاح . وجاء بها على وفق الاقتراح . واستوعب شرائط الايجاب بالذكر من تسمية المخطوبة والمهر ثم قال : إن رأي سيدنا ومولانا أن ينعم بالقبول فقال الخليفة قد قبلنا هذا العقد بهذا الصداق . فامتزجت الدولتان بالاستحاق . واستمرت البركة . واستقرت المملكة . قال وفى هذه السنة كانت ولادة المقتدى سحرة الاربعآء ثامن جمادى الاولى وسمى عبد الله وكنى ابا القاسم وامه جارية لذخيرة الدين أبى العباس بن القائم بامر الله وكانت وفاة الذخيرة فى ذى القعدة سنة ٤٤٧ وعمره ١٤ سنة وبوفاته قامت قيامة القائم فانه كان ولى عهده ولم يكن له ولد سواه فلما ولدت جاريته ابناً استجد به جداً وبهاء

ويمناً وامناً وجلس رئيس الرؤساء . ثلاثة أيام للهناء . وحضر عميد الملك وجماعة الامراء . قال : وتوفى في هذه السنة عميد الرؤساء أبو طالب بن أيوب عن ٧٠ سنة وقد كتب للخليفه ١٦ سنة . وكانت حسناته سائرة وسيرته حسنة .

ذكر عوارض عرضت وحوادث حدثت

قال : كان ابن عم طغر لبك بالموصل وديار بكر وهو قتلمش بن اسرائيل بن سلجق . متسق الأمر . متسع الصدر . فاجتمع البساسيرى وهو أبو الحارث أرسلان وقريش ابن بدران العقيلى ونور الدولة دبيس بن على بن مزيد الاسدى على حربه . وأوقعوا به وبحزبه . وكانت الوقعه بسنجار ومضى قتلمش الى همذان موليا فانتحى طغر لبك من ذلك وتوجه الى الموصل فاجفل البساسيرى الى الرحبة فاذعنت لطغرلبك البلادو واتاه الادب . ووافاه العرب . وأطاعه الاميران دبيس وقريش واتصل به أخوه ياقوتى بن داود فزادت قوته . وأرعبت بالناس صولته . وكان على أهل سنجار حاقداً فأنهم مثلوا بقتلى قتلمش وتركوهم بالعراء وأظهروا الرؤوس على القصب . وأخذوا النفوس بالوصب . فسار طغرلبك الى سنجار واجتاحها واستباحها . وسلب أرواحها وأشباحها . الى أن شفع فيهم ابراهيم بن ينال فعفا بعد أن عفى . وكف بعد ما اكتفى . قال : وفى هذه السنة مات أبو العلاء المعرى .

ذكر عود السلطان الى بغداد وحضوره بين يدى الخليفة

قال : وعاد الى بغـداد ظافر اليد وافر الايادي وجلس له الخليفة يوم السبت ٢٥ من ذى القعدة فركب دجلة مجريا طياره فى تيارها. حتى وصل الى باب الرقة من السدة الشريفة ودارها . وقدم له فرس فركبها ودخل راكبا الى دهليز صحن السلام . وحصن الاسلام . ثم نزل ومشى والامراء بين يديه بغير سلاح يمشون الى حيث الجلالة مقيمة . والدلالة بالقائم قائمة . والرسالة ملائمة . والأمامة دائمة . والنبوة مستمرة الأرث . والمروة مستقرة البعث . وستارة البهاء مسدولة على البهو . وطهارة الانتماء مجبولة بالزهو . والقائم بامر الله جالس من وراء الستر على سـدة مشرفة مشرقة فى ايوان منه للجلال ايواء . ودار أرضها للاقبال سماء . وعلى كتفه وبيده البردة والقضيب النبويان . وهما بماء الطهر المحمدى رويان .

ولما قرب طغرلبك من المقر الاشرف . والمرقى المسجف . ورفعت ستارة البهو وانار وجه الخليفة كالقمر فى سدفة السدة الشريفة أدي الفرض . وقبل الأرض . ثم مثل قائما للقائم . ووقف لترقب مايقف عليه من المراسيم . وصعد ريس الرؤساء الى سرير لطيف فقال له الخليفة اصعد ركن الدولة اليك ومعه محمد بن المنصور الكندري مفسراً ومترجماً . ومعرباً عنه ما كان معجما . ثم وضع لطغرلبك كرسي جلس عليـه . وفسر عميد الملك له تفويض الخليفة اليه . ثم قام طغرلبك الى مقام الرفعـة . ومكان الخلعـة . واحتبى بعز الاحتباء . واجتاب خلع الاجتباء . وتوج وطوق وسوروأفيضت عليه

سبع خلع سود فى زيق واحد اتخذت له بها مملكة الاقاليم السبعة وشرف بعمامة مسكية مذهبة تجمع له بين تاجى العرب والعجم . وسما بهما وتسمى بالمتوج والمعمم . وقلد سيفاً محلى بالذهب . فخرج فى أحلى الحلى وأهيب الاهب . وعاد وجلس على الكرسى . ورام تقبيل الأرض ولم يتمكن لموضع التاج الخسروى . وسأل مصافحة الخليفة فاعطاه يده دفعتين . فقبلها ووضعها على العين . وقلده سيفاً آخر كان بين يديه فتم له بتقليد السيفين . تقلد ولاية الدولتين فخاطبه بملك المشرق والمغرب واحضر عهده وقال هذا عهدنا يقرأه عليك محمد بن منصور ابن محمد صاحبنا ووديعتنا عندك فاحفظه واحرسه فانه الثقة المأمون وانهض فى دعة الله محفوظاً . وبعين الكلاءة ملحوظاً . قال ولابى الفضل صرّدرّ فى عميد الملك من قصيدة

ملك اذا ما العزم حث جياده * مرحت بازهر شامخ العرنين
بأغر ما أبصرت نور جبينه * الا اقتضانى بالسجود جبينى
عمت فواضله البرية فالتقى * شكر النبىّ ودعوة المسكين
لو كان فى الزمن القديم تظادت * منه الكنوز الى يدى قارون

قال: وفى سنة ٤٥٠ انتقض على طغرلبك أمر الموصل فقد كان استخلف بها الاميرين أردم وباتكين فقصدها البساسيرى وقريش بن بدران وحاصراها أربعة أشهر واخرجاها بأمان فعاود طغرلبك الخروج الى الموصل لطب الداء المعضل ونصب بنصيبين مضاربه فخالفه ابراهيم بن ينال خالعاً للطاعة ومضى الى همذان ناويا للمناواة فسار السلطان وراءه من نصيبين الى همذان فى سبعة أيام ونفّذ وزيره عميد الملك وزوجته خاتون الى مدينة السلام ثم كتب اليهما يستدعيهما فتمسك بهما الخليفة . وتواترت الاراجيف

الخليفة . فتارة بوصول البساسيرى وتارة بانهزام السلطان من أخيه

قال : وشرع عميد الملك الكندرى فى أخذ العهد بالمملكة لانوشروان ابن خاتون . وأنفق من ماله الظاهر والمخزون . فما وفقا . ولا استوثقا . وأرادت خاتون القبض عليهما فهربا فاما عميد الملك فانه انحدر الى الأهواز . وأمن عند هزار سب بن بنكير بن عياض من الاعواز . وسارت خاتون تطلب السلطان . ولحق بها ولدها أنوشروان . وذلك في سنة ٤٥١ وفى هذه الفترة تمت فتنة البساسيرى ودخل الى بغداد سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخرج سادس عشر ذى القعدة سنة ٤٥١ وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة فانه دعى الى الدعىّ بمصر مصراً . ولم يجد الخليفة بمقره من دار الامامة مقراً . وحصل من تلك الحادثة بالحديثة . وتوالت منه الى طغرلبك امداد كتبه ورسله المستصرخة المستغيثة . وهو مشغول بحرب أخيه . مهموم بما هو فيه . مغلوب الجند . مسلوب الجد

قال : وصلب البساسيرى رئيس الرؤساء وأبا محمد بن المأمون رسول الخليفة فى استدعاء السلطان طغرلبك وقتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر احمد بن علىّ واختل نظام الاسلام . واعتلت دار السلام . وطالت غربة الامام . وهالت كربة الانام . الى أن استنجد السلطان أولاد أخيه الب ارسلان وياقوتى وقاورد بني داود وهو بالرىّ نأنجدوه وأسعفوه واسعدوه فخرج بهم الى ابراهيم بن ينال بهفتان بولان فكسره ثم وجده وقد وقف به فرسه فأسره وخنقه بوترلوتره وحنقه واستراح من حث ذيله اليه وعنقه وعاد سعده وسعد عيده . وكثنت عدته وكثر عديده . وسار اليه عميد الملك وجهزه هزارسب جهازمثله . وأنضل عليه لانضله . ولم يبق لطغرلبك بعدها

ثمّ سوى رد الخليفة الى داره. واظهار قمره من سراره . ورحل نحو بغداد.
فأحس البساسيرى بريحه. وأيقن بتيّاره ووقع فى تباريحه. ولما قربت العساكر
السلجقية من بغداد بعد وقامت قيامته وما قعد وكان الخليفة بحديثة عانة
فطلبه قريش بن بدران من ابن عمه مهارش بن مجلى فحماه . وما أباح حماه .
قال: وخرج مهارش بالخليفة الى تلعفر فقصد بدر بن مهلهل ومعه الفقيه
ابن فورك وقد تيمن به وتبرك . وهناك فاز من وحّد وهلك من أشرك .
ولما وصل السلطان الى بغداد سير الى الخليفة عظماء مملكته وصدر وزارته
عميد الملك وأنوشروان بن خاتون ومعهم المهد والسرادق . والخيل السوابق .
ولما مثلوا بالحضرة الشريفة . وشاهدوا أحوال الخليفة . أراد عميد الملك أن
يكتب الى السلطان كتاباً بشرح الحال . وبوصف ما اجتلاه من المهابة
والجلال . ولم يكن بين يدى الخليفة دواة . ولا اداة للكتابة مسواة . فأحضر
من خيمته دواة عليها من الذهب الف وسبعمائة مثقال وأضاف اليها سيفاً
ذافرند وصقال وقال هذه خدمة محمد بن منصور أصغر الخدم . وقد جمع فى
هذه الدولة بين خدمة السيف والقلم . وأحسن الخليفة قبوله وخطابه .
وتوّج بخطه الشريف كتابه . ولما وصل الخليفة الى النهروان . وصل اليه
السلطان . وتباشرت بقدومه الاوطار والاوطان . واستأذنه عميد الملك فى
حضور السلطان فأذن ودخل وقبل الارض سبع مرات وأتى من أدب
الخدمة الممكن وقدّم له الخليفة مخدة من دسته وقال اجلس فقبّلها وجلس .
وآنسه فأنس . وجعل عميد الملك يفسر لهما ويترجم . ويعرب ويعجم .
والسلطان يعتذر عن تأخره وتراخيه . بما شغله من وتر أخيه . فمهد عذره
. ومهّد ذعره . وقلده الخليفة سيفاً تبرك به وكان قد خرج معه من الدار

وذلك يوم الاحد الرابع والعشرين من ذى القعدة واستقر أن يدخل الى الدار غداً . ويعيد بعوده عيش الاسلام رغداً . فلما أصبح السلطان تقدم الى باب النوبى وجلس مكان الحاجب فلما قرب الخليفة قام وأخذ بلجام بغلته . ومشى فى خدمته الى باب حجرته . وذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٥١ فعادت الانوار الى الطلوع . والانوار الى الهموع . وحل الشرف فى موطنه . وفاض الكرم من معدنه .

قال : وهرب البساسيرى الى حلة دبيس بن على بن مزيد وقد ولت سعادته فهو مطلق فى زى مقيد . فسير السلطان وراءه عسكراً مقدموه سرهنك ساوتكين وأنوشروان وخمارتكين الطغرائى وأردم وأنفذ معهم ابن منيع الخفاجى فواقعوا البساسيرى وأوقعوه ووقع فى فرسه سهم رميت به فرمته . وحام حوله حماته فما حمته . وصادفت وجهه ضربة أدمته . وكش كمشتكين العميدى فأسره ثم احتز رأسه وحمل الى بغداد وعلق قبالة باب النوبى وزالت بزواله نوبة النبوة الحالّة بالمحل النبوى واستقام الامر . وأرّج النشر . وتولت النقماء . وتوالت النعماء . وكان طغرلبك بواسط فقدم بغداد فى صفر سنة ٤٥٢ فعمل له الخليفة فى روشن التاج سماطا . وأحضر عليه من أكابر دولته رؤساء وأوساطاً . ثم عمل للسلطان في ثاني ربيع الاول سماطاً آخر . فاضل به من قبله من الملوك وفاخر . وتوجه فى خامس الشهر الى الجبل ودخل عميد الملك الى الخليفة فأقامه فى موضع الاصطفاء . ولقبه سيد الوزراء

قال : وفى سنة ٤٥١ احترقت ببغداد دار الكتب التى وقفها الوزير شابور ابن أردشير بين السورين وأخذ عميد الملك ما سلم من النار وكان أحد الحريقين

وتوفيت فى ذى القعدة سنة ٤٥٢ خاتون زوجة السلطان بزنجان

قال : ولما رحل السلطان استصحب معه ارسلان خاتون ابنة أخيه زوجة الخليفة فلما استقر بالرىّ . عزم على نشر ما كان من رغبته فى الطىّ . وسير قاضى الرىّ ابا ساعد صاعداً الى دار الخلافة رسولا . وضمّن رسالته فى خطبة السيدة ابنة القائم سؤالا وسؤلا . وذلك فى سنة ٤٥٣ فندب الخليفة للجواب ابا محمد ابن التميمى للاستعفاء وانه لم تجر بهذا سنة الخلفاء ثم قيل له ان عدمت فى الاستعفاء الوسائط فاطلب صداق ثلثمائة الف دينار واعمال واسط فلما وصل ابن التميمى أعلم عميد الملك بالحال فقال اما الاستعفاء فلا يحسن مع رغبة السلطان وضراعته فى السؤال . واما طلب المال والاعمال . فيقبح لانه يفعل اكثر مايدور فى خواطر الآمال . والصمت اولى من هذا المقال . فخلنى أخل سرك من هذا السر . ودعنى اتول هذا الامر . فقال ابن التميمى الامر اليك . والاعتماد عليك . والصواب ماتدبره والتدبير ماتستصيبه . وانت اعرف بما تخاطب به صاحبك وبما تجيبه . فقال عميد الملك للسلطان ان القضية قد تسهلت . وان العقدة قد تحللت . وان المنية قد امكنت . وان البغية قد تمكنت

فأشاع السلطان خطبته . واذاع رغبته . وتقدم الى عميد الملك بالمسير مع ارسلان خاتون بنت أخيه زوجة الخليفة الى دار الخلافة واستصحب ماجاوز حد الكثرة من الدنانير المبدرة والجواهر الثمنة وسير معها عدة من الاكابر وذوى العلى ومن عظماء الديلم فرامرز بن كاكويه وسُرخاب بن كامْرَوا وكان قد وزّر للخليفة فى تلك السنة مجد الوزراء ابو الفتح منصور بن احمد بن دارست فخرج لتلقى الواصلين الى قرب النهروان والتقى هو وعميد الملك وهما راكبان ودخل عميد الملك بغداد وجلس على باب النوبى فلما وصلت خاتون سار فى خدمتها الى دارها ثم حضر بيت النوبة وأخذ دواة الوزير بن دارست وأنهى

حضوره وحضور الامراء الذين معه . وادى من الرسالة ماأودعه . فنفر الخليفة وغضب . وغاض ماء بشره ونضب . وقصد الامتناع ومنع المقصود. وسد الباب ولم يفتح الباب المسدود . فشرع عميد الملك يتكلم بكل فن . ويقعقع بكل شن . ويقول ما بالكم اقترحتم . ثم امتنعتم . وفيم ذهبتم الى أبعد غاية فى الطلب ثم رجعتم . وقد خاطرتم عند السلطان بدمى . وازلتم بما قدمتم من التقدم قدمى . فأخرج الى النهروان مضاربه وخلع الاهبة السوداء ولبس البياض فاستوقفه ابن يوسف وقاضى القضاة . ليستنزلوه من المضارة الى المراضاة . وما زالا يتلطفان به حتى حضر بعد ذلك عند الخليفة دفعتين ومعه جماعة من الامراء والحجاب والقضاة والشهود . وبالغ فى الخطاب وبذل المجهود . وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٣

وقال الخليفة « نحن بنو العباس . خير الناس . فينا الامامة والزعامة . الى يوم القيامة . من تمسك بنا رشد وهدى . ومن ناوأنا ضل وغوى » وكان الخليفة قد كتب الى عميد الملك نحن نرد الامر الى رأيك ونعول فيه على امانتك ودينك فقال عميد الملك أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به الخادم الناصح شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه وسمت نفسه اليه وأراد أن يقول الخليفة ما يلزمه من الاجابة ففطن لذلك وغالطه وقال قد سطر فى الجواب ما فيه كفاية فانصرف عاتباً . وذهب مغاضبا . وراح راجلا ورد المال الى همذان . وأخبر بالحال السلطان . وكان الخليفة قد كتب الى خمارتكين الطغرائى يشكو من عميد الملك والحاحه فكتب فى جوابه يشير بالرفق والتلطف . وينص على التثبت والتوقف . فنسب عميد الملك قطع الحديث فى الوصلة الى مخامرة خمارتكين فتغير السلطان عليه فرهب وهرب . وتسرع

وتسرب . وكتب السلطان الى قاضى القضاة والشيخ أبى منصور بن يوسف بالعتب الممضّ . والخطب المقضّ . وقال هذا جزائى من الامام القائم وقد قتلت اخى فى طاعته . ووهبت عمرى لساعته . وانفقت اموالى فى خدمته . وطلبت فقرى لثروته . فما باله مابالى بردّ قولي . وقال بردّى . وصدّ قصدى . وقصد صدى . وكتب الي عميد الملك بان يقبض الاقطاعات ولا يترك للخليفة الا ما كان باسم الامام القادر قديماً . وان يكون لمارضة أسبابه مستديماً . فحضر العبيد رئيس العراقين بيت النوبة وعرض الكتب . واعاد العتب . فخرج جواب الخليفة ما رجونا من ركن الدين ماصنع . وما توقعنا ما وقع . وبين يديك الاقطاعات فاقطعها . وقد ارتفعت الموانع فامنعها

قال : وخرجت السنة والوحشة القائمية قائمة . وعين التأنيس عن ازالة أسبابها نائمة . فلما دخلت سنة ٤٥٤ أجاب الخليفة فى المحرّم منها الى الوصلة وكتب وكالة باسم عميد الملك شهد فيها قاضى القضاة وابن يوسف بما سمعاه من تلفظه بالاجابة . وضبطت الشهادات بالكتابة . وسير أبو الغنائم بن المحَلبان فى الرسالة . واستصحب كتاب الوكالة . فسر السلطان واحتفل . ووفى له القدر بما كفل . وعقد العقد فى ظاهر تبريز بالمخيم وكان رئيس العراقين بالمعسكر فأعيد الى بغداد فى صحبة ابن المحلبان وسيرت على يده الهدايا وأصحبه برسم الخليفة ثلثين غلاما وجارية أتراكا على ثلثين فرساً وخادمين وفرساً بمركب ذهب وسرج مرصع بالجواهر الثمينة وعشرة آلاف دينار وبرسم السيدة عشرة آلاف دينار وتوقيعاً بيعقوبا وما كان لخاتون المتوفاة بالعراق وعقداً فيه ثلثون حبة كل لؤلؤة مثقال وبرسم عدة الدين خمسة آلاف دينار . وبرسم السيدة والدة المخطوبة ثلثة آلاف دينار وذلك فى شوال من السنة فلما قرب

رئيس العراقين من بغداد تلقاه الناس واستبشروا بانتظام الالفة بين الامامة والسلطنة فلما وصل الى باب النوبى نزل وقبل الارض . ثم وصل الى باب ارسلان خاتون زوجة الخليفة وأدى من خدمتها الفرض . وأوصل اليها ما حمله فتولت تسليمه . وباشرت عرضه بالمقام النبوى وتقديمه

ذكر سبب تولى ابن دارست وزارة الخليفة الى حين انصرافه

قال : كانت وزارته فى سنة ٤٥٣ وسبب ذلك ان الخليفة لما عاد الى الدار عدم الوزير . وفقد من يتولى التدبير . فحدث رأيه بأنه يستخدم رجلا خدمه بالحديثة وهو ابو تراب الاثيرى وقد وجده أثير الاثر فلقبه حاجب الحجاب عن الامة . واستخدمه فى الانهاء وحضور المواكب وتنفيذ الاوامر المهمة

قال: وكانت بين ابن يوسف وبين الاثيرى وحشة حملت ابن يوسف على أن ذكر ابن دارست وقرّظه وقال انه مع أمانته يخدم بغير اقطاع ويؤدى مالا فمضت الكتب اليه وهو فى شيراز باستدعائه . فقدم الجواب باستعفائه فخرج اليه ابن رضوان ومعه ظفر الخادم لاستقدامه . وقوى عزمه أبو القاسم صهر ابن يوسف فورد بقوة اعتزامه . وكتب عميد الملك عن السلطان الى الخليفة بأنه كاره لاستقدامه واستخدامه لاملاقه مع ثروة المال من الكفاية وإعدامه . فأجاب الخليفة انه مع وصوله الى واسط ومفارقته وطنه لا يجوّز رده . ولا يخلف وعده . وقدم بغداد ثامن ربيع الاول سنة ٤٥٣ ووصل الى

الخليفة فى منتصف شهر ربيع الآخر وأُفيضت خلع الوزارة عليه . وافيضت مع الوزارة الامور اليه . وبقي فى المنصب منتصباً الى رابع ذى الحجة سنة ٤٥٤ فانه صرف من تلك المراتب بل ترك الخدمة مستعفياً . ولرقّة جاهه مستجفياً . قال : وكانت وفاته بالاهواز حادى عشر شعبان سنة ٤٦٧

ذكر حوادث فى هذه السنين

قال : فى سنة ٤٥٠ توفى القاضى أبو الطيب طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري ببغداد عن مائة سنة وسنتين وكان صحيح السمع والبصر سليم الاعضاء يناظر ويفتى ويستدرك على الفقهاء وحضر عميد الملك الكندري جنازته ودفن بالجانب الغربى عند قبر الامام أحمد ابن حنبل

قال : وفى آخر هذه السنة توفى أقضى القضاة أبو الحسن علىّ بن محمد ابن حبيب الماوردي وقد كان فى العلم بحراً زاجراً . وفى الشرع بدرا زاهرا . قال « بسطت الفقه فى أربعة آلاف ورقة (يعني الحاوي) واختصرته فى أربعين » (يعنى الاقناع) فيالهما من بحرين نضبا . وبدرين غربا . وطودين وقعا . وجودين . أقلعا .

قال : وفى سنة ٤٥٣ توفى قريش بن بدران وتولى ولده مسلم امارة بني عقيل وتوفى فى شوّالها نصر الدولة أبو نصر بن مروان بميافارقين عن نيف وثمانين سنة وفى يوم عرفة من سنة ٤٥٤ وزر فخر الدولة أبو نصر محمد ابن

محمد بن جهير للخليفة وسبب ذلك انه كان مقيما بميافارقين عنـد ابن مروان
فى جاه وعز آمرٍ ناهٍ فسمت همته وعلت سعادته. وكتب الى الخليفة يرغب
فى زيارته لوزارته وانه يبذل بذلا ويحمل حمولا فندب اليـه من دار الخلافة
نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي وقرر ما أراد تقريره.
ودبر ما شاء تدبيره. فخرج من ميافارقين عند انفصال نقيب النقباء ليودعه
وسار معه. وفات ابن مروان ولم يلحقه لما تبعه. وخرج الناس عند وصوله
الى بغداد لاستقباله ونزل بالحريم الطاهري ومكث ثمانية أيام حتى جاوز
الكسوف. ونشق نشر العز المشوف. وتيمن بيوم عرفة فحضر بيت النوبة
وقد أسعدته السعادة. واجتمع هنالك من طبقات الناس من جرت به العادة.
واحتفل له الخليفة بالجلوس وطلع نور اليمن من أفقه. وقرأ أمين الدولة أبو سعد
ابن الموصلايا توقيعاً خرج فى حقه

ذكر وصول السلطان طغرلبك الى بغداد

قال رحمه الله : فى محرم سنة ٤٥٥ توجه السلطان الى بغداد من أرمية بعزم الدخول على الزوجة وخرج فخر الدولة بن جهير وتلقاه بالقُفْص فى الموكب الاعظم والابهة الباهرة. والاهبة الزاهرة . ونزل عسكره بالجانب الغربى فزادت به الازية. وارتاعت الرعية. ووصل عميد الملك الى السدة الشريفة مطالباً بالشريفة السيدة فوقعت الاجابة فى نقل الجهة الى دار المملكة . ونزلت منها فى الهجرة الشرقية باليمن والبركة. وزفت فى ليلة النصف من صفر وجلست على سرير ملبس بالذهب . يخطف النواظر منه أشعة الذهب . ودخل اليها وقبل الارض وخدمها وجلس بازائها على سرير ملبس بالفضة وقد كان انفذ لها مع بنت اخيه زوجة الخليفة عقدين نفيسين ثمينين . وجاما خسروانيا من ابريز العين . وفرجية من نسيج الذهب مكللة بالحب . وصارت نفسه لها موكلة بالحب . وظهر منه بها سرور . وسره منها لشرفه ظهور . وبقى مدة اسبوع يهب ويخلع . ويمنح ولا يمنع . وخلع على عبيد الملك وعلى الامراء . وأفاض التشريفات على الاكابر والعظماء . فقد كان ورد معه الى بغداد أبو علىّ ابن الملك أبي كاليجار وهزارسب وفرامرز بن كاكويه وسرحاب ابن بدر بن مهلهل فما منهم الامن أفيضت عليه الخلع الرائقة . وأضيفت له العطايا اللائقة .

قال : وحضر عميد الملك فى تاسع شهر ربيع الاول بيت النوبة . واستأذن

للسلطان فى الأوبة . وان يستصحب السيدة والخاتون . وذكر أنهم بعد مضيهم عن قريب آتون . فأذن فى ذلك الخليفة وكانت ارسلان خاتون قد حملت من اطراح الخليفة لها غماً . وأما السيدة فقد كره الخليفة مسيرها فلما مضت أمضت بألم فراقها . وومضت لامل رفاقها . ولما انفصل السلطان عن بغداد اذن لهذارسب فى المضى الى الاهواز . مرعياً بالاعزاز . فأنه مكث على بابه ثلث سنين لا يؤذن له فى الانفصال . ولا يؤذن اربه المفارق بالوصال . وعقد ضمان بغداد على ابى سعد القاينى بثمانية وخمسين الف دينار فاعاد كل ما أبطله رئيس العراقين من ضر الضرائب . وشر النوائب . وقد كان هذا يتولى مطبخ عميد الملك وهواستاذ داره . فجرى المقدور برفع مقداره .

ذكر وفاة السلطان طغرلبك بالرىّ

قال : وفى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ توفى طغرلبك بالرىّ فاضطرب بهلكه الملك وبلغ عميد الملك نعيه وهو على سبعين فرسخا من الرىّ فقطعها فى يومين اشفاقاً من تشويش يتم . وتشوير ينم . فوصل وهو بحاله لم يدفن ولم يقبر فتولىّ دفنه وتوخى سكون الخلق وأمنه ومنع الغلمان من شق الثياب . وأخرج جميع ما كان يملكه على العسكر حتى الدواب . وأجلس سليمان بن داود ابن أخى السلطان وكانت أمه عنده ونصّ عمه عليه . وقرر الامر له وفوضه اليه . فسكنت الممالك . وأمنت المسالك .

ذكر سيرة طغرلبك رحمه الله

قال : كان كريماً حليما محافظاً على الطاعة . وصلاة الجماعة . وصوم الاثنين والخميس وكان يلبس الواذاريّ والبياض . وأشبهت أيامه بمحاسن سيرة الرياض . وكان لا يرى القتال ولا يسفك دماً . ولا يهتك محرماً . وكان شديد الاحتمال . سديد الافعال . حكى عنه أقضى القضاة الماورديّ أنه توجه فى رسالة القائم اليه فى سنة ٤٣٣ فكتب فيه كتاباً ضمنته الطعن عليه والقدح فيه . وغمط محاسنه وبسط مساويه . ووقع الكتاب من غلامى خل اليه فوقف عليه ثم ختمه وكتمه ولم يتغير عن عادة اكرامي . وشيمة احترامى . قال : وكذلك ذكر أن بعض خواصه كتب ملطفات الى الملك ابى كاليجار . يطلعه فيها على بعض الاسرار . فوقعت فى يده فاخفاها . وداوى هفوته بحلمه وشفاها . وكان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً . ويقول استحى من الله أن أبنى داراً ولا أبنى بجنبها مسجداً

قال : وحكي عميد الملك أنه لما مرض قال انما مثلى فى مرضى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف فتظن انها تذبح فتضطرب حتى اذا أطلقت تفرح ثم تشد قوائمها للذبح فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبح وهذا المرض شد القوائم للذبح وكان كما قال . قال : وتوفى وعمره سبعون . قال : وحكي عميد الملك أن طغرلبك قال له رأيت منامي فى مبتدا أمرى بخراسان كأنى رفعت الى السماء وقيل لى سل حاجتك تقض فقلت ما شئ أحب الىّ من طول العمر فقيل عمرك سبعون . قال : قال عميد الملك وكنت سألته عن السنة التى ولد

فيها فقال السنة التي خرج فيها الخان القلاني بما وراء النهر فلما توفى حسبت المدة فكانت سبعين سنه كاملة . قال : ولما وصل خبر وفاته الى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء به في صحن السلام فى السادس والعشرين من شهر رمضان

ذكر جلوس السلطان عضد الدولة الب ارسلان
أبي شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجق

قال : توفى أبوه داود ببلخ سنة ٤٥٠ وقام مقامه ولما خطب لاخيه سليمان بالري بعد وفاة طغرلبك مضى ارسعن وأردم الي قزوين وخطب لالب ارسلان وبلغ عميد الملك ذلك فاقام الخطبة بالرى لالب ارسلان وبعده لسليمان . وأقبل عضد الدولة الب ارسلان من نيسابور . يطوى السهول والوعور . وأقبل اقبال الضيغم الضارى . وأقدم اقدام للخضم الجاري . وكان ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل في كردكوه وقد طمع فى الملك . ولم يعلم أن ذلك يورطه فى الهلاك . فعارضه في جموعه فتقابلا وتقاتلا وانجلت المعركة عن قتل قتلمش وكانت منيته في عثور الفرس به . وقتل الب ارسلان من التركمان عدة وافرة . وحاز من أموالهم غنيمة ظاهرة . وساق حتى وصل الى خوار الرىّ ظافر الجند . ظاهر الجدّ . ومعه وزيره نظام الملك أبو عليّ الحسن بن عليّ بن اسحاق الطوسيّ فتلقاه عميد الملك فى حشمه وخدمه . وكوسه وعلمه . وعربه وعجمه . وأجلسه على السرير . وجرى

على عادته معه فى التدبير . فغار نظام الملك من استقلاله . واحتال مدة فى قبضه واعتقاله . فلما كان فى محرم سنة ٣٥٩ زار عميد الملك نظام الملك زيارة ايناس واعتذار . وترك بين يديه منديلا فيه خمسمائة دينار . فلما انصرف من حضرته . سار أكثر العسكر فى خدمته . فتخوف السلطان من عاقبة ذلك ومغبته . فأمر بقبضه وأنفذه الى مرو الروز ومكث سنة فى الاعتقال بها ثم سير اليه غلامين فدخلا عليه وهو محموم . وأخبراه بأن قتله أمر محتوم . وأنظراه حتى اغتسل وتوضأ وتاب ودخل لوداع أهله وخرج الى مسجد فصلى ركعتين . واستسلم للقضاء المقدّر بالحين . ووجد الغلظة من الغلامين . وضرباه بالسيف وأخذا رأسه وحملاه الى السلطان بكرمان وأماجئته فانها لفت فى خرقة كانت لفافة البردة النبوية كان استهداها من الخليفة . وفي قميص دبيقى من ملابس القائم الشريفة . وقبر فى قبر أبيه بكندر . وكانت مدة وزارته ثمانى سنين وشهورا . ولم يزل موسم جاهه فيها مشهوداً مشهوراً . وكان عمره نيفاً وأربعين سنة . وكانت محاسنه مفضلة وفضائله محسنة . لكنه تهوره وتهوينه . وغاية غيّه فى سوء التدبير وتوهينه . قصرت يده الطولى عن استمالة القلوب الجافية . واستلانة الخطوب الآبية . قال : وكان يرجع الى حسب ونبل . وأدب وفضل . وهو الذى يقول

الموت مرّ ولكنى اذا ظمئت * نفسى الى المجد مستحل لمشربه
رئاسة باض فى رأسى وساوسها * تدور فيه وأخشى أن تدور به

قال : وكان خصياً وسبب ذلك ان طغرلبك انفذه فى ابتداء حاله . وريعان اقباله . ليخطب امرأة فزوّجها لنفسه وعصاه . ولما ظفر به اقره على خدمته بعد ان خصاه . وكان حنفيّ المذهب كثير التعصب لمذهبه والذهاب

مع عصبه . ثم فارق التعصب وجمع بين العصابتين . وحسن رأى اجتهاده فى الاصابتين . وكان سبب معرفته بطغرلبك انه لما ورد نيسابور افتقر الى كاتب يجمع فى العربية والفارسية بين الفصاحتين فدله عليه الموفق والد أبى سهل فظفر منه بشاب فى رأى كهل

ذكر نظام الملك

قال : ولما صرف عميد الملك وعزل . ونقل الى حيث اعتقل . استوى أمر نظام الملك وبزغت بالسناء شمسه . وبلغت المنى نفسه . وعلا علمه . وجرى قلمه . وترفعت وسادته . وتفرعت سيادته . ومضت مضاربه . ومضت سحائبه .

ذكر ماجرى لألب ارسلان بعد ملكه

قال رحمه الله: كان قاورد بن داود أخوه قد استولى على كرمان فى زمان عمه طغرلبك فى سنة ٤٤٧ وملك شيراز فى سنة ٤٥٥ وقتل كل ديلمى بها وسفك وهتك . وبطش وأوحش . وخالف أخاه الب ارسلان . واعتصم منه بمدينة برد شير بكرمان . فسار اليه الب أرسلان وآمنه وأخذ قلعة اصطخر وأتاه مستحفظها بتحف فيروزج وكأس زمرد لم ير مثلها . وشمل بلادفارس احسان الدولة وعدلها.

قال : ووصل اليه شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش فى سنة ٤٥٧ فأكرم وفادته . وأكثر افادته . وأجرى فى اقطاعه هيت والأنبار وحربى والسن والبوازيج ووصل شرف الدولة هذا الى بغداد فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٧ فتلقاه الوزير . فخر الدولة ابن جهير . وألفى من اقباله عليه خير ظهير . قال : وأوغل السلطان فى بلاد الخزر من طريق نخجوان . وكثر لاعانة الايمان ونصره الانصار والأعوان . والجأ ملك الابخاز بقراط ابن كيوُرَكى الى طلب هدنته . وعرض ابنته . فتزوج بها وهادنه . وقبل بذله وامنه . ثم طلق الملكة الكرجية وزوجها لنظام الملك وزيره وسار وفتح بلدآنى وعنت له البلاد . واذعنت العباد . وسرّي البأس وسرّ الناس .

ذكر وصول شرف الملك أبي سعد محمد بن منصور بن محمد

﴿ مستوفى المملكة الي بغداد ﴾

قال : وكان وصوله الى بغداد فى صفر سنة ٤٥٩ وقد كان جليل النسب . جلى الحسب . وما تولى للسلجقية مثله كرماً وخيراً وفضلا كثيراً وغنى وغناء . وسنا وسناء . قال عماد الدين رحمه الله: وكان جدى لامى أمين الدين علىّ المستوفى رحمه الله كاتباً له فى ريعان عمره . وعنفوان أمره . الى ان صار بعد كاتبا لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه وكان يحدثني فى صغرى وهو شيخ كبير عن شرف الملك بكل ما يدل على سيادة نفسه ونفاسة سودده . وذكر أنه كان مع فضله ذا تفضل . ومع اجماله ذا تجمل . وحكى أنه كانت له ثلثمائة وستون كسوة مكملة . مفضلة معزلة على عدد أيام السنة من الملابس الفاخرة فيلبس كل يوم ما يناسبه من أيام الفصول الاربعة . فاذا خلع منها أو وهب . أعاد خازنه الى الخزانة عوض ما ذهب . فلما وصل الى بغداد حضر بيت النوبة فى ثانى عشر صفر فبشر باقباله سفيرا وجه القبول . وسفر وخدم الخليفة بمصحف جليل وقطعة بلخش فى منديل . وأوصل كتاب السلطان فى خريطة سوداء . وسرّ الأودّاء . وساء الاعداء . قال : ووجد نواب نظام الملك الوزير قد شرعوا فى بناء المدرسة فاغتنم اقتداره على الاقتداء وبنى على ضريح ابى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه . وأعلم بعلمها ثوب ثوابه . قال : وكتب الشريف أبو جعفر البياضيّ على القبة

ألم تر هـذا العلم كان مشتتاً * فجمّعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة * فأنشرها فضل العميد ابى سعد

قال : ووصلت ارسلان خاتون زوجـة الخليفة الى بغداد فى مسـتهل جمادى الاولى سـنة ٤٥٩ واستقبلها الوزير فخر الدولة على فراسخ . وجلا بفجر فخره السافر وطود وقاره الراسخ . ووقفت موكبها له عند القرب من الالتقاء . وخدمها على ظهر فرسه بالدعاء . وأقبلت وقبلت . ودخلت وخلت وعادت الى عادة السعادة . ووافت للزيادة . للأيفاء على الزيادة .

ذكر حوادث طوارئ وطوارق واتفاقات وموافقات

قال : فى شهر رمضان سنة ٤٥٨ توفى محمد بن الحسين بن الفراء شيخ الحنابلة . وناهج طريقهم السابلة . وفى هذه السنة استتم بناء المدرسة النظامية ببغداد وانتظمت أحوالها . وسكنها من حملة الشريعة رجالها . ودرس فيها الشيخ أبو اسحاق الشيرازىّ رحمه الله فأحيي من العلم مادرس . وكشف من الحق ماالتبس . وشرح الأصول وفرعها . وأوضح الادلة ونوّعها . وفى سنة ٤٦٠ توفى الشيخ عبد الملك أبو منصور بن يوسف وكان من أماثل بغداد وأعيانها . والمرجوع اليه فى نوائب الليالي وحدثانها . وكان قد أجمع الناس على صلاحه واستجادة رأيه واسترجاحه . ومن جملة خيراته انه تسلم

البيمارستان العضدى وقد استولى عليه الخراب . وناب أوقافه بالنوائب النواب فعدره وطبقه وأحسن فى أحواله ترتيباً . وأقام فيه ثلثة خزان وثمانية وعشرين طبيباً . قال : ورثاه أبو الفضل صردر بقصيدته التي أولها

لاقبلنا فى ذا المصاب عزاء * أحسن الدهر بعده أم أساء

قال : وفى هذه السنة توفى أبو الجوائز الواسطى وكان شاعر زمانه . وفارس ميدانه . وفى هذه السنة توفى أيضاً ابو جعفر الطوسى بمشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وكان امام الشيعة وهو الذي صنف التفسير . ويسر من أمورهم العسير . وفى جمادى الأولى من هذه السنة كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت الديار وأتلفتها . وخربت مبانيها ونسفتها . وفيه توفى صاحب ديوان الزمام ابو نصر محمد بن أحمد المعروف بابن جميلة ورثاه أبو الفضل بقصيدة منها

إن يكن للحياء ماء فما كان له غير ذلك الوجه مزنا

لهف نفسى على حسام صقيل * كيف صارت له الجنادل جفنا

ونفيس من الذخائر لم يـــؤمن عليه فاستودع الأرض خزنا

قال: فرتب فى ديوان الزمام أبو القاسم بن فخر الدولة بن جهير . ولقب عميد الرؤساء . واجتاب خلعة الاجتباء . ومدحه أبو الفضل بقصيدته التى أولها

صبحها الدمع ومساها الأرق * كم بين هذين بقاء للحدق

وفى ثانى عشر رجب ورد الي بغداد ابو العباس الخوافى عميدا . وقدم بخوافى جاهه وقوادمه حميدا . قال : وعزل الوزير فخر الدولة بن جهير ليلة المهرجان فى ذى القعدة بالتوقيع الامامى بمحضر من قاضى القضاة أبي عبد الله الدامغانى فسار الى نور الدولة دبيس وهو بالفلوجة فآواه . وأكرم مثواه

وقد كانت الوزارة تقررت لأبي يعلي والد الوزير أبي شجاع وهو كاتب هزارسب بن بنكير فكوتب للزيارة . وخوطب بالوزارة . فورد الخبر بمرضه يوم صرف ابن جهير . وبوفاته يوم وصوله الى الفلّوجة كما جرى به قلم التقدير .

وفى سنة ٤٦١ عول الخليفة فى الوزارة على أبي الحسن ابن عبد الرحيم . فثار العوامّ وقالوا لا طاقة لنا من ظلمه بورود الجحيم . فهو الذى أتى بالبساسيرىّ وأعلن احداث الليالى . وقالت خاتون هو الذى نهب مالى . فصرف قبل التصريف . ونكر قبل التعريف . ولم يزل الخليفة فيمن يستوزره يفكر حتى كاتب نور الدولة الخليفة فى معنى ابن جهير وذكر أنه خير وزير وظهير فاجاب الى اعادته . الى عادته . ووصل فى ثانى عشر صفر وجلس له فى التاج . ووجد أمله بالنجح مفتوح الرتاج . وقال له « الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته . وواصل الحبل بعد بتاته » وفى تلك النوبة مدحه صردر أبو الفضل بقصيدته التى مطلعها

قد رجع الحق الى نصابه * وأنت من دون الورى أولى به

وركب هو وولداه فى موكب واجتاز فى جميع محال الجانب الغربي ونثر عليه أهل الكرخ اكياس الدراهم والدنانير وخرج اليه توقيع من انشاء ابن الموصلايا . وتسنت له المراتب السنايا .

قال : وفي النصف من شعبان هذه السنة احترق جامع دمشق ففجع الاسلام بمصابه . وصلت النيران فى محرابه . واشتعل رأس القبة شيباً بما شبت . وأكلت أم الليالي منها ما ربت . وطار النسر بجناح الضرام . وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام . وكأن الجحيم استجارت به فتمسكت بذيله . أوكأن النهار ذكر ثأراً عنده فعطف على ليله . فواهاً له من مسجد

أحرقته نفحات أنفاس الساجدين . وعلقت فيه لفحات قلوب الواجدين . وقبل أصابت حسنها العيون . وأتهم بذلك الولاة المصريون . ثم تداركه الله بالالطاف والاطفاء . وأتاه بالشفاء . بعد الاشفاء . وقال حسبه اصطلاء واصطلاما . وحقق فيه قوله قلنا يا نار كونى برداً وسلاما .

قال : وفى سنة ٤٦٢ أقبل كلب الروم فى جموعه وأخنى على من بمنبج واجتاحها . واستبي حاميتها واستباحها . وعاد الى قسطنطينيته وقد ساءت آثاره . والدين قد ثار ثأره . وفى هذه السنة زوج نظام الملك بنته لعميد الدولة ابى منصور محمد بن فخر الدولة الوزير بن جهير . وصارت له مصاهرته خير ظهير . وكان عميد الدولة قد توجه الى السلطان بالرىّ فى رسالة فتلقى بكرامة وجلالة . واستتمت له هذه المصاهرة . واستتبت المظاهرة . ووصل فى رجب وفى صحبته رسل محمد بن ابى هاشم وقد كان بعثهم الى السلطان وضمن لهم اقامة الخطبة بمكة حرسها الله تعالى له وخلع الخليفة على عميد الدولة فى بيت النوبة فرفل فى ملابس الاصطناع . وجعل اليه الانهاء والمطالعة ومراعاة الاقطاع . وقرئ له توقيع من انشاء ابن الموصلايا تمكن به من افتراع عذرة الارتفاع وتصدر فى الوسادة . وتصدى للسيادة . وفى هذه السنة توفى تاج الملوك هزارسب بن بنكير بن عياض منصرفاً من باب السلطان الب ارسلان . وهو خارج من اصفهان على قصد خوزستان . وكان قد علا أمره وعرض جاهه وتزوج بأخت السلطان . واستظهر منه بالمكانة والامكان . وتزوج بعده مسلم بن قريش بأخت السلطان زوجته . وتدرج الى درجته . وفى هذه السنة ورد أمير الحرمين محمد بن أبي هاشم الحسنى الى بغداد على قصد الوفادة الي السلطان فكتب الخليفة معه بعد ان شرفه ورفعه . وعاد فى

محرم سنة ٤٦٣ من المعسكر السلطاني على باب آمد . وقد استفاد الفوائد . وأفاد المحامد .

ذكر أحوال الب ارسلان بديار بكر والشام

قال رحمه الله : ولما توجه الب ارسلان الى ديار بكر خرج اليه نصر بن مروان وتلقاه وحمل له مائة الف دينار فقبل احسانه وأحسن قبوله . وسأل عن قضاياه وقضى سوله . وقيل أنه قيل له إن هذا المال قد قسطه على البلاد فامر برده . وعف عنه وعاف وبيل ورده . وانتهى الى أمد آمد من قصده . فوجد ثغرها ممتنعاً . وسورها مرتفعاً . فمسح السلطان للتبرك به يده على سورها وأمرّها على صدره . ثم توجه منها الى الشام وعبر بالرّها . وتعذر عليه أمرها . فحل بحلب وشرع فى حصارها . وأحاط باسوارها . وصاحبها حينئذ محمود بن صالح بن مرداس . وكان قد خطب فى تلك السنة لبنى العباس . وقد وجد لتشريف الخليفة خلف سروره جافلا . وأصبح فى ملابس الجلال وخلع الجمال رافلا . وعنده من جانب الخليفة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبى فضايقه الب ارسلان وأخذ بمخنقه . ووقف على طرقه . وخرج نقيب النقباء وسأل أن ظل الاكرام عنه لا يقاص . وأن ورد الانعام عليه لا ينتقص . فأبى الرضى عن محمود الا بدوس بساطه حامداً راضياً . ولعفوه عافياً . ولحق طاعته وضراعته متقاضياً . فلم يخرج اليه فاحتد القتال . واحتدم النزال .

وطال الحصار، وطارت الاحجار . ووقع فى فرس السلطان حجر استشاط من وقعه . وخاف محمود لما ضاق به الامر من اتساع خرق يعجز عن رقعه. فخرج ليلا الى السلطان ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميرى يخضعان ويضرعان وقالت للسلطان « هـذا ولدى قد جئتك به فافعل ما تحب . وقد اعترفنا وعرفنا أن سلامتنا الا بسلك لا تستتب » قال : فعفا السلطان وصفح وأعاد محموداً الى مكانه محمود المكانة . وقد ارتفع بالتواضع وتسامى بالاستكانة. وأمنت الشهباء، وسكنت الدهماء،

ذكر خروج ملك الروم وكسره وقسره وأسره

قال : وبلغ السلطان خروج أرمانوس ملك الروم فى جمع لا يحصى عدده. ولا يحصر مدده . فلما سمع هذا الخبر أغذ السير الى آزربيجان اذ سمع أن متملك الروم أخذ على سمت خلاط . وكان السلطان فى خواص جنده فلم ير أن يعود الى بلاده ليجمع عساكره . ويستدعى من الجهات للجهاد قبائل الدين وعشائره. فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته الى تبريز مع أثقاله . وبقى فى خمسة عشر الف فارس من نخب رجاله . ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه والروم فى ثلثمائة الف ويزيدون ما بين رومى وروسى وغزى وقفجاقى وكرجى وأبخابى وخزرى وفرنجى وأرمنى . ورأى السلطان انه ان تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم بلاء البلاد . وثقلت أعباء العباد. فركب فى نخبته وتوجه فى عصبته وقال « انا احتسب عند الله نفسى وان سعدت

بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي . وان نصرت فما أسعدني . وأنا أمسي . ويومي خير من أمسي »

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية . والصريمة الصارمة الروية . وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس في عشرين الف فارس ومعهم عظيمهم الأصلب وصليبهم الأعظم وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسباء . فخرج اليهم عسكر خلاط ومقدمهم صنداق التركي فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم . وخاض الى العز مشمراً نار الحريق المتضرم . وقتل منهم خلقاً كثيراً وقاد قائدهم في القيد أسيفاً أسيراً . فأمر السلطان بجدع أنفه . وارجاء حتفه . وذلك يوم الثلثاء رابع ذي القعدة سنة ٤٦٣ وعجل الصليب السليب الى نظام الملك ليجعل انفاذه الى دار السلام . مبشراً بسلامة الاسلام . وتلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصراً . وأهلها واثقون بالله الذي لم يزل لدينه ناصراً . ونزل متملك الروم على منازكرد في انصار نصرانيته . وعمداء معموديته . فانزعج سكانها . وتزعزعت أركانها . وعلموا انه ليست لهم بما نزل بهم طاقة . وان دماءهم لاشك بسيوف الكفر مهراقة فخرجوا بأمان وسلموا البلد فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه . تحت احتياطه . فلما بكر يوم الأربعاء سيرهم بأسرهم في أسر وأردفهم بعسكر مجر وخرج ليشيعهم بنفسه . وهو في جماعة حماته وحمسه . ووافق ذلك وصول أوائل العسكر السلطاني ووقعت العين في العين . واجتمعت على المجالدة اجادل الجمعين . وجرى الخيل . وجرف السيل . وانجر من الأرض على السماء الذيل . وصحت على الروم كسرة اردتهم . وصدقتهم عن مقصدهم وصدتهم . فانعكسوا الى مجثمهم في مخيمهم وانكشفوا بما تم من عرس الاسلام بمأتمهم . وشرعت المنازكردية يتسللون

فقتل الروم منهم من أدركه أجله ونجا الباقون . وعرف الروم انهم للموت ملاقون . وعاد متملكهم الى مضاربه وبات تلك الليلة والكوسات تصرخ . والبوقات تنفخ . ولما أصبحوا بكرة يوم الخميس وصل السلطان الب ارسلان ونزل على النهر ومعه من المقاتلة الاتراك خمسة عشر الف فارس لايعرفون سوى القتل والقهر . وكلب الروم نازل بين خلاط ومنازكرد فى موضع يعرف بالزهرة وهو فى مائتى الف فارس من ذوى القلوب المدلهمة والوجوه المكفهرة وبين العسكرين فرسخ . وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ . فارسل الب ارسلان رسولا . وحمله سؤالا وسولا . ومقصوده ان يكشف سرهم . ويتعرف أمرهم . ويقول للملك ان كنت ترغب فى هدنة اتممناها . وان كنت تزهد فيها توكلنا على الله فى العزمة وصممناها . فظن انه انما راسله عن خور فأبى واستكبر . ونبا وتعسر . وأجاب بانى سوف أجيب عن هذا الرأى بالرى . وانتهى عن النهي الى غاية الني . فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهما المخاطبة . وانقطعت المواصلة . ولبث يوم الخميس الخميسان يعبيان . ولداعى المنون يلبيان . والشمس تشكو حرّ ماتصاعد اليها من زفرات الاحقاد . وكأنما شعاعها دم اراقته على الآفاق وخزات تلك الصعاد . والطلائع . على المطالع . والمنايا . على الثنايا . والعزم السلطانى الى اللقاء مشرئب . وللمضاء مستتب . فقال له فقيهه وامامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى «انك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر» فلما أصبحوا يوم الجمعة ارتجت الارض بالضجاج . وارتجت السماء بالعجاج . وقد لقحت الحرب العوان بالمهندة الذكور . والمسوّمة الفحول . والكماة الحماة يحمون حمى الحمام ويحومون حول الدحول . ووقعت الطوالع

فى الطوالع . وقرعت القواطع بالقواطع . وغنت الظبي ورقصت المرّان . ومال القنا وجالت الفرسان . ودارت الكؤوس : وطارت الرؤس . وما فتئت الفتيان تجور وتجول . والخرصان تصوب وتصول . الى ان دنا وقت الزوال . وذان لقت الدين مقت النزال . وصدحت أعواد المنابر بالخطباء . وصدقت نيات أهل الجمعة للمجاهدين فى اخلاص الدعاء . فنزل الب ارسلان عن فرسه وشد للحزم حزامه . وأحكم سرجه ولجامه . ثم ركب جواده . وثبت فؤاده . وقوى قلبه . وسوى قلبه . وفرق أصحابه أربع فرق كل فرقة منهم فى كمين . وراح وله من الروح الأمين مجير أمين . ولما علم أن الكمين مكين . وأن الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضمين . تلقى بوجه الحر حر الحرب واستحلى طعم الطعن وضرب الضرب . وحمل متملك الروم بجمعه . وأخذ ببصر الدهر وسمعه . وأقبل كالسيل يطلب القرار . والليل يسلب النهار . وثبت لهم خيل الاسلام ثم وثبت . وجالت وما وجلت . واستجرت الروم الى ان صار الكمين من ورائها . ووقفت المنون بازائها . ثم خرج من خلفها وذوو الأقدام من قدامها . ووقعت نار البيض فى حلفاء هامها . فآذنت بانهزامها . وانكسرت كسرة لاتقبل جبراً . فطائفة لم تثبت للقتال ولم تصبر وطائفة تثبت فقتلت صبراً . فما نجت من أولئك الألوف آحاد . وما سلمت من أعداء الاسلام اعداد . وملك الملك وقيّد وقِيدَ وقيداً . وأسر ولم يجد له معيناً ولا معيذاً . وركب المسلمون اكتافهم . وقتل الآحاد آلافهم وطهرت الأرض من خبثهم . وفرشت بجثثهم . وصارت الوهاد باشلاء القتلى أكماً . والمروت من قصد القنا أجماً

قال : وكانت مع الروم ثلثة آلاف عجل تنقل الاحمال . وتحمل الاثقال

ومن المنجنيقات التى تحملها منجنيق هو أعظمها وأثقلها . له ثمانية أسهم ويمد فيها الف ومائتا رجل ويحمله مائة عجل يرمي حجراً وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار . وكأنه جبل له فى الجو مطار .

قال : وشملهم بأسرهم القتل والأسر . وبقيت أموالهم منبوذة بالعراء لاترام . ومعروضة لاتسام . وسقطت قيم الدواب والكراع . والسلاح والمتاع . حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة وبدينار ثلاث ادراع . ومن عجيب ما حكي فى أسر الملك انه كان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه لنظام الملك فرده عليه . ولم ينظر اليه . فرغبه فيه كثيراً . فقال نظام الملك وما يراد منه عسى ان يأتينا بملك الروم أسيراً . وذكر ذلك استهزاء به واستصغاراً لقدره . واحتقارا لأمره . فاتفق وقوع متملك الروم يوم المصاف فى أسر ذلك الغلام . ووافق تصديق قول النظام . وخلع السلطان عليه وقال « اقترح من العطاء ما أعطيك » فطلب بشارة غزنة

قال : ودخل السلطان الى اذربيجان بملكه وأيده . والملك فى قيده . وصيده . وهو أسيف جهده وأسير جهله . ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله . فانه خرج وفى نيته فتح الدنيا وحتف الدين . وقهر السلاطين ونصر الشياطين . ثم ذل بعد العزّ وهان . وتعرض للابتذال كل ماصان . ثم تعطف عليه السلطان وأحضره بين يديه وقال « اخبرنى بصدقك فى قصدك وما الذى قدّرت لو قدرت » فقال : « كنت احسب اني أحبس من أسرته منكم مع الكلاب . واجعله فى السبايا والاسلاب . وان أخذتك . أسورا اتخذت لك وقد ساء جورى ساجورا » فقال السلطان « قد عثرت على سرّ شرك فما ذا بك الآن نصنع . ونحن منك بما نويته فينا لانقنع » فقال « انظر عاقبة فساد

نيتي والعقوبة التى جرتها الى جريرتي » فرق له قلب الب ارسلان وأرسله وفك قيده ووصله وأفرج عنه معجلا . وسرّحه مبجلا . ولما انصرف الملك ارمانوس مأنوساً رمي ناسه اسمه . ومحوا من الملك رسمه . وقالوا هذا من عداد الملوك ساقط . وزعموا ان المسيح عليه ساخط .

ذكر احداث حدثت فى هذه السنين

قال : فى آخر سنة ٤٦٣ توفى أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المحدث الخطيب مؤلف تاريخ بغداد وكان علامة دهره . وعالم عصره . وفى سنة ٤٦٤ كان السلطان رتب لبغداد شحنة يقال له آيتكين السليمانى ووردها فى شهر ربيع الأول فلم يرض الخليفة بتوليته وذلك لأن ابنه قتل أحد الغلمان الدارية فصرفه السلطان بسعد الدولة كوهرائين ووصل الى بغداد فى شهر ربيع الآخر . فى جمع كالبحر الزاخر . ووقع باقباله الاحتفال . ورتب لحفله الاستقبال . وخرج الناس على طبقاتهم لتلقيه . وجرى القدر بترقيه . وجلس له الخليفة فى دار ارسلان خاتون وتهذب البلد بسياسته . وتمت الحماية بحميته . وورد فى آخر شهر ربيع الاول الوزير أبو العلاء محمد بن الحسين وعليه خلع سلطانية وكان قد نبه السلطان الي خدمة الخليفة . لتقوية ما توهمه من الاسباب الضعيفة . وخصه بالحب والحباء . ولقبه بوزير الوزراء . وأقطعه النصف من اقطاع الوزير فخر الدولة ابن جهير . فلما وصل تقدم الخليفة بأن لا يستقبل . ولا يحتفل

به اذا أقبل . ولا يقبل . فلما انتهى الى باب النوبى نزل وقبل الارض وانصرف . ولم يرض للقبول وما تصرف . وأقام ببغداد أياماً ثم رحل وحلّ بالحلة المزيدية مستزيداً . وصرف أخوه أبو المعالي عن الحجبة فعاد بعد ان كان حاجباً قريباً محجوباً بعيداً . وفى صفر من هذه السنة توجه عميد الدولة أبو منصور ابن الوزير بخلع امامية الى الب ارسلان بنيسابور ووكل فى تزويج المقتدى بنت الب ارسلان المنعوتة بخاتون السفرية . فسفر وجهه وجاهته بهذه السفرة الصفرية . فلما وصل تلقى بالعظماء واستقبل وتقدم بانزاله فى المرتبة الكبيرة . وترتيب الانزال الكثيرة . وعقد العقد للمقتدى على بنت السلطان فى أسعد ساعة . وأحسن عادة . وكان يوماً مشهوداً أزهر . قد نثر فيه الملوك الجوهر . ولما عاد عميد الدولة جعل على اصفهان العبور . فلقى من ملكشاه ولد السلطان الحب والحباء والحبور . وأفاض عليه الخلع الامامية فلبسها . وأحكم عنده قواعد الامور فى العواقب وأسسها . وكان ملكشاه قد عاد من شيراز وهو سائر الى والده . وورد المملكة منه ظمآن الى وارده . وعاد عميد الدولة الى بغداد فى ثامن عشر ذى الحجة . بادى الحجة هادى المحجة

ذكر وفاة الب ارسلان فى سنة خمس وستين وأربعمائة

قال : فى أول هذه السنة توجه السلطان الب ارسلان لقصد بلاد الترك . وقد كملت له أسباب الملك . فى أكثر من مائتى الف فارس ومد على جيحون جسراً . كما خط الكاتب على الطرس سطراً . وكانت مدة عبور العسكر عليه شهراً وكان قد قصده شمس الملك تكين بن طمغاج . والاقبال قد بلغ الكمال وأوضح المنهاج . وانه فى سادس شهر ربيع الأول بكر وهو فى الصدر الارحب والباع الاطول . والكمال الابهى والبهاء الأكمل . وهو جالس على سرير سروره . لابس حبير حبوره . وسمطا سماطيه المدودين من فرائد مفرديه منظومان . والبأس والنائل لاوليائه وأعدائه مقسومان . والعظماء واقفون والموقف عظيم . والكرماء قائمون والمقام كريم . والهيبة مالكة . فحمل اليه أصحابه مستحفظ قلعة يقال له يوسف الخوارزمى وهو يرسف فى قيده . ولم يدر أنه يسرف فى كيده . وحمل الى قرب سريره وهو مع غلامين . وقد شدا بيده اليدين . فتقدم بان يضرب له أربعة أوتاد لتشد اليها أطرافه . ويعجل على تلك الهيئة اتلافه . فقال : « مثلى يقتل هذه القتلة ويلقى هذه المثلة » فحمى السلطان واحتد وأخذ قوسه وسهمه . وترك رأيه وحزمه . وأمر بحل رباطه . وان يخلى عن احتياطه . وقال للغلامين خلياه ورماه . فأخطأه وكان على تخت فوثب ونزل فوقع على وجهه فى عثره فجاءه يوسف فجاءة فوجاءه بسكين فى خاصرته . وكان سعد الدولة كوهرائين واقفاً فجرحه يوسف جراحات ونهض السلطان الى خيمة أخرى مجروحاً فاما يوسف

الخوارزمى فانه ضربه فراش أرمنى بمرزبة على أم رأسه . فوفت الضربة بقطع أنفاسه . وأما الب ارسلان فانه أحضر وزيره نظام الملك فاوصى به واليه . وعول فى كفاية المهمات وكف الملمات عليه . وجعل ولده ملكشاه ولى عهده . وفوض اليه الملك من بعده . وخص ابنه اياز بما كان لأبيه داود ببلخ وعين له خمسماية الف دينار وقال له اقصد نصرة أخيك وجعل القلعة بها لملكشاه وقال له ان لم يرض فضيق عليه واستعن على قتاله . بما عين له من ماله . ووصى لأخيه قاورد بك بن داود بأعمال فارس وكرمان . وأجري له بتعيين شئ من المال والاحسان . وانتقل الى جوار ربه فائزاً بالشهادة . حائزاً للسعادة . وكان مولده فى سنة ٤٣٤ واستشهد وقد بلغ من العمر أربعين سنة وملك تسع سنين وشهورا .

قال : وحكى انه قال حين حينه . وقد عاين الموت بعينه . ما كنت قط فى وجه قصدته . ولا عدو أردته . الا توكلت على الله فى أمرى . وطلبت منه نصرى وأما فى هذه النوبة فانى أشرفت من تل عال . فرأيت عسكري فى أجمل حال . فقلت اين من له قدر مصارعتى . وقدرة معارضتى وانى اصل بهذا العسكر الى أقصى الصين . فخرجت على منيتى من الكمين

قال : وكان الب ارسلان بالبرية باراً . ولم يزل احسانه عليهم من داره داراً . وكان يطبخ كل يوم خمسون رأساً من الغنم فى مطبخه للفقراء وذلك سوى الراتب المعين للسماط برسم العسكر والأمراء . وكان اذا أمر ببناء أوعزم بأن يكون أسمى بنيان وأسمقه . وأشرف مكان وأشرقه . ويقول « آثارنا هذه تدل على علو همتنا . ووفور نعمتنا » وخلف عدة من البنين وهم ملكشاه وتكش وأياز وتتش وأرسلان أرغون وبورى برس

ذكر جلوس السلطان جلال الدولة ابى الفتح ملكشاه بن الب ارسلان على سرير الملك

قال : ولما دفن الب ارسلان عند قبر ابيه بمرو اقام ابنه اياز ببلخ وعاد ملكشاه بالعساكر . وسمع قاورد بوفاة أخيه الب ارسلان فسار للرىّ طالباً وفى الملك راغباً . فسبقه اليها ملكشاه وأمن ما كان يخشاه . وصار منها قاصداً للقاء قاورد ورده . وفل حده . فالتقوا بقرب همذان رابع شعبان . وكان عسكر ملكشاه الى عمه مائلا . وبقوله قائلا . فلما تلاطم البحران . والتقى الجمعان . حمل قاورد على ميمنة ملكشاه وجعلها دكاً . وأوسعها فتكاً وحمل شرف الدولة مسلم ابن قريش وبهاء الدولة منصور بن دُبيس ومن معهما من العرب والأكراد على ميمنة قاورد فدكوها وخرقوها . وغاظ أصحاب ملكشاه ماصح من كسر عمه وقالوا ماعرتنا هذه الاكدار الا من الاعراب والاكراد . وصدونا بقصدهم عن مراد المراد . فمضى المنهزمون من أصحاب ملكشاه الى حلل العرب ونهبوها . وشنوا عليها الغارة وسلبوها. وجاء رجل من أهل القرى الى ملكشاه وأخبره بأن عمه فى قرية بقربه . وقد انفرد عن حزبه . فسار اليه وأخذه . وأمضى فيه حكم بأسه وأنفذه وتقدم الى كوهرائين بخنقه وهو يتضرع ويتضور . فخنقه غلام أرمنى أعور

قال : وملك ملكشاه .وجاءه الجاه . وحمل أمر امرائه بحلمه . وحكم برضاهم وأرضاهم بحكمه . وخلع على نظام الملك ورد به الملك الى النظام .وعول

عليه فى تولى وزارته ومناصبه العظام . وأعطى سرهنك ساوتكين أعمال قاورد عمه ولقبه بلقبه عماد الدولة وولاه ولاياته . وخصه بمناجيقه وكوساته . وأجزل لامراء العرب والأكراد نصيب الاصطفاء والاصطناع . ووفَّر حظه من التشريف والاطلاق والاقطاع

ودخلت سنة ٤٦٦ وورد فى صفر منها سعد الدولة كوهرائين الى بغداد وجلس له الخليفة القائم بأمر الله فى ثانى صفر . وقام عدة الدين المقتدى على رأسه وهو ابن ثمانى عشرة سنة وسلم الخليفة الى كوهرائين عهد الخلافة بعد ان قرأ أوله . ومتضمنه انه جعل عليه فى الملك معوله . وكان اذناً عاماً للخاصة والعامة فى الوصول . ولم يمنع فى ذلك اليوم أحد من الدخول . وورد الخبر بوفاة أياز أخى السلطان وكفى أمره كما كفى أمر عمه . قلبه من شغله واستراح من همه . قال : وفى هذه السنة غرقت بغداد ولم يسلم سوى دار الخليفة . وما فى جوار سدتها الشريفة . وغرق مشهد باب التبن وانهدم سوره . وخرب معموره . فأطلق له شرف الدولة مسلم ابن قريش الف دينار وأعيدت عمارته . وأمكنت زيارته // وورد مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك والماء طام . وغارب دجلة ذو سنام سام . وقد انسدّت افواه الطرق فترك استقباله للضرورة العائقة . ودخل على غير الصورة اللائقة . فانه ركب فى سفينة وانحدر الى باب المراتب ولما حاذى التاج قام اداء للواجب ولما قرّ فى منزله ظنّ ان الخليفة مانبأ باستقباله الا وقد نبا عن تقبله . ومضى اليه النقيبان وقاضى القضاة ولم يوصلهم بل ردهم . وصدفهم وصدهم . وقال : «جرى بى تهاون وعلى تعاون » فأنفذ الخليفة اليه من أوضح له العذر . واستخلص منه بانفاذ الخلع اليه الحمد والشكر . واستأذن الخليفة فى الركوب بباب المراتب

فأذن له وأملى له . فى كل نجح أمله . قال : وورد عميد الدولة ابو منصور بن الوزير فخر الدولة من الرى مشمولا من جلال الدولة ملكشاه بالاجلال . وترك استقباله لما اتفق فى حق مؤيد الملك من ترك الاستقبال . وفى آخر هذه السنة توفى زعيم الملك ابو الحسن بن عبد الرحيم فى الحلة المزيدية . وكان مرشحاً للمناصب السامية السنية //

ذكر وفاة القائم بأمر الله رضى الله عنه وتولى المقتدى بأمر الله

قال : وكانت وفاته ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ وقد كان زرع عمره استحصد . فما اقتصد . فى ألم ألم وافتصد . ونام منفرداً فانفجر فصاده لما غلبه رقاده . وخرج منه دم كثير أقوت منه قواه وانتبه والضعف قد تضاعف . والحمام قد شارف . فطلب ثقاته واستحضر عدة الدين وأودعه وصايا يكون بها عن القائم القائم . واحضر النقيبين وقاضي القضاة والقاضى أبا الحسن بن البيضاوي والقاضى أبا محمد بن طلحة الدامغاني والوزير قائم والقائم مستند فى شباك . وهو فى سكون يشعر بما ليس بعده من حراك . وقال لهم « اشهدوا على ماتضمنته هذه الرقعة التى كتبت فيها سطرين بخطى » ثم قضى نحبه وتولى أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم وبويع يوم وفاة جده وجلس فى دار الشجرة على كرسى بقميص أبيض وعمامة بيضاء لطيفة وفوقها طراحة قصب درى

ودخل الوزير فخر الدولة أبو نصر وولده عميد الدولة ابو منصور واستدعى مؤيد الملك بن نظام الملك والنقيبان وقاضي القضاة وحضر أعيان الدولة من ذوي المراتب والكُفاة . وهناك نور الدولة دبيس بن علي المزيدي وولده بهاء الدولة وأبو عبد الله محمد بن حماد الاسدي وبايعوه . وعاقدوه على الطاعة وشايعوه . وصلى بالناس العصر في صحن السلام وا ئتموا به وصلى على القائم وأغلقت الأبواب ببغداد ثلثة ايام لعقد المأتم وجلس فخر الدولة الوزير وابنه عميد الدولة للعزاء ثلثة أيام ومضى عميد الدولة الى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة عليه . وحمل عهده اليه . وعاد الى بغداد في سنة ٤٦٨ وأوصله الخليفة الي مجلسه الأشرف ، وخصه باكرامه الالطف . وكان قد سير من الديوان القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد البيضاويّ في صحبة مؤيد الملك الى والده نظام االملك ليسير منه الى غزنة ويأخذ البيعة على صاحبها فعاد مصحوباً بالجدة قد أترب وفرع الرتب . ولما سكن الى الثراء سكن الى الثرى . وتوفى في شهر ربيع الأول من سنة ٤٧٠ وكان فاضلا على مذهب الشافعي ذكيّاً زكيّاً

قال : وفي سنة ٤٦٨ جدّ الجدب وحلّ المحْل . وحط للقحط الرحل . وأقوت القوة وعدم القوت حتى كفى الله النقمة . وكشف الملمة . قال : وفي هذه السنة تسلم نصر بن محمود صاحب حلب قلعة منبج من الروم وخلصها من أيديهم . وانقذها من تعديهم ، وفي سنة ٤٦٩ تزوج عليّ بن ابي منصور فرامرز بن علاء الدولة ابي جعفر بن كاكويه بارسلان خاتون بنت داود التي كانت زوجة القائم وكانت فارقت بغداد حين عرفت بوفاة أخيها البارسلان وخرج عنها وتوفى بعد ذلك القائم عنها فاستبدلت عن القرشي ديلمياً ، وعن

الامام أمياً . وفى هذه السنة ورد الى بغداد الشيخ الامام أبو نصر بن الاستاذ ابى القاسم القشيرى رحمه الله حاجا . وأوضح بعلمه منهاجاً . وجلس للوعظ فى النظامية . وفى رباط الصوفية . وأبدى شعار الاشعرية . يزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنزهة . ويبطل شبه المجسمة . فثارت الفتنة من العامة وقصدت الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة . وأظهروا شناعة . وكان قد ورد مؤيد الملك بن نظام الملك من المعسكر فلم يطق دفعاً . ولم يستطع منعاً . فنسب نظام الملك الى بنى جهير الجهر بتلك الفتنة . وحنا أحناءه لهم على الاحنة

واتفق وفاة ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة فى شعبان سنة ٤٧٠ ودفنت بدار الخلافة اكراماً لأبيها . ولم تجر العادة بالدفن فيها . وانقطع مابين النظام . وبينهم من النظام . وآذنت عرى النسب بالانفصام . ووصل فى المحرم سنة ٤٧١ بشحنكية بغداد سعد الدولة كهرائين وضرب على بابه فى أوقات الصلاة الثلث الطبل . وكان قد منع من ذلك وقيل لم تجر به عادة من قبل . وأعقب ذلك عزل الوزير ابن جهير وذلك أن كهرائين أوصل عند وصوله كتاباً من السلطان الى الخليفة يتضمن عزل الوزير فقيل فى جوابه أنه ليس بوزير وانما الوزير ولده عميد الدولة وقد قصد نحوكم بالمعسكر . ووالده ينوب عنه الى أن يحضر . وكان عميد الدولة بعد وفاة زوجته خرج الى المعسكر وعرف أن كوهرائين إن صادفه فى الطريق صدفه وصرفه . فعرج بالجبال . وأتبع الترحال بالترحال . وجاء كهرائين فى النصف من صفر الى باب الفردوس وهو على حالة من السكر فغلق دونه الباب وربط هناك خيله . وأقام هناك يومه وليله . وقال « لا بد لى

من الوزير . ولا مهلة فى التأخير » فلما عرف فخر الدولة الحال قدم السؤال وطاب الاعتزال . فأذن له أن يعتزل . ويلزم المنزل . وخرج الى كهرائين توقيع فيه لما عرف محمد بن محمد بن جهير ما عليه جلال الدولة ونظام الملك من المطالبة بصرفه سأل الأذن فى ملازمة داره الى أن يكاتبا فى أمره ولم يزل عميد الدولة يستعطف نظام الملك حتى عطف . ويتألف قلبه حتى انقلب الى ما الف . والزمه تقلد منه . وزوج ابنته بابنه . وكتب الى كهرائين باعادته الى الخدمة . وزيادته فى الحرمة . وسأل الخليفة الاغضاء عن ذلته . ولما وصل الى بغداد عزله الخليفة عن خدمته . ونقله الى منزله عن منزلته . ورتب الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين نائبا فى الديوان وجلس بغير مخدة ثم توزر عميد الدولة ابن جهير للخليفة المقتدى فى سنة ٤٧٢ وأفيضت عليه خلع آذنت بتبجيله . وتولى أمين الدولة ابن الموصلايا قراءة توقيع خرج في حقه بتجميله .

قال الامام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهانى رحمه الله : ولما كان الكتاب الذي صنفه أنوشروان الوزير عربته وهذبته وقد انتهيت فى هذا الموضع الى مفتتحه وصلت هذه الجملة التى ذكرتها به وجعلتها طريقا الى دخول بابه لكنى عند انقضاء أيام كل سلطان أوردت حوادث تجددت فى عصره . وأخل أنوشروان بنشر حديثها وذكره . ومن هاهنا يقع بما بدأ به البداية . وتكمل بتعريبه والاعراب عنه العناية .

أيام السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه

ابن الب ارسلان يمين أمير المؤمنين

قال : عقدلواء سلطنته فى أيام أمير المؤمنين القائم بامر الله رضى الله عنه وعصر خلافته قد قارب انتهاءه . وشارف انقضاءه . ولهج عند وفاته بهذين البيتين .

سلا أمّ عمر وكيف بات أسيرها * تفك الأسارى حوله وهو موثق
فان كان مقتولا ففى القتل راحة * وان كان ممنوناً عليه فمطلق

وتولى بعده الخلافة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله أنار الله برهانه وبايعه هذا السلطان . قال : وكان ملكشاه ملكا سيرته العدل . وسريرته الانصاف والفضل . شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير . حقيقاً بالتاج والخاتم والسرير . أيامه فى أيام آل سلجق كالواسطة فى العقد قد تناسبت فى الحسن بدايته ونهايته . وتناسقت فى الاقبال فاتحته وخاتمته . ولم يتوجه الى أقليم الا فتحه . وقهر العدوّ وفدحه . ولما توجه الى الشام وانطاكية بلغ الى حدّ قسطنطينية وقرر الف دينار أحمر يحمل الى خزانته من تلك الولاية ووضع في النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبراً اسلاميا وعاد الى الريّ وقصد فتح سمرقند ولم تزد مدة هذه الاعمال على شهرين

ولما وصل سمرقند نزل عليها وحاصرها فظفر بخانها وهو فى موضع سلطانها وجرت له حروب عظيمة هزمه فيها وكسره . وظفر به وأسره . فحمل غاشية

السلطان على كتفه وسار فى ركابه من موضع سرير افراسياب الذى كان ملك ملوك الترك الى موضع سرير ملكه وحمله أسيراً الي العراق . تحت الوثاق ثم منّ عليه بالاطلاق . وأنعم عليه باعادته الى ملكه . واعادة نظمه الى سلكه . وتوجه السلطان فى السنة الأخرى الى أوزكند ووصل حمل انطاكية اليها وانقاد له ملك الترك ووصل به الى اصفهان ثم أكرمه وشرفه وأعاده الى مقره من بلاد الترك وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك ابى علىّ الحسن ابن على بن اسحاق رضىّ أمير المؤمنين الوارف الظل الوافر الفضل . وكانت وزارته للدولة حلية . وبهجته للمملكة زينة . كأنما خلقه الله للملك والجلالة مصوراً . وكأن الاقبال له معلما والظفر مسخراً . قد مشى فى ركابه سلطان العرب مسلم بن قريش وقبل حافر مركوبه وكانت ملوك الروم وغزنة وما وراء النهر فى ظل حمايته . وكنف رعايته . وكانت ملوك الأطراف يقبلون كتفه اجلالا وتشريفا ويتشرفون بلبس خلعه وكانوا انجاداً له على أعدائه وجرّ الجحافل الثقيلة . والعساكر الكثيفة . وبقى فى صدر الوزارة ثلثين سنة . قال كنت فى مبتدإ أمرى فى خدمة الأمير بجير أسفهسلار خراسان فأشخصنى اليه من موضع كنت متوليا له تحت التوكيل وأنا متوجه نحوه خائب الأمل منكسر القلب على فرس حرون هزيل يتعبنى سيره وأنا فى ضرّ شديد من ركوبه فبينا انا سائر اذ ظهر من صدر البرية تركمانى على فرس يجري جرى الماء رهوان فتمنيت ملما كنت فيه من ألم القلب ان أكون راكبا مثل ذلك الفرس فتقرب التركماني منى واختلط بالموكلين بى وكلمهم ثم التفت الى وقال هل لك ان تقايض فرسك بفرسى فحسبت انه يهزأ

بي وقلت له يجوز مما انا فيه من هذه المحنة ان لا تستهزئ بي فنزل في الحال عن فرسه واعطانيه وأخذ فرسي واليوم منذ ثلثين سنة اتمنى لقاء ذلك التركماني وأسأل عنه ولا أجده .

قال : وكانت علامة نظام الملك الحمد لله على نعمه . وكان مؤيداً موفقا من جملة البشر . مخصوصا من الله بالنصر والفتح والظفر . والدهماء ساكنة في أيامه . وأهل الدين والعلم والفضائل راتعون في انعامه

قال : وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء . وتوفر على تهذيب الابناء الآباء . ليحضروهم في مجلسه ويحظوا بتقريبه فانه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل . ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بني له مدرسة ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب . قال : وكأنما عناه أبو الضياء الحمصي بقوله

وما خلقت كفاك الا لاربع * ومافي عباد الله مثلك ثاني

لتجريد هندي واسداء نائل * وتقبيل أفواه وأخذ عنان

قال : وظهر من تدبيره في سياسة الممالك ما قاله سليمان بن عبد الملك عجبت لهؤلاء الاعاجم ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا ساعة . وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة . قال : وفي عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد . وفرعوا المناصب . وولوا المراتب . ولم يزل بابه مجمع الفضلاء . وملجأ العلماء . وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه . ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه واعلاه . ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه . ورتب له ما يكفيه من جدواه . حتى ينقطع الى افادة العلم ونشره . وتدريس الفضل وذكره .

وزبما سيره الى أقليم خال من العلم ليحلى به عاطله . ويحيى به حقه ويميت باطله ثم تولى الوزارة والملك قد اختل نظامه . والدين قد تبدلت أحكامه . فى أواخر دولة الديلم وأوائل دولة الترك وقد خربت الممالك بين اقبال هـذه وادبار تلك وقد اقفرت البلاد وأقوت . واستولت الايدى العادية عليها وتقوت . وقامت النوائح على النواحى . والنوادب على النوادى . فاعاد الملك الى النظام . والدين الى القوام . وعمر الولايات . ووالى العمارات . وكانت العادة جارية بجباية الاموال من البلاد . وصرفها الى الاجناد . ولم يكن لأحد من قبل اقطاع فرأى نظام الملك أن الأموال لاتحصل من البلاد لاختلالها . ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها . ففرقها على الاجناد اقطاعاً . وجعلها لهم حاصلا وارتفاعاً . فتوفرت دواعيهم على عماراتها . وعادت فى أقصر مدة الى أحسن حالة من حليتها . وكان للسلطان نسباء يدلون بنسبه . ويدلون بسببه . ويستطيلون بانهم ذووقرابته فقصر أيديهم . ومنع تعديهم . وساس جمهورهم بتدبيره ونظم أمورهم بسياسته . وربما قرر لواحد من الجند الف دينار فى السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان وصاحب القرار راض . وليقينه بحصول ماله غير متقاض . وتوقيعه مأمون التعويق . وتفويقه لسهم السداد مقرون بالتوفيق . فقسم الملك الذى حازه السيف بقلمه أحسن تقسيم . وقومه أحسن تقويم . وكان ينظر فى الاوقاف والمصالح ويرتب عليها الامناء ويشدد فى أمرهـا . ويخوف من وزرها . ويرغب فى أجرها . ويكلها الى الأمنة . ولا يدعها مأكلة للخونة . ووظف على ملوك الاطراف وعلى أقاليم الممالك والامصار حمولا لخزانة السلطان يحملونها . وخدماً عن عصمة ولايتهم يوصلونهـا . وقرر معهم الحضور الى

الخدمة ومولات الخدمات للحضرة . والوصول بالعساكر الجمة . حتى ملأ الخزائن بالذخائر . والملأ بالعساكر . ونشأ له أولاد كبروا فى دولته فاوطأ عقبهم . وأعلى رتبهم . ثم أنه لما وفر الاموال على الخزانة والعسكر . جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقاً لا تؤخر . ورسوماً لا تغير . وصير احسان السلطان بين أهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض . ويأمنون بها منى النوائب والعوارض . فلا جرم تذللت له المصاعب . وتيسرت له المطالب . ودانت له المشارق والمغارب .

ذكر الأكابر والكتاب فى زمانه

وهم الكمال والشرف وسيد الرؤساء وابن بهمنيار وتاج الملك

قال : كان نظام الملك مؤيداً بقرينين . مؤيدين لدولته أمينين . وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشا والطغراء . وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء . وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والجاه والمال والدهاء . ومعدن الفضل والعطاء . وكان لهذين الكبيرين ناشئان والكمال ولده سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد وكان مقبلا مقبولا قد اختصه السلطان بخدمته . واختاره لندمته . واستأمنه على سره وبلغت مرتبته من اصطفاء السلطان الى غاية لم يبلغها أنيس . ولم يصل الى رتبتها جليس . وقد كتب اليه السلطان يستبطئه بخط يده بيتاً

بالفارسية معناه انك لا تتأثر بالغيبة عني . فانك تجد من تأنس به غيري . وأنا أتأثر بغيبتك فاني لا أجد الانس بغيرك .

قال : نصارختنا لنظام الملك وتزوج بابنته . وزاد ذلك في منزلته . وضرب له سرادق وله الكوس والعلم . والخيل والحشم . وأما النائب عن شرف الملك فقد كان الاستاذ أبا غالب البراوستاني من أهل قم والنجيب الجرباذقاني ثم انصرف أبو غالب وتولى مكانه في النيابة الأعز الكامل أبو الفضل اسعد بن محمد بن موسى البراوستاني فلم يزل نائبا الى ان صار استاذاً ولقب بمجمد الملك بعد شرف الملك ولم يكن لأحد من السلاطين مستوف كأبي الفضل في الضبط والتحفظ . والذكر والتيقظ . وحفظ القوانين . وتدبير الدواوين . وكان أيضا ملجأ لفضلاء الزمان . وموسعا عليهم بالاحسان . وكان على باب السلطان وفي ديوانه كتاب فضلاء . وكفاة كبراء . ونواب علماء اذكياء . وكان لمتولي فارس وزير يقال له ابن بهمنيار ويلقب بعميد الدولة وهو رجل بصير بالاعمال ذو همة عالية . فاتصل بخدمة السلطان وعلت مكانته . وسمت منزلته . وصار بينه وبين سيد الرؤساء اتحاد . وصداقة ووداد . وجمعت بينهما عاهة عداوة الوزير نظام الملك ومخالفته وتصادقا على عداوته . وكيف تكون عاقبة حال المدبر . اذا عادى المقبل . فلم يزالا حتي نكبا وأهينا وطردا وهجرا بعد ذلك القرب . وأبغضا بعد ذلك الحب . وسجنا واعتقلا . وحبسا وسملا . وسقطت منزلة كمال الدولة أيضا بسقوط منزلة ولده وأدركته حرفته . ونكبته نكبته . وخدم من ماله الخزانة السلطانية بثلثمائة الف دينار وزادت جلالة نظام الملك بعداوة المذكورين وتولى مؤيد الملك بن نظام الملك مكان كمال الدولة . من ديوان الانشاء والطغراء

واقام مدة واستناب ابا المختار الزوزنى ثم استعفى فتولى ابو المختار بحكم الاصالة ونعت بكمال الملك . وكان من نواب كمال الدولة ابى الرضى وأتباعه فبلغ الى منصبه ثم انتقل الى جوار ربه . وكان الرئيس تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز من أولاد الوزير بفارس وقد خدم السر هنك ساوتكين مدة وهذا الأمير كبير الدولة والمتحكم فيها وكان قد اثنى على تاج الملك عند السلطان وشكره وذكر انه يصلح لخدمته وقال انه معتمده على خزانته وأمواله وكان رجلا سرياً بهياً فصيحَ اللهجة . حسن البهجة .

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها   علا البر كان البر أندى من البحر

فقبله السلطان وأقبل عليه وولاه وزارة أولاده الملوك وسلم اليه خزانته وولاه النظر فى أمور دوره وحرمه وعوّل عليه فى بعض الولايات وفوّض اليه أمر بعض العساكر وجعل له مع ذلك كله ديوان الطغراء والانشاء

ألبسه الله ثياب العلى   فلم تطل عنه ولم تقصر

فاستناب عنه الكيا مجير الدولة أبا الفتح علىّ بن الحسين الأردستانىّ وصار كاتب الرسائل وكان أوحد عصره . ونسيج وحده . وكان رجلا سكّيتاً حسن السمت كثير الأدوات . موصوفاً بالثبات فغيّر تاج الملك ببهجته المقبولة واصغاء السلطان اليه أوضاع المملكة جميعها وبدّد نظامها النظامىّ . وبدّد احسانها الحسنى . وأذهب حلاوة قبول الوزير من قلب السلطان وظهرت عليه آثار الملال . ونطقت أساريره بأسراره كالماء يبوح بأسراره صفاؤه . ويلوح فى قراره حصباؤه . ومع ذلك كلما زاد تقريب السلطان لتاج الملك ازداد تقربه الى الوزير . بالتوقير والتوفير . فقد كانت هذّبته نكبة

عميد الدولة وسيد الرؤساء . فلم يغتر من السلطان بذلك الادناء . لكنه تحيل عليه . ودبت فى الباطن عقاربه اليه . وكان يكرم مجد الملك المستوفى ويثنى عليه عند السلطان . وكان سديد الملك أبو المعالى المفضل بن عبد الرزاق بن عمر عارض الجند فقربه أيضاً تاج الملك وجعله من حزبه واستولى بهما على حيازة الاموال والاعمال واتفقوا على حل نظام الملك ومخالفته وغيروا رأى السلطان فى وزارته وراموا ازالة ذلك الطود العظيم . ونثر ذلك السلك النظيم . وهو شيخ قد طعن فى سنه . وبلغ بقوته أمد وهنه . وأيس من نجابة أولاده وطال عمره حتى سئمه . وأنس بالملمات فلن تؤلمه . فلم يكترث بهم . ولم يلتفت اليهم ولا تأثر بكيدهم . ولم يقم وزناً لعمرهم وزيدهم . فقتل يوماً غيلة بسكين ملحد . ودفن بدفنه الجود والفضل والدين فى ملحد . وذلك فى سنة ٤٨٥

وتوفى السلطان بعد قتل الوزير بثلثة وثلاثين يوماً ولم يعش تاج الملك بعد ذلك أكثر من ثلثة أشهر على الخوف والخطر ثم قتل قتلا ذريعاً . وبضع بالسيوف تبضيعا . وسبب ذلك ان المماليك النظامية اتهموه بقتله فاجمعوا على عداوته وفتكوا به فعلم الناس ان سلامة تلك الدولة وأربابها وسلامة سلطانها كانت بسلامة ذلك الشيخ منوطة . وبحياطته محوطة

قال : ولما مل السلطان طول مدته . واستطالة مكنته . أنفذ اليه يوما تاج الملك برسالة ووكل على لفظه بعين من أكابر خواصه حتى يبالغ فى ابلاغها . ولا يراقبه فى ادائها . وكان مضمون الرسالة انك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك واصهارك والمماليك فكأنك لى فى الملك شريك . أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فأجاب جواب مثبت رابط القلب حاضر اللب غير مرتاع ولا

مرتاب وقال « قولوا للسلطان كأنك اليوم عرفت انى فى الملك مساهمك . وفى الدولة مقاسمك . وان دواتى مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع . ومتى سلبتها سلب » فلما سمع جواب الرسالة ازداد فى غيظه عليه واستشاطته وكأن ماجرى على نظام الملك من الاغتيال تجويزاً من السلطان مضمراً . وأمرا مبيتاً مدبرا .

قال : ونظم أبو المعالى النحاس أبياتا بالفارسية يخاطب فيها السلطان فقال ما معناه كأن ملكك من أبي عليّ وأبي سعد وأبي الرضى بالعلوّ والسعد مرضياً . فلما آل الى أبي الغنائم وأبي الفضل وأبي المعالي عاد من كسوة جمالها عريًا . عنىَ بالاوّلين نظام الملك الوزير وشرف الملك المستوفى وكمال الدولة الشرف المنشئ وعنىَ بالآخرين تاج الملك الوزير ومجد الملك وسديد الملك المنشئ مع انهم كانوا أفضل أهل زمانهم (وكان تاج الملك يظهر انه صائم الدهر قال : ورأيت صلة لتاج الملك خمسة عشر ألف دينار فى أكياسها .)

قال : ومع خلالهم الرياضية . والخصال الزكية . لم يخلصوا من أبناء الزمان ونشبت فيهم مخالب الهجاء . وعثرت بهم ألسنة الشعراء . وقد جمعهم أبو يعلى ابن الهبارية فى قصيدته التى يقول فيها

لو أن لى نفساً هربت لما ... ألقى ولكن ليس لى نفس
مالي أقيم لدى زعانفة ... شم القرون أنوفهم فطس
لى مأتم من سوء فعلهم ... ولهم بحسن مدائحى عرس
ولقد غرست المدح عندهم ... طمعاً فحنظل ذلك الغرس
الشيخ عينهم وسيدهم ... خرف لعمرك بارد جبس
كالجاثليق على عصيته ... يعدو ودار خلفه القس

والناصح الغندور حتى الى　　جنب الوزير كأنه جعس
وأبو الفتوح انت تعرفه　　وسهيل مثل الكلب يندس
وخليفة الرى الخبيث له　　بالتيس فرط القرب والانس
وأبو الغنائم فى تبظرمه　　يعلو وليس ليومه أمس
والزورنىّ فبارد سمج　　كالموت فيه البرد واليبس
لو أن نور الشمس فى يده　　من بخله لم تطلع الشمس
متخفف أي اتى فهم دمث　　وأخفف من حركاته قدس
. . . .　　. . . . .
. . . .　　. . . . .
قد صار مال الارض فى يده　　عفواً وقيمة رأسه فلس
هذى امور الملك أجمعها　　فسعودها من أجلهم نحس
ولقد هممت بأن افارقهم　　وتجد بي عيرانة عنس
لكن ثنانى عن فراقهم　　علمى بأن الناس قد خسوا
من ذا أروم وأجتديه لقد　　عم البلاء وأشكل اللبس
المقتدى المسكين ليس له　　عقل ولا رأى ولا جس
. . . .　　. . . . .
هذا وكهرائين شحنته　　كالكلب خب بارد نمس
. . . .　　. . . . .
وأبو شجاع فى وزراته　　كالحرس لا بل دونه الحرس
أبنى جهير أرتجى وهم　　بالامس اقرب سوقة غبس
أعلى أمورهم اذا نفق الـ　　ـطرّيخ عنهم أو غلا الدبس

والله لو ملكوا السماء لما عرفوا ولا اهتزوا ولا انجسوا

أم باب ابراهيم اقصده هيهات خاب الظن والحدس

قد كان محبوسا وكان له جود فزال الجود والحبس

. . . .

. . . .

ذكر ظهور الاسماعيلية

قال : فنابت النوائب . وظهرت العجائب . وفارق الجمهور من بيننا . جماعة نشأوا على طباعنا . وكالوا بصاعنا . وكانوا معنا في المكتب . وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والادب . وكان منهم رجل من أهل الرى وساح فى العالم وكانت صناعته الكتابة تخفى أمره حتى ظهر وقام فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة . وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعه . وخفيت عن الناس أحوالهم ودامت حتى استتبت على استتار . بسبب ان لم يكن للدولة اصحاب أخبار . وكان الرسم فى ايام الديلم ومن قبلهم من الملوك انهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد فلم يخف عندهم اخبار الاقاصى والاداني . وحال الطائع والعاصى . حتى ولا فى الدولة السلجقية الب ارسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك فى هذا الامر فأجابه انه لا حاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلوا كل بلد فيها من أصدقاء لنا

وأعداء . فاذا نقل الينا صاحب الخبر وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدوّ والعدوّ فى صورة الصديق . فأسقط السلطان هذه الرسم لاجل ماوقع له من الوهم . فلم يشعر الا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم . واستوثقت معاقدهم . وأخافوا السبل . وأجالوا على الاكابر الاجل . وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتله غيلة . ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة . فصار الناس فيهم فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة . ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة . فمن عاداهم خاف من فتكهم . ومن سالمهم نسب الى شركهم فى شركهم . وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين . فأول مابدأوا بقتل نظام الملك ثم اتسع الخرق . وتفاقم الفتق . ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع أصناف الناس التهم . ودب الي البرىّ السقم . وتوفرت على التوقى الهمم . وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين الى الالحاد . وفساد الاعتقاد . كما جرى على ملك كرمان فان الرعية اتهموه بالميل الى القوم فبطشوا به وقتلوه وأقاموا ملكا آخر مقامه وسيأتى ذكر بعض الاحوال فى أيام السلاطين الذين ولوا . وما كان سلطان يلى يثق بخواصه . وسعى ذوو الاغراض فى ذوى اختصاصه . ولما عرفوا جد السلطان فى ابادة القوم سعى بعض الناس ببعض . وأحب وسمه بالالحاد لسابق عداوة وبغض . ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف . ولم يجد محيداً عن التزام الحيف . وبقى فى هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير . وجم غفير . ولم يبق للاكابر فى دفع ماعرا رأى ولا تدبير

قال : وتوفى أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله بعد سنة وكان فى سنة

واحدة موت السلطان والوزير وجميع أركان الدولة . كل شئ هالك الا وجهه .*

قال الامام السعد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب رحمه الله وقدس روحه

ذكر نبذ من حوادث وأخبار في أيام ملكشاه

أغفلها الوزير أنوشروان

قال رحمه الله: ولد ملكشاه فى التاسع عشر من جمادى الاولى سنة ٤٤٧ وتوفى فى السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥ وعمره ٣٨ سنة وأشهر وكان يعرف بالسلطان العادل ومن جملة عدله انه رأى شا كيا باكيا فسأله عن موجب اشتكائه . وسبب بكائه . فقال اشتريت بطيطيخا بدريهمات لاعود بربحها على عيالى . وأعيد منها رأس مالى . فأخذها منى من يده قوىّ اضعف عن الاخذ على يده . وتركنى التركى وهو يضحك من بليتى وأنا أبكى من نكده . فقال له السلطان طب نفساً . واستبدل من الوحشة أنساً . فهل تعرفه فانكر معرفته وكان البطيخ فى أول باكورته ولا يكاد يصاب منه شئ فى البلد فقال السلطان لبعض خواصه قد اشتهيت بطيخاً فاجتهد فى تحصيله ولو واحدة فما زال يطلبه حتى قال له بعض الامراء عندى وقد أحضره عبدى فلما علم ملكشاه احضر المتظلم وقال خذ بيد هذا الأمير فانه

مملوكي وقد وهبته لك ففدى نفسه عنه بثلثمائة دينار . وأثرى صاحب البطيخ بعد اقتار .

وكان محباً للصيد وقيل انه كان حصر عدد كل ما اصطاده بيده فبلغت عدته عشرة آلاف فتصدّق بعشرة آلاف دينار . وكان بالعمارات ذا اهتمام . وبالغرامات فيها ذا غرام . فحفر أنهاراً . وأوثق على المدن أسوارا . وأنشأ رباطات فى المفاوز . وقناطر للجائز . ومن جملة جميل صنعه فى العمارة عمارة مصانع طريق مكة ومنازلها . وتسهيل ما توعر من مسالك قوافلها . وخرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج فجاوز العُذَيْبَ وبلغ السُّبَيعة بقرب الواقصة وبنى هنالك منارة ترك فى أثنائها قرون الظِّبيّ وحوافر الحُمُرْ الوحشية التى اصطادها فى طريقه والمنارة باقية الى الآن تعرف بمنارة القرون وكان قد خرج الى الصيد وعاد فى ثالث شوال فابتدأت به حمى محرقة من امعانه فى أكل لحم الصيد فتوفى فى سادس عشر الشهر . وعاد الملك بظهور وفاته منقصم الظهر . وكانت قد جرت بينه وبين الخليفة فى تلك الايام وحشة أساءت الظنون . ونسبت الى عوارضها المنون . ومن أسباب الوحشة اقتراحه على الامام المقتدي انتقاله عن بغداد الى حيث يختاره من دمشق أوالحجاز . وعدم من جانبه الامام ما يجب من الاكرام والاعزاز . فطلب منه المهلة . ثم كفى أمره ولم يخف النقلة .

قال : وقدكان قرر فتح أقاليم الدنيا فجعل الامير بُرْسُقَ للروم فضايقها حتى قرر على قسطنطينية له فى كل سنة حمل ثلثمائة الف دينار للسلطان . وثلاثين الف دينار له جزية يؤديها الرومي بالصغار والهوان . وسيّر أخاه تاج الدولة تُتُش الى الشام وقرر معه فتح ديار مصر وبلاد المغرب وأمر

مملوكيه بزان صاحب الرها وأق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض . ويساعداه على اداء هذا المفترض . وأمر سعدالدولة كهرائين بفتح بلاد اليمن . واستخلاص زبيد وعدن . فسير اليها جيشاً قدّم عليه ترشك فمضى اليها واستولى واستعلى ومات بها وعمره ٧٠ سنة وهو مجدور وتولى مكانه يرنقش صاحب قتلغ أمير الحاج . وجرى فى الاستيلاء على ذلك المنهاج . وأوغل ملكشاه فى بلاد الترك حتى أطاعه صاحب طراز وكانت حلة الدولة بجلالة جلالها ذات طراز

وفى سنة ٤٧٣ عرض العسكر وأسقط منه سبعة آلاف رجل من الأرمن المتشبهة بالترك فمضوا الى أخيه تكش بقلعة وخ فقوى بهم جانبه وشق عصاه بالعصيان والشقاق وما زال السلطان ملكشاه يقصده فتارة يصالحه وتارة يكافحه حتى ظفر به فى سنة ٤٧٧ وقدكان عاهده أن لا يؤذيه ففوّض السلطان أمره الى ولده أحمد فأخذه وسمله . وفى سنة ٤٧١ دعا الإقسيس تاج الدولة تتش بن الب ارسلان الى دمشق واثقاً به خارجا عن خلافه وخرج اليه من دمشق مسلماً . ولحكمه مستسلما . فضرب رقبته صبرا . وغادره عاريا بالعراء غدرا . ودخل الى البلد مستبداً . وأصبح الملك به مستجدا . فى هذه السنة استولى شرف الدولة مسلم بن قريش على حلب . وفى المحرم من سنة ٤٧٣ عاد السلطان ملكشاه من كرمان الى اصفهان وكان قد ورد اليها عام أوّل وخرج اليه ابن عمة سلطان شاه بن قاورد وعاهده وعاقده . وأخذ على العهد يده . وفى صفر تسلم مؤيد الملك من المهرياط تكريت وقلعتها وأحكمها ووفر عدتها . وفى ليلة الاحد عاشر شوال توفى دبيس بن علىّ بن مزيد وكانت امارته سبعاً وستين سنة وقام بالامر بعد بهاء الدولة منصور

ومضى الى السلطان وعاد فى ثاني عشر صفر سنة ٤٧٤ بمكنة قوية وقوة متمكنة . وقد تقررت عليه أربعون الف دينار فى كل سنة

وفي شوال سنة ٤٧٤ خلع المقتدي على الوزير فخر الدولة ابن جهير وتوجه ليخطب للخليفة من السلطان ابنته وسار بعده أبو شجاع محمد بن الحسين الى المعسكر فان نظام الملك كان يكاتب في ابعاده . وكان الخليفة راغباً فيه لسداده . فكتب بخطه الى نظام الملك يأمره بالعود الى المعهود فى حق أبي شجاع وأنفذ معه مختصاً الخادم فعاد الى بغداد فى رجب سنة ٤٧٥ فى حرمة وافرة وحشمة ظاهرة. وأما الوزير فخر الدولة ابن جهير فانه لما وصل الى المعسكر بجّل وعظم ومضى نظام الملك معه الى تركان خاتون وخاطباها فى معنى الوصلة بابنتها فقالت ان ملك غزنة وملوك الخانية قد أرسلوا فى خطبتها وبذل كلّ منهم عن ولده لها أربعمائة الف دينار . فان بذلها الخليفة فانى أختار شرفه وهو أشرف مختار . فعرّفتها ارسلان خاتون زوجة القائم ما يصير اليها من الجلال والجمال . وبين لها الفقيه المشطّب جلية الحق وحقيقة الحال . وقال هؤلاء عبيد الخليفة ومثله لا يقابل بطلب المال . فحينئذ أجابت وسددت الى الغرض وأصابت . وأخذ فخر الدولة يد السلطان على العقد وعاد في صفر سنة ٤٧٥ الى بغداد . وفى جمادي الاولى ورد مؤيد الملك من اصفهان الي بغداد ونزل في داره وضربت على بابه الطبول في أوقات الصلوات الثلاث . وعد ذلك من منكرات الاحداث . ووصل بعطاء رضيه وقطع به ضرب الطبل . وآذنت الحباء بوصل الحبل . وفى شعبان من السنة جلس مؤيد الملك للعزاء بأخيه جمال الملك وركب اليه فخر الدولة وعميد الدولة وأقامه فخر الدولة من العزاء في اليوم الثالث ومعه الموكب

ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك

قال : كان كبير أولاد نظام الملك وفيه دهاء وجرأة وعزة ونخوة وخاطبه أبوه في أيام الب ارسلان ان يوزر لولده ملكشاه فأظهر امتناع أبي . وقال « مثلي لايكون وزيراً لصبي » ثم أقام ببلخ متولياً . وعلى تلك الممالك مستولياً . فسمع ان جعفرك مسخرة السلطان . تكلم على والده نظام الملك باصفهان . وقرر الوزارة لابن بهمنيار فهاج وتغيظ وثار وأغذ السير من بلخ حتى وصل الى الحضرة وأخذ جعفرك من بين يدى سلطانه وتقدم بشق قفاه وإخراج لسانه . فقضى فى مكانه . ثم أوقع التدبير فى حق بن بهمنيار حتى أخذه وسلمه . ثم توجه مع والده فى خدمة السلطان الى خراسان وأقاموا بنيسابور . ودبروا الأمور . فلما أراد السلطان ان يرتحل استدعى بعميد خراسان أبي علي وقال : أنا مفض اليك بسر خفي فقال أنا من كل ما تأمرني به على أقوم سنن فقال : رأسك أحب اليك أم رأس أبي منصور ابن حسن فقال : بل رأسي أحب . وأنا لما تستطبني من دائه أطب . فقال : له ان لم تقتله قتلتك . وصرفتك عن ولاية الحياة وعزلتك . فخرج من عنده ولقى خادماً بخدمة جمال الملك مختصاً . وعرف فى عقله نقصاً . فقال : ان السلطان قد عزم على أخذ صاحبكم وقتله غداً . والصواب ان تصونوا بابادته حرمتكم أبداً . فظن السخيف العقل . ان ذلك عن أصل وجهل النظر ونظر عن جهل . وخاف على تشتت آل النظام بهذا الولد فعمد الى كوز فقاع فسمه ولما انتبه صاحبه بالليل وطلب الفقاع أتاه بالكوز المسموم فلما شربه

أحسّ بالموت فاستدعي أخته ليوصي اليها فقضى نحبه قبل ان تقع عليها عينه . وكان السلطان قد رحل ونظام الملك قد سبقه فسار مغذًّا أربع منازل حتى لحقه ودخل الى الوزير ولم يعلم بوفاة ولده فعزّاه وقال : أنا ولدك والخلف عمن ذهب . وأنت أولى من صبر واحتسب

قال: وفى سنة ٤٧٥ سار الشيخ الامام أبو اسحق رسولاً من المقتدى الى السلطان بعد ان أوصله الخليفة اليه وفاوضه شفاهاً وشكا من العميد أبي الفتح بن أبي الليث سفاها . فوصل الى خراسان وناظر مع الامام أبي المعالى الجوينيّ وكان فى صحبته من اكابر تلامذته الشاشيّ وابن قنان والطبريّ وكان معه جمال الدولة عفيف الخادم وعاد الشيخ أبو اسحق الى بغداد والقلوب الى حضرته متعطشة . والعيون من غيبته مستوحشة . ثم توفى قدس الله روحه فى ليلة الأحد الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٧٦ ورتب مؤيد الملك أبا سعد المتولى مدرساً فلم يرض نظام الملك به وجعل التدريس للشيخ الامام أبي نصر الصباغ صاحب الشامل . فاتفق خروج مؤيد الملك وخرج معه المتولي فعاد متولياً . وفى رتب السموّ متعلياً . وقد لقب شرف الامة وأبو نصر الصباغ مدرس . وتوفى يوم الخميس النصف من شعبان وبقى المتولى مدرساً الى أن توفى فى شوال سنة ٤٧٨ . وعزل عميد الدولة فى صفر سنة ٤٧٦ بمكتوب خرج اليه من الخليفة واجتمع يارق الحاجب والشحنة والعميد وأصحاب مؤيد الملك على باب عمورية حتى خرج بنو جهير بأهلهم وحواشيهم . وكلهم وناشيهم . وساروا الى المعسكر . وحصلوا على المنصب الأظهر . فان السلطان عقد على فخر الدولة بن جهير ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوس والعلم وآذن له في الخطبة لنفسه .

وفى السكة باسمه

ثم أنفذ السلطان فى سنة ٤٧٧ أُرتق بن أكسب صاحب حلوان مع التركمان الى فخر الدولة مددا . وتوفى وتقوى بهم عُددا وعَددا . وكان بن مروان صاحب ديار بكر قد استنجد شرف الدولة مسلم بن قريش وأعطاه يده على ان يعطيه آمد اذا أمده وأيده . وقصد بن جهير الصلح وقال : « أكره أن يحل بالعرب مكروه أنا سببه » وعلم التركمان ما راه . فخالفوا هواه . وركبوا ليلاً وأحاطوا بالعرب فهربوا ورهبوا وطلبوا . في كل واد وناد وسلبوا . ولم يحضر تلك الوقعة بن جهير ولا أُرتق وانما أصطلى نارها الامير جَبقُ وحقن دماء العرب واستولى على جميع جمالهم . وعامت أيدى العامة فى أموالهم . وأُلجئ شرف الدولة مسلم الى فصيل آمد فعزت الحيلة وأعوزت الوسيلة . ووصى فخر الدولة بن جهير الامير أُرتق بأن يأخذ عليه الطريق وقال اذا حصل شرف الدولة في اليدفتحنا للسلطان البلاد . وحوينا الطراف والتلاد . فبذل شرف الدولة للامير أُرتق مالا ليفرج عنه فمال الى المال وأظهر الغضب عن تحكم فخر الدولة ونفس عن خناق مسلم فسار الى الرقة وذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأول وقصد فخر الدولة ميافارقين ومعه الامراء الاكابر سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة وأياز وترشك وخمارتاش في عسكر كهرائين ولما قصد خلاط رجع هؤلاء عنه الى العراق

وفى سنة ٤٧٩ خرجت ديار بكر عن نظره وسلمها السلطان الى العميد أبى علىّ البلخىّ . فأما شرف الدولة فانه لما وصل الى الرقة . أحمد عاقبة المشقة . وعدّ مابذله لارتق من الحقوق المستحقة . فأنجز الوعد وأرسل المال . وصدق المقال . ولم يشك السلطان لما نمي اليه الخبر ان شرف الدولة

قد قبض . وان مبرم أمره قد نقض . فخلع على عميد الدولة بن جهير وأنفذه الى ولايتـه . وكاتب التركمان بطاعته . وأنفذ معه الامير آقسنقر قبل أن يصير صاحب حلب وسار فى صحبته . واتصل به الامير ارتق وصار فى جملته. ووصل الى الموصل فأطاعه أهلها . وتسهل له وعرها وسهلها . وتوجه السلطان الى بلاد مسلم بن قريش . فى أقوى جأش وأوفى جيش . فلما علم سلامته ونجاته . وانه بالمكر قد فاته . أرسل اليه مؤيد الملك بن نظام الملك ووثقه بالايمان وآمنه بالمواثيق وقدم به الى السلطان وهو بالبوازيج . فأحلى له جنا الجناب المريع وأسامه فى مراد المراد البهيج . وكانت أحواله قد ذهبت . وأمواله قد نهبت . واستقرض ما خدم به وقدم خيله وفيها بشار وكان فرساً سابقاً مذكوراً وهو الذى نجا به يوم آمد وسبق ووثب الخندق وراهن السلطان شرف الدولة على مسابقته . فأجراه مع الخيل فى حلبته . فجاء سابقاً ولما طلع صبح غرته من ظلام قتامه قام السلطان للاعجاب به وأظهر انه لاكرامه . وفى صفر سنة ٤٧٨ تجرع شرف الدولة كأس الحمام . فانه فتك به خادم له فى الحمام

قال : وكان المظفر أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء قد رتب فى ديوان الخليفة بعد خروج بنى جهير واستقل بكل ترتيب وتدبير الى أن وزر أبو شجاع محمد بن الحسين فى سنة ٤٧٩ لامير المؤمنين وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه ظهير الدين مؤيد الدولة سيد الوزراء صفى أمير المؤمنين . وخرج فى خفه توقيع من انشاء أبي سعد بن الموصلايا ووصل عماد الدولة سرهنك ساوتكين الى واسط ومنها الى النيل فى شهر رمضان وزار المشهدين الشريفين وأطلق بهما للاشراف مالا جزيلا وأسقط خفارة الحاج وحفر العلقمى

وكان خراباً من دهر . وقدم بغداد وتلقاه الوزير أبو شجاع ووصل الى حضرة الخليفة ليلة الاربعاء ثامن ذى الحجة وخلع عليه . وأحسن اليه . وكان قد علق به السل فسار لوقته الى اصفهان وتوفى بها فى سنة ٤٧٧ . وكان قد توجه جمال الدولة عفيف الى اصفهان فى اتمام العقد للخليفة على بنت السلطان فعاد الى بغداد فخلع الخليفة على بن أبى شجاع وسنه يومئذ اثنتا عشرة سنة ولقبه ربيب الدولة وأخرجه لاستقبال عفيف واستمر أبو شجاع فى وزارته جريئاً فى الشجاعة شجاعاً فى الجرءة . أهلا لمحمود الذمام ذاماً لاهل الذمة . وألزم اكابرهم بلبس الغيار . وأداء الجزية على وجه الصغار . حتى اسلم الرئيس أبو غالب بن الاصباغىّ غيرة من الغيار . ونفضاً لما كان على صفحات أحواله الحالية بموضع النصرانية من الغبار . وأسلم الرئيسان أبو سعد بن العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا صاحب ديوان الانشاء وابن أخيه أبو نصر بن صاحب الخبر وكان فى رتبته فى السماء وذلك فى رابع عشر صفر سنة ٤٨٤ وثقلت وطأة الوزير على الصغير والكبير . وترك المحاباة فى الدين . ووافق ذلك وصول كتاب من السلطان فى عزله . ووقوع ضجر الخليفة من فعله فخرج التوقيع بصرفه فى تاسع عشر صفر فانصرف وهو ينشد

تولاها وليس له عدوٌّ وفارقها وليس له صديق

قال : وكانت أيامه أنضر الايام . وأعوامه أحسن الاعوام . فخرج ثانى يوم عزله يوم الجمعة ماشياً الى الجامع من داره . فى زىّ شاهد باستبصاره واعتباره . وانثال الناس عليه يصافحونه فانكر ذلك عليه وأُلزم داره . وضيّق الخليفة عليه أعذاره . ثم سافر فى الموسم الى الحج وتوفى بالمدينة على ساكنها السلام فى النصف من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ فدفن بالبقيع

عند قبر ابراهيم عليه السلام وكان مولده بكنكوز سنة ٤٣٧

ولما عزل أبو شجاع تولى أبو سعد بن الموصلايا النظر فى الديوان . وكان كبير الشأن كثير الاحسان . تولى ديوان الانشاء بعد سنة ٤٣٠ وعاش الى أن ناب عن الوزارة المقتدية والمستظهرية ثم أعيدت الوزارة الى عميد الدولة بن جهير فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٨٤ وكان السلطان ببغداد فركب نظام الملك وتاج الملك وأكابر الامراء الى دار عميد الدولة لاجلاله . والتنويه بمنصب اقباله . وفى سنة ٤٨٢ درّس أبو بكر الشاشىّ فى التاجيّة ثالث عشر المحرم . وفى جمادى الآخرة توفى أبو القاسم الشريف الدبوسىّ مدرّس النظاميّة . وفى محرم سنة ٤٨٣ قدم الشيخ أبو عبد الله الطبرىّ بمنشور نظام الملك متولياً للتدريس بالنظاميّة . ثم وصل بعده القاضى أبو محمد عبد الوهاب الشيرازى للتدريس بالنظامية أيضاً وتقرر ان يدرس هو يوماً والطبرىّ يوماً . وفى سنة ٤٨٤ قدم الشيخ أبو حامد الغزالىّ الى بغداد للتدريس فى المدرسة النظامية وكان فى العلم بحراً زاخراً . وبدراً زاهراً . وأشرقت غرائبه فى المشرقين والمغربين . وملأت حقائب الملوين . وثقلت غوارب الثقلين .

ذكر دخول السلطان ملكشاه الى بغداد

فأما فى النوبة الاولى فانه دخل الى بغداد فى رابع ذى الحجة سنة ٤٧٩ والوزير أبو شجاع خرج لاستقباله . وتوفية حق اعظامه واجلاله . وركب

فى اليوم الثالث الى الحلبة ولعب بالأكرة وأنفذ اليه الخليفة أفراساً وألطافاً وتصافيا وتهاديا ومضى نظام الملك الى المدرسة والى دار الكتب بها وقلبها وتصفحها . ورمّ أحوالها وأصلحها . وعاد الى دار ولده مؤيد الملك فأقام بها ليلتين . وفى سابع عشر المحرّم سنة ٤٨٠ استدعى الخليفة السلطان الى حضرته على لسان ظفر الخادم فبشر وجهه وسفر ونزل فى الطيارة فلما وصل الي باب الغربة قُدِّمَ اليه فرس من مراكب الخليفة . حتى انتهى الى السدَّة الشريفه . وأمره الخليفة بالجلوس فامتنع . وتواضع حتى ارتفع . ثم أقسم عليه حتى جلس . وزاد فى ايناسه فأنس . ولم يزل نظام الملك يأتى بأمير أمير الي تجاه السدَّة ويقول للامير هذا أمير المؤمنين. ليعفرّ بتقبيل الارض الجبين . ويقول للخليفة هذا فلان وعسكره كذا وولايته كذا وكانوا فوق الاربعين وكان فيهم آيتكين خال السلطان . فانه استقبل القبلة وصلى ركعتين . ومسح وجهه للتبرك بأركان الدار من الجانبين . وعاد السلطان وعليه الخلع السبع والطوق والسوار . وقد ظهرت عليه من آثار الجلالة الانوار . فمثل بين يدى السدة الشريفة وقبّل الارض مرات وأمر الخليفة مختصاً خادمه فقلده بسيفين وقال الوزير أبو شجاع « ياجلال الدين سيدنا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله لعز الخلافه . واجتباه لشرف الامامة . واسترعاه للأمة . واستخلفه للدين والملة . قد أوقع الوديعة عندك موقعها . واصطفى الصنيعة عندك موضعها . وقلدك سيفين لتكون قوياً على أعداء الله تجوس بلادهم وتذلّ رقابهم . ولا تألو فى مصلحة الرعية مقاماً . ولا تدخر عنها اهتماماً . فبطاعته تقبل عليك الخيرات من جوانبها وتدرّ البركات بسحائبها » وسأل السلطان فى تقبيل يد الخليفة فلم يجب الخليفة الى تقبيلها . فسأل في تقبيل خاتمه لترفيهها وتبجيلها

قال: وفى النصف من صفر خرج من بغداد الى خراسان . وأما النوبة الثانية من دخوله الى بغداد فانه دخل اليها فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٤ ومعه نظام الملك وتاج الملك وأكابر مملكته وأرباب دولته وبرز أمين الدولة بن الموصلايا لاستقباله . وخرج خروج الوزير فى جميع أحواله . وخرج السلطان منها ومضى الى خوزستان فى صفر سنة ٤٨٥ بعد ان سير قسيم الدولة آق سنقر الى حلب والامير بوزان الى الرُّها وحرّان. وأما النوبة الثالثة فانه دخلها فى الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥ بعد قتله نظام الملك ومعه تاج الملك وكانت وفاته بها فى شوّال

ذكر حوادث

قال : فى ليلة السبت السادس والعشرين من شهر رجب سنة ٤٧٨ توفى قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن علىّ الدامغانىّ ومولده سنة ٣٩٨ ودخل بغداد سنة ٤١٩ . وولى القاضى أبو بكر المظفر بن بكران الحموىّ الشامىّ قضاء بغداد . وتوفى فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير بالموصل فى سنة ٤٨٣ ومولده بها سنة ٣٩٨

قال الامام عماد الدين رحمه الله : عاد الحديث الى تعريب كتاب أنوشروان

ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر بركيارق

« ابن ملكشاه برهان أمير المؤمنين »

قال: كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود وكان محمود طفلاً فبايعوه على السلطنة لان أمه تركان خاتون كانت مستولية فى أيام ملكشاه فلما درج بقي بحكمها ولأن الامراء والوزراء كانوا من صنائعها فاختاروا ولدها ولان الخاتون المذكورة كانت من أولاد الملوك ففضلوا ابنها على ان بركيارق كانت أمه سلجقية ولكن لم يكن من بني السلطان ببغداد حاضراً الا ولدها الطفل فبايعوه وساروا الى اصفهان وأجلسوه على سرير الملك وأخرجوا تلك الاموال العتيدة . والذخائر الطارفة والتليدة . ففرقوها بأمر خاتون

قال: وفى أول العهد فتك بتاج الملك مماليك نظام الملك فانه كان وزيراً لخاتون وولدها ولما سمع مماليك نظام الملك ان خاتون وولدها قد قصدا اصفهان خرجوا ببركيارق منها الى الريّ وشرعوا فى جمع العساكر عليه وحملهم على ذلك دخلهم القديم الذى فى قلوبهم من تاج الملك وكانوا ينسبون اليه قتل نظام الملك . وفى مبادئ هذا الامر تولى المستظهر بالله الخلافة وأخذوا منه بيعة محمود ثم جاء بركيارق الى اصفهان محاصراً . ولم يكن معه أحد من أرباب الدولة حاضرا . فان الاكابر كانوا محصورين . واجتمعت عليه جماعة من أبناء الدهر غير معروفين . ولما سمعت والدته باصفهان واسمها زبيدة خاتون انه على قصدها سفر وجهها للسفر . وخفر ما كانت فيه من ذمام الخفر . ومات

محمود وماتت والدته ولم تنقض سنة وتم الملك لبركيارق

وزارة عز الملك أبى عبدالله الحسين بن نظام الملك

قال: كان شريبا خميرًا . لا يصيب رأيا ولا يحسن تدبيرا . بعيدا من الكفاية. قريباً الى الغواية . خاليا من المعانى . معروفا بالقصور والعجز والتوانى . فلما زاد اختلال الملك . بعدم نظام الملك . ظنوا انه يرجع الى نظامه باحد أولاده فاستوزروه ووقروه وعززوه . وكانت علامته احمد الله وأشكره وكان له أخ صغير اسمه عبد الرحيم فجعلوا اليه منصب الطغراء وقالوا أن هذا المنصب لا يحتاج الى فضل وليس الا مجرد ذلك الخط القوسى . وكان الاستاذ على ابن أبى على القمى وزير كمشتكين الذى كان قديما مربيا لبركيارق وآتابكه . فحين ولى السلطنة نفذ أمره ومضى حكمه حتى كأنه فى الملك شاركه . وتولى الاستاذ على ديوان الاستيفاء وجرت بايالة هؤلاء فى الدولة أمور شنيعة وأحوال فظيعة ولو تمشى أمر من الامور فانما كان بكفاية الاستاذ على فانه كان يرجع الى نظر لوذعى . ورأي وَرِيٍّ . والباقون كالاصنام لا يضرون ولا ينفعون . وأم السلطان قد خلعت عذارها ووافقت كمشتكين الجاندار على المنكر ومعاقرة المسكر والسلطان مشغول باللعب والعشرة مع عدة من الصبيان والوزير أيضا منهمك فى الشرب مع الاخدان . والمساخر والمجان . ووصلوا الى بغداد واختاروا المقام فيها . والهتهم مغانيها وغوانيها . وصار الامر مهملا . والعدل مغفلا . وكان من أكابر الامراء فى ثغور مصر والشام أميران

كبيران فى الجاه والقدر . كافيان في حفظ الثغر . وهما آق سنقر وبزان . فتابعا الكتب والرسل الى السلطان . بخروج عمه الملك تتش بن الب ارسلان. وانه قد خرج من دمشق وقد حشد جموع التركمان . فما قرأ لهما كتابا حتى يئس الاميران ووقعا فى ورطة الشر وظنا انهما يقاومان تتش فى ردّه عن قصده فوقعا فى طريقه حتى حصلا فى قبضته . وقتلا بسيف سياسته . وتوجه تتش نحو الرى وهمذان وقم وجرباذقان وأمراء الدولة البركيارقية كل منهم فى بلده مشغول بما هو فيه من القصف والعزف . قال : ومما قاله أبو منصور الآبيّ أحد فضلاء العصر بالفارسية فى قتل الاميرين ما معناه

قد غرقنا فى الشرب والسكر حتى لم نفكر في سنقر وبزان

ماظفرنا بالبيدق الفرد فى الدســـت ولكن قد أسلم الرخان

قال : والاجناد طلبوا اصلاح حالهم وتركوا بركيارق واتصلوا بعمه ووقع هو الى اصفهان وكان بها من بقايا الدولة الخاتونية جماعة أقوياء فحبسوه وأتعبوه فمنهم من مات فى اعتقاله . ومنهم من فجع دون نفسه بمالكل . قال : وكانت خراسان أيضا مضطربة وكانت بين ولدى الب ارسلان بورى برس وأرغو مقارعات هرب منها مؤيد الملك ابو بكر عبيدالله بن نظام الملك الى اصفهان فرأوه أهلا للوزارة فى ذلك الوقت فخلعوا عليـه خلعة تامة للوزارة وعاد به الملك الى النضارة . وكان مصرفا للسيف والقلم . عارفا بلغتى العرب والعجم . .

له بين العوالى والمعـالى وما بين المهندة الذكور

مقامات شرفن فما يبالى أمات على جواد أم سرير

ولم يكن فى أولاد نظام الملك اكفى منه وكان أوحد العصر . بليغا فى

النظم والنثر . فتقدم ونظم تلك الامور المنثورة . وطوى تلك السيئات المنشورة . وكانت علامته الحمد لله على النعم . فتوجه الى مصاف تتش وقال لمجد الملك أبى الفضل وهو منزو باصفهان «قم وصاحبنى» فاجابه «فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون» فلما ضرب المصاف كسر تتش وقتل فى المعركة وتوحد بركيارق بالمملكة واستبرك بالوزير

قال أنوشروان : كنت معه فى المصاف وذلك فى سابع عشر صفر سنة ٤٨٨ عند قرية يقال لها داشلو على اثنى عشر فرسخاً من الرى فوصل مؤيد الملك الى السلطان فى المعركة وهنأه بالفتح فابتسم سروراً بما آتاه الله من المنح وقال له «كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك» فأمن الناس من أنه معزول . وانه وزير مقبول . وكانت وزارته فى ذى الحجة سنة ٤٨٧ ولما وصلوا الى الرى بعد الوقعة بادر مجد الملك أبو الفضل الى الرى من أصفهان واستمال قلب والدة السلطان فى مبدأ الامر وتمكن من الدولة وقبض على الاستاذ على المستوفى فسمل واعمى . وبقى مؤيد الملك وحيداً يتوقع البلاء ويتعرض . ويتمثل أكلت يوم أكل الثور الابيض . وكان أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر اكبر سنا منه وهو حينئذ بالرى متعطش الى الوزارة فاطمعه مجد الملك فى موضع أخيه . وساعده على توليه . واعتقل مؤيد الملك وحبس . ورتب فخر الملك فى الدست واجلس . ولما كانت والدة السلطان صاحبة العناية بمجد الملك أعانت على مؤيد الملك فكتب من الحبس اليها أبياتاً بالفارسية يستعطفها ويتضرع اليها. واستقل مجد الملك بالاستيفاء وغلب على الوزارة وبقى فخر الملك صورة بلا معنى . وكان أيضاً خالياً من الكفاية والفضل والادب . وعلاما لكل شئ غير النسب . وهو أسير تصرفات مجد الملك وتابع رأيه وليس له

من رسوم الوزارة الا علامته وهى الحمد لله على نعمائه وقال مؤيد الملك فيه بيتين بالفارسية عربهما عماد الدين وهما

ماذا أقول عن امرئ * جمع المعاير والمعايب
عادت مناقب والدي * من شؤم منصبه مثالب

قال : وخلص مؤيد الملك من الاعتقال وأقام مدة مديده فى حماية بعض الكبراء تارة فى نهاوند وتارة فى مشكان مظهراً انقطاعه الى العبادة ثم انه قصد سرير الملك المحمدى في جنزة ورأى ان اقبال محمد على ادبار بركيارق غالب . وانه لامحالة لملك أخيه وارث أو سالب . وكان فى نفس محمد طلب السلطنة فقواها مؤيد الملك وحقق رجاءها فيها فقبله الملك محمد واصطفاه واستأمنه لخلواته . واستشاره فى عزماته . ثم سلم اليه وزارته وشعف بقربه وأسكنه صميم قلبه . وقاب مؤيد الملك . وكل بالانتقام . ورأيه معمل فى تسديد مرامى ذلك المرام . ولم يزل يقرب على السلطان محمد البعيد . ويلين عنده الشديد . ويحبب اليه الجد ويبغض اليه اللعب حتى حرك اليه ساكن ارادته وسار من أران به في شرذمة قليلة وبلغ به فى مدة يسيرة الى دار الملك أصفهان فتبوأ بها سرير سروره . واجتاب حبير حبوره . واستمال اليه العساكر واستقاد الى بهجته ونهجته الاسماع والنواظر . وألجأ بركيارق من الاوساط الى الاطراف . ومنى بالاغتراب والاعتساف . وقبض على الخاتون زبيدة وحبست فى قلعة الري ثم سعى مؤيد الملك في خنقها فخنقت وأحاطت به أوزار قتلها وأحدقت. وأما مجد الملك فانهم أفسدوا عليه قلوب العساكر وأضروها بمضرته . وأغروها بطلب غرته . فبضعوا بين الجمهور بسيوفهم أعضاءه . ووزعوا أشلاءه . وذلك فى سنة ٤٩٢ وله إحدي وخمسون سنة . وكان

رجلا مواظبا على الخيرات والصيام والقيام، واقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، مديماً للصلات والصدقات ، لم يسع قط في دم ، ولم يخط الى مضرة أحد بقدم ،

ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جنزة وأرّن الى الريّ وأصفهان

قال كان هذا السلطان مؤيدا موفقاً ، محققاً للرجاء فيه مصدقا ، ميمون النقيبة . محافظاً على تقواه مع الشبيبة . يحب الاقتداء بآثار جده الب ارسلان في سياسة المملكة وعلو الهمة ، وكان وقوراً مهيباً ، أريباً لبيباً ، فلما جلس على سرير ملك أبيه وجده ووجد قواعد الدولة بايالة أخيه مختلة ، وعقودها منحلة ، ضم النشر . ونظم المنتشر . وأحكم القواعد ، وأبرم المعاقد . وأعاد مؤيد الملك الى منصب أبيه في الوزارة ، وملأ بسناه أفق السيادة . فلابس هذا الصدر الامور بصدر واسع ، ورأى رائع ، وتدبير لشمل السداد جامع ، فاستقلت الدولة باجتهاده عن كبوتها ، وزالت نوبة نبوتها . وبقي سنين وقد انتقم من خصومه باخذ الثار ، وشفاء غلل الاوتار ، وحاز مال مجد الملك وسعى في قتل زبيدة خاتون فلا جرم عاد مرتهنا بجرمه ، وعثرت قدمه في ظلمة ظلمه ، وأسره عسكر بركيارق في مصاف جرى بين الاخوين على حد همذان وأحضره بركيارق بين يديه وأوثقه كتافا وعصب للقتل عينيه وهو قد رفع صوته بكلمة الشهادة ولم يظهر منه جزع ، ولا خور ولا فزع . فضرب

بركيارق بيده عنقه. وكان قصد والدة السلطان والسعي فى دمها أو بقه. فاعدم مثل ذلك الشخص العديم النظير . وأعنق ذلك الوزر في حز عنق ذلك الوزير . وهيهات أن يلد الزمان مثله فى دهائه . وزكائه ورأيه وحياته. ولطفه وظرفه . ولينه وعطفه .

قال : وآلت وزارة بركيارق الي الاستاذ عبد الجليل الدهستاني ولم يكن له أثر محمود. ولا يوم فى الكفاية مشهود. بل تفاقم شره الى أن أخرج املاك الناس فى الاقطاع .وكان فى الظلم مستطيل اليد طويل الباع. ولم تطل أيامه فانه بقر بطنه باطنى على باب اصفهان . قال :وبقيت حقوق مؤيد الملك عند السلطان محمد محفوظة. وبعين الرعاية ملحوظة . فاعتقد ان نصير الملك ولده النجيب وانه اذا ولاه قضى حق أبيه . فولاه وزارة بنيه. وكان يأنف الكاب من لؤمه . والبوم من شؤمه . ومعايبه لاتعد . ومخازيه لاتحد. وعنّ له ان يشتغل بعلم الاوائل فبلغ منه الى حدّ التعطيل . ووقف عند محار الدليل. وقد صنف ابو طاهر الخاتونىّ فيه كتابا سماه نزير الوزير . الزير الخنزير . وبطل بعد مؤيد الملك ذلك الترتيب. وظهر على وجوه الايام التقطيب. واستمرت سنين بين محمد وبركيارق مصافات. وتمت مخافات وافات .

قال أنو شروان : وكنت قد فجعت بمصرع مؤيد الملك وأثر فى قلبي مؤلم ملمه . وأزعجني عن المقام مقيم همه. حتى حصلت بالبصرة فأقمت بها مدة ثلاث سنين . وصادفت اخوانا صادقين . من جملتهم الشيخ الامام أبو محمد القاسم ابن علىّ الحريرى صاحب المقامات يوافقنى فى الجد والهزل طائعاً فينظر من عينى ويسمع من سمعى . وفى هذه المدة التى أقمت فيها بالبصرة درج بركيارق وكانت وفاته بالسل والبواسير ببروجرد فى ربيع الآخر سنة ٤٩٨

وبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ووقع عليه اسم السلطنة وله اثنتا عشرة سنة وقاسى من الحروب واختلاف الامور مالم يقاسه أحد فتفرد بالسلطنة أخوه محمد ودان له المشرقان . وتصرف بيده زمام الزمان .

قال أنو شروان: فجاءنى يوماً توقيع سلطانى على يد أمير من بعض الخواص فاستدعانى واستدنانى فوصلت الى بغداد والسلطان محمد بها فى وزارة سعد الملك ابى المحاسن سعد بن محمد الآبى وكان وزيراً سعيداً حسن الطريقة ذاهدو وهداية. ورأى وكفاية. فجمع العساكر على الطاعة السلطانية وأطفأ نائرة الفتنة الشيطانية . وكان الامير الاسفهسلار اياز مقدم العسكر البركيارقى فلما توفى بركيارق صار اتابك ولده ملكشاه فقام مقام والده. ورد ملكه به الى قواعده. فاهتم سعدالملك باستمالته .وحاف له على سلامته . فلما مكن من نفسه قتلوه . وأخذوا ملكشاه بن بركيارق فسلوه . وذلك في سنة ٤٩٩ فزال الشغب وسكنت الدهماء. وكانت للوزير سعد الملك فى هذه الحيل اليد البيضاء. قال: وسرت فى الخدمة لما ساروا الى أصفهان. ومادام هذا الوزير في ولاية السلطان . ظهرت له آثار حميدة . وآراء سديدة . وكانت علامته الحمد لله على نعمه وكانت له فى الباطنية نكايات . ورفعت له فى فتح قلعة شاهدز رايات. وكانت قلعة منيعة على جبل اصفهان تناصى السماك . وتناظر الافلاك . وقد تحصن بها أحمد بن عبد الملك بن عطاش طاغية الباطنية في طائفته. وبليت أصفهان وضياعها ببليته .فسما لها سعد الملك بالرأى الصائب. والعزم الثاقب . وتلطف فى افتتاحها. ودبر فى استنزال من فيها على ايثار الملة الاسلامية واقتراحها. فأنزلوه من معقل الى عقال . وبدلوه آجالا من آمال. وألصقوا خد تلك القلعة بالترب.ووضع الهناء فيها مواضع النقب .

وكذلك افتتح قلعة خان لنجان . وهي أيضاً بقرب أصفهان. وكانت قد خربت تلك الولاية بما لاهلها فيها من النكاية . وكان بأصفهان رئيس يقال له عبد الله الخطيبي وهو حاكمها والمستولى على رئاستها وهو رجل جاهل من أنواع الالوم خال محتال . يبدى تمسكاً باظهار زهد وورع محال على محال . ولم يكن له سوى ضخامة جثة . وفخامة لحية كثة . وكان لقاؤه الامي مقبولا . وكلامه السمي معسولا . وكان من هـذا الوزير خائفاً . وبمعرفة الوزير بباطن شره عارفاً وطلب من السلطان خلوة غر السلطان فيها بتنميسه . وروج لديه سوق تلبيسه . وتم نفاق نفاقه . وبرز هلال محاله من محاقه . وجرى من مناصبيه على سعد الملك انه حقق فى اعتقاد السلطان انه صديقه الصادق . ورفيقه الموافق . الا ان فيه عيباً واحداً وهو انه الى الباطنية مائل . وبمذهبهم قائل . وانه مجتهد فى ازالة هـذا الاعتقاد من قلبه . والمبالغة في نصحه . اشفاقاً على ما أجد من حبه . فانه يعز على فساد مثله مع فضله ونبله . واعتقد السلطان صدق قول الخطيبي وحسبه خالياً من الغرض . حالياً للنصح المفترض . ثم أغفل مدة وعاد اليه وأيسه من قبوله . وأسف على مافاته اليه من سوله . وصار يشفع الى السلطان فى تأجيل أمره . لاجل ماعنـده من مودته . وان لايعجل فى عقوبته . وقد وضع من خواص السلطان صبياناً على الوقوع فى الوزير . وانه باطني الضمير . ولم يزل به حتى أوقعه فى الحبس . ولما قيد رتب جماعة من الاوغاد شنعوا على الوزير فى دار السلطان فى مجمع من الامراء والقاضى حاضر . وقال كل منهم هو ملحد وكافر . ومازالوا بالسلطان حتى صلب الوزير مع عدة من أكابر ديوانه . ببهت عدوه وبهتانه . وذكر انه لما اطلع الوزير على مكيدة خصمه . دبر في مكيدة عليـه . فعاد على الوزير وبالها . وآل الى

اهلا كما آلها. وذلك انه كان عارفاً بمكاتبات كانت بين الخطيبي ورئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش في مبادى أمره. وكان مطلعا على سره . فأراد ان يستدعى بعض تلك المكاتبات بخط الخطيبي ويقول للسلطان هذا الرجل رماني بما هو مذهبه وشأنه . وخطه هذا حجة قولى وبرهانه. وأرسل فى ثقاته في هذا المهم من كتب على يده بخطه توقيعا بالجواز . ولم يوصه بالاحتراز . فظفر بالرسول من كان مرتبا لحفظ طريق القلعة . ومنع الميرة عنها والطعمة . فوجدوا خط الوزير معه بالجواز فأخذوا الخط وكان من أعظم أسباب ذلك الخطب وذلك ان السلطان حفظ خطه الى ان قبضه. ثم عرضه عليه فصرح له ان كتابه للتلف عرضه . فلما أوتى كتابه. لم يعد جوابه. وما نبس بكلمة . ولا فاه ببنت شفة . ولو قال لما سمع . ولو اعتذر لدفع عذره ومنع . وكان من أمره ما كان . ولقى الرحمن . ولقد كان رجلا خير النقى الأديم . كريم الخيم . جامعاً لآلات الوزارة . وأسبابها لائقاً بقلم السيادة ودواتها

قال : وكان المستوفى في وزارته للسلطان زين الملك أبو سعد بن هندو ولم يكن له أصلٌ ثابتٌ . ولا فرعٌ نابتٌ . ولما تولى خرج واستخرج . وأمر وأمرج. وأخذ الاموال جزافاً . وأسرف فيها اسرافاً . ولما انقضى أمر سعد الملك رفعت عليه رفائع وأخذ وحبس واستصفيت أمواله ونهبت دوره وتخبطت أموره وبقي فى الحبس سنين . ولقى العذاب المهين . وكان صاحب ديوان الانشاء في وزارة سعد الملك نصير الملك محمد بن مؤيد الملك وكان مع جهله وعدم فضله للديوان به أبهة وجلالة . وحلية وحالة . فزلت به قدمه . ولم يأخذ أحد بيده . وبقى مشنوءا مهجوًا مهجوراً بكمده. وكان وكيلدر السلطان فى وزارة سعد الملك اميرى القزويني المعروف بالزكي

ذو كيسة من جملة التجار وكان قد هرب من أبي مسلم رئيس الرى والتجأ الى سعد الملك، فارا الوزير أن يكون بينه وبين السلطان من يتردد في المهمات. ويأتيه بجواب المؤامرات والرسالات . والذى يتولى هذا الشغل يقال له في العجم وكيلدر أى وكيل الباب ومنزلته أخص من منزلة الحجاب ويجب أن يكون منطيقا بليغا . متجرعا فى مضايق الكلام الغصص مسيغا . مستقلا باقامة الحجة عند الحاجة . متجنبا للسماجة . بقول ينسب الى السماحة عارفا باخلاق السلطان فى أوقات رضاه وسخطه. وقبضه وبسطه. فاذا وجده منقبضا تلطف فى تنشيطه مما ينفق عليه من الحديث الرائق. والقول النافق. حتى اذا رأى منه سيماء القبول حدثه بمقصوده . والا جرى فى الامساك على معهوده . فان السلطان لا يثبت خلقه على حالة . ولا بد له من ضجر وملالة. وكان هذا القزوينى خالياً من هذه المعانى كلها لكنه التمس الى سعد الملك هذه الولاية فأجابه الى ملتمسه. ووافقه على هوسه. لسلامة نفسه . وذهب عنه انه سوقى قفز من الدكان الى باركاه السلطان فزاحم أركان الدولة بالمكانة والمكان وكان اذا خاطب السلطان وشافهه حدث له عجب فانخرع وانخلع . وخرج عما فيه شرع وجمع بين الاروى والنعام . والضباح والبغام . ثم لا يتكلم الا بكل ما يضر . ويسوء ولا يسر . واستضر سعد الملك من جانب ذلك العاجز بغير قصد منه فى حقه وأى ضرر أقوى وأمكن من كونه فتل فى حبل خنقه . وكان عارض الجيش فى وزارته أيضاً أبو المفاخر القمى وكان قد غلب عليه فى اصطلاح الخاصة والعامة نعت طرطنبيل . وما عرفوه بغير هذا الاسم الثقيل . وصرف في وزارته وولي عمله عز الملك بن الكافى الاصفهانى وبقى فيه أشهراً فلما أخذ سعد الملك اقترنت نكبته بنكبته .

واتفقت صلبته مع صلبته . واستدعى مختص الملك أبو النصر القاشى فى وزارة سعد الملك وصرف به من ديوان الانشاء محمد بن مؤيد الملك فقبل هذا وذاك طرد. وأقيم ذلك وهذا أقعد .

قال :وخلا الميدان للخطيبى فصار محكًا للاسلام . وهو عند السلطان مقبول الكلام . وأصحاب السلطان عنه خاشون . والى بابه غاشون . وكان اذاسأله السلطان عن واحد كيف تعرفه أجاب مرة بلا أدرى ومرة بلا أعرفه وتارة امهلنى فانى ابحث عنه واكشفه وتارة يشهد عليه بما يهدر دمه

قال : وحدثنى ابن المطلب وكان وزير الامام المستظهر قال ما زال هذا الخطيبى ببغداد يتوصل حتى ابصر قهرمانة لدار الخلافة فقال لها اليوم أجرى معى السلطان حديث هرون أخى الامام المستظهر وسألنى عنه فدخلت القهرمانة الى الدار واوصلت الى سمع أخيه ما حدثها به الخطيبى فقامت قيامة الخليفة وتمكن الاستشمار من نفسه الشريفة فكتب الى الوزير يأمره بالركوب الى الخطيبى ويحمله على الاضراب عن ذكر أخيه . ويحمل اليه ستة آلاف دينار اميرية يدفع بها شره ويكفيه

قال : فاستأذنته فى الركوب اليه فى الليل . فانه اخفى للويل . فما صبر ولا وجد القرار حتي ركبتُ اليه وأرضيته بما حملته . واستعفيته عن حديث هارون واستنزلته

قال: وكذلك لم يترك من خواص السلطان أحداً الا لوثه. وشوش عليه رأيه وخبثه . ولم يغادر أحداً من الخاصة والعامة الا طرّق اليه ظنة . او قلده بسكوته عنه منة . وقال له السلطان يوما كيف كان أصحاب دواوين والدى وجدّى فى أديانهم . وانهم كانوا لا قدح فى ايمانهم . فكيف اختص

هذا اللوث بزماني وباصحاب ديواني فقال اولئك كانوا من أصحاب خراسان. وهم أهل الدين والاحسان . وهؤلاء أهل العراق . أهل الالحاد والنفاق . فتخيل السلطان صحة مقاله . واستحكم تقريب الخراسانيين وابعاد العراقيين في خياله . واعتقد انه ليس في العراق مسلم . وان افق الملك بغير الشرفيين مظلم . وكان بالعراق جماعة من أهل خراسان محرومون مهجورون من كل جاهل مجهول . وساقط ذي خمول . ومنزوٍ الى ناحية . ومتنح الى زاوية . ومتنمس بالرياء . ومتهوّس بالكيمياء . وبطال مرجف . وعمّال محترف . فلما عرفوا ميل السلطان اليهم رفعوا رؤوسهم . وعرّضوا نفوسهم . وخطبوا المراتب . وطلبوا المناصب . وغفلوا بل غفل السلطان عن هـذه النكتة ان خراسان عشّ مذهبِ الباطنية . وبها افرخ وباض . ومنها شاع وفاض . وفيها حصونه التي لم تُفتَح . وعيونه التي لم تتنح . وانقضى عصر سعد الملك سريعاً . وصار بالمكر الصريح صريعاً . وعاد الملك المريع منه مروعا .

وزارة الامير ضياء الملك ابي نصر احمد بن نظام الملك

قال: لما نُكبَ سعد الملك طمح الى الوزارة عمرو وزيد ووصل يوم نكبته الامير ضياء الملك وخطير الملك ابو منصور محمد بن الحسين الميبُذيّ وكان قد استدعى من فارس فاختلفت عليهما الآراء فرأى السلطان حفظ الجانبين . وأمر بتولية الصاحبين . وجعل دست الوزارة للنظاميّ . ومنصب الاستيفاء للميبذيّ . والف بتأليفهما قلوب خواصه . وخص كلا منهما

باستخلاصه . وأعطى سياسة ملكه حقها . وجلا بسناء احسانه أفقها . قالت الحكماء : « منازل السياسة اربع فالاولى سياسة الرجل نفسه . والثانية سياسة أهله وولده ومن يضمه منزله . والثالثة سياسة بلد واحد يتقلده . والرابعة سياسة الملك كله . فمتى عجز عن منزلة من هذه المنازل فهو عن التى تليها اعجز » لاجرم ابتلى هذا الوزير بشئمة نسبه . وهو غير خبير بسلوك مذهبه . ولم يكن من شغله ولا من اربه . وكانت علامته احمد الله على نعمه . فقضى حقه بشغل عجزت اللقاة الدهاة عن القيام به ووقع اسم الاستيفاء على الحطير كما يدعى بالجهل . اسم النبوة ابو جهل . فلم يكن للمنصب المأهول دسته بأهل . وخواجه مختص الملك صاحب ديوان الرسائل . معدم من الفضائل . وهو عند اولئك اكتب الكتاب ويعجز عن كتب خمسة اسطر بالفارسية فضلا عن العربية

قال انوشروان : وانا ولّانى السلطان الخزانة فانه استدعانى الى خلوته وخصنى بكرامته . وسلم الىّ خزائن ممالكه وكان هؤلاء الاكابر انما يصلون الى السلطان فى الباركاه اذا جلس لعامته وانا اختص بخلواته واستسعد بمحادثته . فعظمت وجاهتى بمواجهته . وحسدنى اكابر الدولة على منزلتى . وانتظروا زلتى ومزلتى . واتفق فى ذلك الوقت ان الامير السيد ابا هاشم الحسنىّ رحمه الله رئيس همذان . قد تغير عليه رأى السلطان . وذلك لان قوما من ارباب الدولة تناصروا عليه . وادبّوا عقارب مكايدهم اليه . وأطمعوا المتوج بن ابى سعد الهمذانىّ فى ايالة همذان ورئاستها وكان المتوج هذا من جهة الرئيس منكوبا . وبيده مضروبا . فاوقعوه فى معارضته . وعرّضوه لواقعته . وأغلقوا على الامير السيد وعلى اولاده باب داره . وسدوا عليه طريق فراره .

وقرروا عليه سبعمائة الف دينار احمر . سوى ما يلزمه من توابع ولوازم هى اكثر من ان تحصر

قال انوشروان : فامرني السلطان بالمسير الى همذان لاستيداء هذا المال . وعاد السيد ابو هاشم وهو شيخ كبير قد ضعف بصره . واختل نظره . فعظم عنده ما قرره عليه واستكثره . فمحضت له النصحَ وضمنت له النُّجحَ . وعاقدته على مساعدته . وعاهدته على معاضدته . ووعدته بالسعى فى اصلاح حاله . وانجاح آماله . ونقدَ سبعمائة الف دينار عتيق فى سبعة أيام من موجود خزانته . ولم يستعن بأحد من أهل مدينته . وحثّنا على المسير . ولم يأذن لنا فى المقام اليسير . فحين اوصلت المال الى خزانة اصفهان . ولقيت السلطان . شافهته بحقيقة امره . وعرّفته اختلاف اصحاب الاغراض بالباطل فى حقّه . فامر السلطان باعادته . الى رئاسته . ومنصب سيادته . وسير اليه الخلع السنية والتشريفات اللائقة بشرفه . وأحيي متلد مجده بمطرفه

قال : ولما حصل ذلك المبلغ فى الخزانة سلمها اليّ . وعوّل فى دخلها وخرجها عليّ . فتوليت الخزانة والزكيّ ذو كيسة فيها . وكدخدائية الخزانة به منوطة . وامورها بامانته مربوطة . ولما سار السلطان الى بغداد فتك بالزكيّ هذا فى سوقها فقتل فى الحال قاتله . ولم يعرف من ايّ وجه غالته غوائله .

قال : وقد سبق القول بأنه لم يخلص من طعن الخطيبيّ سوى مختص الملك الكاشيّ . فلم يثبت على تلك الحالة فانه شرع عند السلطان يقدح فى دينه . ويجرى من الشر فى ميادينه . ثم انه قد نقش فى لوح خاطر السلطان ان الباطنى لا يعرفه غير الباطنى فاجتهد حتى دل على رجل من الباطنية من الخوف مختف . وفى بعض الزوايا مكتف . فاحضره وآمنه . وقوي نفسه

بما أمكنه . وقال له « لا بأس عليك ولا سبيل للاذى اليك » ولقنه أسامي مائة نفس من خدّام السلطان . وأعيان البلدان . وقال له « اذا سئلت عمن تعرفه من الباطنية فاذكر هؤلاء . وعدهم على الولاء » فرده الى موضعه وقال « لا تخف فانك ان أُخذت أنجيتك . وان أُخذ منك أعطيتك » فلما عاد الرجل الى مكمنه حضر الخطيبي عند السلطان وقال : « قد دللت على رجل باطنى فى موضع كذا وأرجو أن يقع فلعله يفتح علينا بشيء من أمر الباطنية » فامر الحاجب بانفاذ من يأخذه فأُخذ وأُحضر وسئل عمن يعرفه من الباطنية فى البلاد والعسكر فاعاد مالقنه من الخطيبي وأجرى ذكر مختص الملك أبى نصر والصفى القمّىّ أبى الفضل نائب الخطير فى ديوان الاستيفاء وكذلك عد قريباً من مائة من المعروفين فأُخذوا وسلموا الى الاتراك . وتصرفوا منهم فى الدور والاملاك . وتشتت أهلهم . وتفرق شملهم . وفي أثناء هذه المكايد والحيل نزل الخطب بالخطبي وضرب بغتة بسكين سكنت حركته . وأسكنت نامته . واشمتت به خاصة الزمان وعامته . وبقى المكذوب عليهم في السجن شهوراً . وانتقم الله ممن جاء في أمرهم بهتاناً وزوراً . ثم تبين للسلطان بعد قتل الخطيبيّ انه كان محالياً مستحلا . مستبدا بالاحتيال والاغتيال مستقلا . وعرف أن ذلك الباطنيّ ذكر من ذكره بتلقينه فندم السلطان ولات حين مندم . وأمر بالافراج عن أولئك المساكين . ولم يسمع السطان بعد ذلك حديثاً فى اعتقاد . ولم يصدق نسبة مسلم الى الحاد . واذا جرى عنده حديث الباطنية قال « انهم فى القلاع وهى موضعها ونحن نقصدها ونقلعها » وشعف بحصار حصونهم وفتح قلاعا لو بقيت الى الآن في أيديهم لعم العالم الكفر

قال : وكان شمس الملك بن نظام الملك أخو الوزير حاضراً و كنت متولياً لعرض الجيش فنقل هذا المنصب منى اليه بعد أن أخذ منه الفى ديناراً خـدمة أوصلها الى الخزانة وبقى فى قلب السلطان من مختص الملك شئ من الارتياب به لم يزل ، ومن يسمع يخل . ولم يكن ظهرت بعد احتيالات القاضى فأزال السلطان اختصاص المختص . وتعمد قوادم شغله بالحص . وكان الامير العميد محمد الجوزقانى عميـد بغداذ فاستدعاه ونقل اليه منصب المذكور . واعتمد عليه فى تلك الامور . وهو منصب الطغراء . وليس أكبر منه بعد الوزارة الا منصب الاستيفاء . ثم الطغراء . ومن جملتـه ديوان الرسائل والانشاء . ثم الاشراف ثم عرض الجيش . والطغرائي هو وزير السلطان فى الصيد لغيبة الوزير وعليه المعول . فصار الأمير العميد طغرائياً . وكان من كسوة الفضائل عريا . وتولى أيضاً وزارة كوهر خاتون بنت الامير اسماعيل ابن ياقوتى زوجة السلطان وكانت وزارتها أيضاً منوطة بكفاية المختص فصرف من الشغلين . وتسلم الامير العميد المنصبين . وهذا محمد الجوزقانى كان ولد خطيب جوزقان . خرسانى المولد والاصل وانما كانت الرغبة فيه لخرسانيته . لا لانسانيته . وتعرف الى السلطان بالمذهب الحنفي ومشاغبتـه فيه . وادلاله بالتعصب بين ذويه اذا سلم عليه واحد لم يسمح له برد السلام . حتى يقول له ما مذهبك من أهل الاسلام . وكان قبيح الجبه . شديد النجه . صفيق الوجه . كأبى براقش فى تلونه . وكالعقعق فى تقلبه . وكالذئب فى توثبه . وهو خارج عن الحد فى تعصبه .

قال : وكان قد خلص زين الملك أبو سعد بن هنـدو من الحبس . ونزل فى المعسكر بغير شغل ثم داخل صدور الديوان . واستولى على المكانة

والمكان . وكان خالياً من أدنى فهم . جاهلا بكل علم . ومن جملة ذلك انه سلم اليه كتاب قرار ليكتب خطه بما جرى من قرار الديوان فكتب كذا الاستقر بالالف واللام وكتب فلان بن فلان

تعس الزمان لقد أتى بعجاب   ومحا صنوف العلم والآداب
وأتي بكُتّاب لو انطلقت يدى   فيهم رددتهم الى الكُتّاب

وكان الوزير ضياء الملك رجلا سهل الحجة . صادق اللهجة . اذا جلس فى صدر وزارته . وأحدق الصدور بوسادة سيادته . انار دسته . وحسن سمته . وكان كل منهم اذا اجتمعوا سلقوه بالسنة حداد . وكدروا ورده فيما هو قانون الوزارة من الاستقلال والاستبداد . قال : ولما لم يكن مباشرته للوزارة صائبة . وكانت الآمال فى نجحه خائبة . لم تلق مدة ولايته تمكيناً وبقى بعد صرفه اثنتى عشر سنة مسجونا . ولقى أضعاف كرامته هواناً . ولم يصادف من زمانه واخوانه الا خوانا

قال : وتوفى الامير السيد أبو هاشم الحسنى رئيس همذان فنقل من خزانته الى خزانة السلطان بعد ما أداه مبلغ مائتين وخمسين ألف دينار وما أثر ذلك في حال بيته . وقام حيه بتأثيل مجد ميته . وزاد تقريب السلطان لولده . وقوى يده على رئاسة بلده . وظهرت مخايل عصيان ملك العرب صدقة بن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الاسدى وذلك فى سنة ٥٠٠ فتغير رأى السلطان فيه حتى جرّ اليه عسكره . وكدر اليه مورده ومصدره . وجرت بينهما وقعة غلبه السلطان فيها وقتله . واستضاف مملكته الى مملكته . واستخلص ما كان فى يده من ولايته . وحيز أقليمه بقلم الحيازة الديوانية . وتصرف فيه كتاب الدولة السلطانية . ومزقوا بالتبذير تلك الاموال الجزيلة

وخربوا بسوء التدبير تلك الاعمال الجليلة

قال : وقد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده . وانما يقتني منها مايراه موافقاً لمقصوده . فيسأل عن فروعه وأصوله . وانقطاعه ووصوله . فما باله لايتخير لديوانه . ومراتب سلطانه . من الكفاة الأفاضل . والصدور الاماثل . من عرفه ذاك . وعرفه زاك . وعرقه كريم . ومجده قديم . وطريقه في الكفاية مستقيم . لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار . وأجدر بالاختبار . فانهم أمناؤه على مملكته . ووكلاؤه على دولته . وسفراؤه في خدمته

وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن الحسين الميبذيّ

قال الصادق عليه السلام : كل شئ يحتاج الى العقل الا الدولة . قال : وقد عرف انه معدم من كل آلة وأداة . غير لائق برعاية يراعة . أو الاقة دواة . حمارٌ رامحٌ . جانحٌ جامحٌ . عضوضٌ رفوسٌ . حرونٌ شموسٌ . معدن الغش والدغل . منبع المكر والحيل . وكان قد وزّر مرة أولى . وعرفوا ان يده في القصور طولى . لكنه توسل في هذه المرة لعوده الى الوزارة بجنس توصل بن جهير في الوصلة الى نظام الملك بابنته . وهذا لم يكن له وصلة شرعية ولكن تم له الامر بمثل وسيلته . والى ذلك أشار بن الهبّارية في وزارة بن جهير

قل للوزير ولا تفزعك هيبته وان تعاظم واستعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية　　فاشكر حراًصرت مولانا الوزير به

وكان رجلا جسيماً ملء التابوت . وعقله أوهن من بيت العنكبوت .
فاذا استند الى مسنده فى الديوان . اعتقد انهما مسندان محشوان

وزير غاص فى شحم ولحم　　ولم ينسب الى عقل وفهم
اذا لبس البياض فمدلُّ قطن　　وان لبس السواد فتلُّ فحم

وكانت علامته الحمد لله المنعم . وكانت له في الجهـل نوادر شوارد . وبوادر بوارد . ومن جملة ذلك انه كان يوماً ببغداد راكبا فى زىّ حسن . وموكب خشن . وجمع جمّ . وبهم ودُهم . وجلال الدين عميـد الدولة أبو علىّ بن صدقة الذى وزر للمسترشـد مسايره . والجند قد عقدت بروايتـه ورؤيته اسماعه ونواظره . فالتفت الخطير الوزير وقال « قد أشكلت علىّ مسألة لابد من حل أشكالها . وانشاط قلبي من عقالها . هذه اللواطة سنة قديمة سبق اليها القدماء . أو رسم مستحدث أحدثه السفهاء » فقال له بعضهم « هذا رسم قديم لقوم لوط » فقال الخطير « ومن كان لوط » فقالوا « نبيّ من أنبياء الله » فقال « متى كان قبل نبينا أم بعده » قالوا له « كان نبينا صلى الله عليـه وسلم خاتم النبيين . وسيد المرسلين . ولا نبيّ بعده » قال « فما الذى قال فيـه » قالوا له « قد أنزل الله فى قوم لوط إِنَّـكُمْ لَتَأْتونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » قال « ما معنى تجهلون » وكان عجمياً لايعرف كلمة عربية فقالوا له « أى لاتعلمون » فقال « هذا حسبُ فالامر اذاً سهلٌ وعذر فاعله انه ذو جهل وأنا اعتقد انه أعظم وزراً وأفظع أمراً » فانظر الى جهالتـه فى ضلالتـه . ونزارته فى وزارته . وكان مهذاراً مكثاراً لايستر شواراً . ولا يحذر عثاراً . وما كفاه ذلك حتى استناب بن الكافى

الاصفهانى الناقص الملقب بالكامل . الطويل بغير طائل . واللئيم الذى كان له عند الكرام طوائل . طنّاز غمّاز . هماز لماز . وكان من نوائب الدهر . كونه نائب الصدر . يمنّ بأن أخته تحت الوزير . وهو بذلك بالغ القدرة والقدر . وهو من الذين قال ابن الهبارية فيهم من أبيات في ذم أصفهان

بلد أبو الفتح اللئيم عميده والقاسم بن الفضل قيل رئيسه
وطريقة الكافى الطويل وشيخه مع انه دنس المحل خسيسه
وابن الخطيبيّ الصغير محله قاض وجرو المندوى جليسه

فاتفق جميعهم على الوقيعة فى زين الملك ابى سعد بن هندو . حتى بلغوا فى مكروهه ما ودوا . فباحوا بسر سرائره . وحملوا السلطان على أخذه بجرائره . وانما تمشّى لهم السعى فيه بما كثروا عند السلطان من ثروته . وقالوا انا نقل ما ئتى الف دينار الى الخزانة من خزانته . فأمر السلطان بأخذه وتسليمه الى التونتاش . وأوقعه فى مخاب ذلك البطاش . فحمله من اصفهان الى مدينة ساوه وصلبه يوم الجمعة فى شارعها . فلما قتل تصرفوا فى ماله . وتدينوا باستحلاله . وأنسوا السلطان المائتى الف دينار . وتحكّم ابن الكافي في ذلك المال . واستوعبه الكامل على الكمال . وأعيد في وزارة الخطير ديوان الاستيفاء الى معين الدين مختص الملك فتولى بعد العزل وتمكن من الشغل وعبث بهم ابو طاهر الخاتونىّ فى أبيات فارسية قال الامام عماد الدين : وعرّبت بعضها وقلت

صدور ما بهم للملك ايراد واصدار
خفاف لو نفختهم وهم فى دستهم طاروا
رأيتهم كما كانوا وأعرفهم كما صاروا

وكان الاستاذ الموفق ابو طاهر الخاتونيّ من صدور الدولة . وأعيان المملكة . وأفاضل العصر واماثل الدهر . ذافصاحة وحصافة . ولطافة وظرافة . فى النظم والنثر جامعاً لادوات خدمة الملوك . خبيراً فى مناهج المناهج بالسلوك . قد قلب الأمور ظهراً لبطن . وجرّب الحالين من قوّة ووهن . ولم يزل مذ نشأ والى آخر عمره صدراً كبيراً . ومشاراً الى صوبه وبالصواب مشيراً . وما زال لخاتون مستوفياً . وديوان السلطان بكفايته مكتفياً . فلما تولى هؤلاء عرفوا نقصانهم عند فضله . وانخفاض محلهم في البراعة عند ارتفاع محله . وعلموا انه لا يغضى عن عيبهم عينه . وانه لايقضى الاّ من عروض عرضهم ان قارضوه أو عارضوه دينه . فتخيلوا من تزبيقه وانتقاده . وتحيلوا بكل طريق بعد تقريبه فى ابعاده . فتمحلوا له من جرجان شغُلا . وعدّوه له أهلا . وجرَّ الى جرجان . جرَّجان . ونقل من أعز مكانة الي أذلّ مكان . قال الامام عماد الدين رحمه الله . وشكا فى أبيات عجيبة أعجام حظه وابهامه . واقلال قلمه واعدامه . فعربتها وقلت

لمرتبة الكتاب فى عصرنا على رتبة نحن فيها شرف
وما عاد ذو قلم مفلحاً فان الفلاح لطبل ودف

قال : وكان مختص الملك قد شمر جفنه للشعر فيه فعاد كأنّه شكل مثاث فى عين رأسه . فقال فيه الموفق الخاتونىّ بيتاً بالفارسية مشتملا على معنى بديع وهو انه ينظر من مثلث عينه الى الناس نظر تربيع فقلت

لصدر الصدر ضيق فى اتساع ويطمع في كمال من قصور
على التثليث ناظره ولكن من التربيع ينظر فى الأمور

قال : وما زال الوزير يصغى فيه الى السعاة . ويسيم فى مرعى سمعه

سرح الوشاة . ونسبوا اليه التقصير والتخليط . والافراط والتفريط . وأحال الوزير عليه بمائة الف دينار وانتهز فى أمره الفرصة . وأخذ في استدعائه من جرجان الرخصة . فاستحضره وتشدّد فى إرهاقه . واستصفى ماله فماد ذلك بإملاقه

قال الفتح بن علىّ البندارىّ الاصفهانيّ منتخب الكتاب : رأيت بخط جدي رحمه الله ان موفق الدولة قال فى تلك الحالة أبياتاً مطبوعة بالعربية ومن جملتها قوله

نهبوا ماملكت في بغدادى ... واستباحوا ذخائري وعتادى
فأنا اليوم غير ذقني وسنى ... مثلما كنت ساعة الميلاد
وهما الآن رهن قلع ونتف ... تحت هذا الابراق والارعاد

قال : فأحوجته الحوالات عليه الى الاستقراض . وانضاف اشتغال ذمته الى الانفاض . وكان للاستاذ الموفق معرفة بالكمال السميرمىّ وبينهما صداقة صادقة . ومودة صالحة من كأس الصفاء غابقة . وسيأتى ذكر الكمال عند انتهاء ديوان الاشراف اليه فى الايام المحمدية . وعند استقلاله بالوزارة فى الايام المحمودية . ولقد كان من أوسع الصدور صدراً . وأرفعهم قدراً . وأحسنهم تدبيراً . وأجملهم تأثيراً . وكان يلقب بعز الدين وهو فى منصب مشهور . ومذهب فى السماح مشكور . فلما أملق الموفق كتب اليه أبياتاً ذكره فيها بحقوق خدمته . وعقوق حظوته . وشكا فيها حاله . وهجا الوزير وأشكاله . قال عماد الدين . ولم يأت لى تعريبها : ولم يأنس بخاطرى غريبها . فأضربت عن ضربها . لما عصانى ضربها . وله فى شكوى حاله . ماعربت معناه نسجاً على منواله . وقلت

وكم بيذق فى خدمة الشاه ساعة تفرز لما صار فى سابع الدست
ولى أخدم السلطان سبعين حجة وها أنا حيّ للاضافة كالميت

قال : وملأ هـذا الوزير الخطير مخازن مخازيه . والكامل بن الكافى موازنه وموازيه . ولم يكن عنده من الله خبرٌ . ولا فى قلبه من الدين أثر وكلما طال عليه الدهر تطاول على نبيه حتى تأسست بالشرّ مبانيه . وحلت له مكاسب لا يرضى المجانين بها مجانيه . والسلطان لهم كارهٌ . وضميره له بما هم فيه مشافهٌ .

ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان بن « خالد فى نيابة الوزارة »

قال أنوشروان : فراسلنى السلطان بخادم من خواصه . وشكا من الوزير اعتياد اعتياصه . وقال « هذا الوزير قد أيست من فلاحه . ولا مطمع لى فى اصلاحه . وفى كل وقت يحكم فى بيتى من أولاد الكافى . غير كافٍ واذا رمت وفياً جاء فيه منهم بجاف . وقد عرفت يا أنوشروان طريقتك . وعلمت حقك وحقيقتك . وأنا أوثر ان تنوب من قبلى فى الوزارة . وتعمر مابيني وبينك فى السفارة . حق العمارة » فقبلت الأرض . وأديت فى تولى خدمته وشكر نعمته الفرض . وقدمت عذراً لائقاً بالحال . فلما انكره سارعت الى الامتثال . وكان السلطان كريماً حليماً . لا يعجل مؤاخذة من

يخونه وان كان بحاله عليما. فحفظ قلب الوزير فى نيابة ابن الكافى لما عزله . وكان فى نفسه مؤاخذته بالمال الذى اختزله . مراعاة لقلب الوزير . ومحافظة على خطر الخطير .

قال : وجلست فى النيابة عنه . على الكره منه . وكان احترامه للوزير لا تبجيلاً . بل تدفيعاً للوقت به وتأجيلا . فأجلسنى فى الديوان مكرّماً . وعلى الصدور مقدّما . لكن الوزير اعتقد انّى للسلطان عليه عينٌ . فهو يستثقلنى كأنّى ممن له قِبله ثأرٌ أو دَيْنٌ . وكانت صحبته لى على مَضَض . وصحة ملقاه لى عن مَرَض . وصدور الديوان عن يمينه ويساره . مؤثرون لايثاره . يبدون لى بشرى . ويضمرون لى شرّاً . واتفقت كلمتهم مع افتراق طبائعهم على مضادّتى . واعتقدوا حصول محابّهم في محادّتى . فما اشتريت بشعيرتين سبالهم . ولا شغلت بالى بما شغلوا به بالهم . ولما عجزوا عن ايقاعى فى مصايد المكايد . شرعوا في تعويق الرسوم والفوائد . وتوقفوا فى توجيه واجباتى من الديوان . وتوافقوا على قطع ما أطلق لى من صلات السلطان . فكنت أتسلى بقول القائل

إنّ للّه غير مرعاك مرعى نرتعيه وغير مائك ما
إن للّه بالبرية لطفاً سبق الامهات والآبا

قال : ولم أخل من قصد الجماعة في نوبتي الوزارتين الضيائية والخطيرية . وما زالت تأتى منهم قوارض الاذية . وكان بين الوزير الخطير وبين المعين المختص مناوشة ومناواة . ومواحشة ومنافاة . وما كان يقدر أحدهما مع المبالغة فى قصد صاحبه ان يبلغ فيه غرضه . وكانما يخفى مرضه ومضضه . حتى مال الوزير الى كمال الملك السُّميرمىّ فصار بينهما موازرة فى أمر المعين .

ومشورة في تكدير ذلك المعين حتى بلغ فيه ماعناه . والخصي يفتخر بربّ مولاه (وسيأتى شرح ذلك فى موضعه) وتوفى الامير العميد الطغرائيّ فى وزارة الخطير . وخمد شررُ شره المستطير . وجلس مكانه في ديوان الطغراء . وصدر الانشاء . الاستاذ أبو اسماعيل الكاتب الاصفهانى وكان ذا فضل غزير . وأدب كثير . وكان في حياة الامير العميد منشئاً على سبيل النيابة عن الطغراء . ثم تولاه بالاصالة متصدرا فى دست العلاء . وكان مع ذلك بطئ القلم كليله . ملتاث الخط عليله . وهتف به أبو طاهر الخاتونى فى نظمه . وسلط سفه الهجاء على حلمه . وأشار الى القلم فى يده وقال كأنه وهو يجره برجله . مذنب يعاقبه بجرمه . وكانت بديهته ابية . ورويته روية محبية . فاذا أنشأ تروى بطيأً . وتفكر ملياً . وغاص فى بحر خاطره ثم أتي بالمعانى البديعة . والاستعارات الغريبة . وسنذكر أحواله فيما بعد . وحال الوزير الخطير لما خانه السعد .

﴿ ذكر تولى كمال الملك عليّ السميرميّ أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه وابتداء أمره ﴾

قال : كان كمال الملك عليّ بن أحمد من مدينة تقرب أصفهان يقال لها سميرم أهلها ذوو فطرة زكية . وفطنة ذكية . وكانت هذه المدينة فى معيشة كهرخاتون زوجة السلطان وأبو كمال الملك زارع غلاتها . وقابض ارتفاعاتها

ووزيرها حينئذ الامير العميد والكمال لسبب شغل والده وانجاح مقاصده متردّدٌ اليه متودّدٌ . ومتصدّ لاموره مسدّدٌ . فاستجلاه واستجلده . واستكفاه وأحمده . واستنابه فى خاصّة حين استبان نصحه. واستوضح فى ليالى نوائبه بالنجح صبحهُ . فوفر ماله . وثمّر حاله . وجعل له فى العيون هيبةً . وفى الصدور رهبةً . فبقى الامير العميد لايعتمد فى أموره الا عليه . ولا يسكُن الا اليه . فلما اتفق مسير الامير العميد الى بغداد فى تولى العمارة لم يكن له بد من اقامة نائب فى وزارة كهر خاتون يلازم الدركاه . ويقيم له بخدمته عنه الاسم والجاه . فرأى ان الكمال أوفق وأوثق . وأشفى لصدره فى التصدر وأشفق . فاستنابه على انه لايستعين فيما ينوبه الا بالعزيز . وكان العزيز ابو نصر احمد بن حامد رحمه الله عمّى اول ماشبّ ومضى فى البلاغة شباه . وعقِدَ بحب العلى حبُاه . وصرّف البراعة بنانَه . وعرّف البراعة بيانَه . وهو فى الديوان الخاتونىّ نائب على الاصل بحكم . وشابٌّ عند عند مشايخ صدور يجهلون ما يعلم . فلما تولى الكمال نيابة وزارة كهر خاتون انضم اليه العزيز فضم نشره . وحسّن أثره . وأرشده ودبره

وكان الديوان الخاتونى فى الوزارة العميدية خاملا خامداً ما له غير رواتب موظفة . ووظائف مرتبة . ومعايش مرسومة . وعوائد معلومة . ليس لنوابه فى غيرها أمرٌ ولا نهىٌ . ولا لورّاده من سواها شِربٌ ولا ريّ . وخاتون راضية بالهدوّ . متغاضية عن النُّموّ . فعرّفها الكمال ما فى الخمول من ذهاب رونق السلطنة . وعزل ولاية القدرة المتمكنة . وكانت هى ابنة الملك اسماعيل البغانىّ من آذربيجان . وكان كبير الشان . فقال لها « قولى للسلطان ان اجناد آذربيجان من صنائع والدى وأشياعه . وهم صاروا متبوعين فقد كانوا

أمس من أتباعه . وأريد ان تكتب منشوراً بانهم فى اهتمامى . وان امر معايشهم يبرم بابرامى » فأجاب السلطان سؤالها . وكتب لها مثالها . فسيرت الكتب السلطانية . وأمر بخدمتها الامراء الآذربيجانية . فتبادروا الى بابها بتقبيل العتبة . وتأميل المرتبة . ووصلوا بالهدايا والتحف . والالطاف والطرف . وازدحمت على بابها وفود الملوك . واتسق الى قصدها سلك الفج المسلوك . فرأت من الدولة شيئاً ما رأت . ورعت من الدولة روضاً ما رعت . فتبركت بموضع كمال الملك . وسمع الامير العميد بان نائبه قد جاءه الجاه . وقبلت يديه الشفاه . فقام وقعد . وابرق وارعد . وكتب بصرفه . والغض من طرفه . ومطالبته بفرعه . وعمل الحساب ورفعه . فلم تلتفت الخاتون الى قوله في كتابه . ولم تكترث بخطابه . وكتبت « ان هذا النائب عندى مرضيّ . وحقه مرعيّ . فما لك ان تصرفه . بل عليك ان تعرّفه . وتعرف له حقه وتنصفه . وهو ان حاققته فليس لك بنائب وانما هو شريك . وان امرنا بالانكار ان قُصِدَ منك أو شيكَ وشيكٌ . وأنت تعلم أيها العميد ان دور الحرم . مبرمة لها معاقد العصم . محكمة لها قواعد العظم . فما يجوز ان يتولاها فى كل قريب غريب . وما يحسن ان يتجدد فى كل حين لها مستناب ومستنيب . وهذا عرفناه بك فالاولى ان تبقيه . والا بقى لجاهك ان توليه »

فعرف الامير العميد ان الامر خرج عن يده فجدد للكمال بشغله منشورا . وطوى من شره فيه ما كان منشورا . وكتب الى خاتون « أن الآن قد قوى أملي حيث مكنت نائبي . وعرفت صحبة صاحبي . وانى ما أردت صرفه وانما أردت تهذيبه . ورمت تجربيه . وقد وفرت عليه ثلث الرسوم . وأشركته معي في أصل الفرع المعلوم » فاستقل الكمال واستمر مريره .

وثاب سروه وثبت سريره . وبقى كذلك متولياً مستولياً . ومتغلباً مستعلياً الى ان قضى الامير العميد نحبه فسولته وزارتها بالاصالة . وخصته بالايالة . ثم تعصبت له عند السلطان حتى ولته إشراف المملكة فدانت له الامم . وأطاف به الحشم والخدم . وصار السلطان يكتب اليه خطه . ويطلعه على حالتى رضاه وسخطه . ثم شوش على أرباب المناصب قلب السلطان حتى تغير رأيه فى وزيره الخطير . وردّ ورده الى التكدير . ونقله من بنى جنسه الى بناء سجنه . ومن مجلس عزه الى محبس عزله . وسلمه الى الامير الحاجب عمر ابن قراتكين ليخرجه ويستخرجه . وليروج ماله ويورجه . قال : ونظم أبو طاهر الخاتونى بيتين فارسيين عربتهما وقلت

كان حماراً وزيرنا ومضى فما بملك السلطان من خلل
لكنما فى صدور دولتنا ليس لذاك الحمار من بدل

وكان شمس الملك عثمان ممن نظام الملك قد بقى فى حبس الوزير سبع سنين فأفرج عنه ليواقف الوزير على أوزاره . ويقرب خطى الخطر الى اخطاره فكان حبس ذلك لهذا فرجا . ودخوله فى المحبس له مخرجاً . وجمع السلطان أمراء دولته وأرباب دوانه وفاوضهم فى وزير يفوض اليه وزارته

قال انوشروان : فأجمعوا على ان اكون المتكلم عنهم بالصواب . والمبلغ للخطاب . وكان رأيى مائلا الى مثل ماحكى عن المعتضد . انه كان قد حُرّض على عبيدالله بن سليمان وسُعى عنده عليه . وكان يقول « اذا فكرت فيما ينتقض من التدبير . ويضيع من الامور بين صرف وزير وتقليد وزير . وان كان المتقلد اكفى اضربت عن نكبته » فاتفقوا ان اكون الناظر فى الامور . ومتقلد مصالح الجمهور . ومنفذ الاوامر . وجامع شمل الاكابر والاصاغر . وان

المنشئ والمشرف يكفيان بخطى وتمثيلى . ويتأثلان فى شغلهما بتأبيلى . حتي يُقْضى كل مهم . ويُقْصى كل ملم . وبقيت الرعية مرعية . والسيرة رضية مرضية . والدهماء ساكنه . والغبراء آمنة . وطال حبس الوزير تلك المدة . ولقى الشدة . وكان خلّف الزمان رجلين من أولاد الكافى من بقايا السيوف . وزوايا الحتوف . فحبسهما السلطان معه وأختهما التى كانت زوجة الوزير على مائة وخمسين الف دينار . وسامهم في تلك المصادرة كل خسار وصغار . وباح السلطان بما كان يُضمره من أمر الوزير ولا يظهره . وكشف الغطاء عما كان يستره . والزمه بتطليق زوجته ابنة الكافي . ورماه من مفارقتها بثالثة الاثافى .

قال : وكانت الدولة السلطانية قد شارفت انقضابها وانقضاءها . وقارب خطو انتهاضها . لما قاربت انتهاءها . وبدأ بالسلطان مرض طويل اضناه وأنحله . وألهاه عن المملكة وأشغله . ووقع الفناء فى أمراء دولته . وأكابر مملكته . وبقى السلطان من مرضه فى ذوب . ومن عيشه فى كدر وشوب . فأراد أن يولى وزيراً يوصي اليه بولى عهده . ويستكفى به مهام الدولة حيث علم أنه لا يستقل بها من يقوم من بعده .

ذكر وزارة ربيب الدولة ابى منصور ابن الوزير ابى شجاع رحمه الله

قال عماد الدين رحمه الله : ذكر والدى أن أرباب المناصب لما عرفوا ميل السلطان الى تولية وزير يكفى المهام . ويحفظ النظام . ويكفل الامور العظام . خافوا من استنامته الى بطل بطاش . ومستجيش بثبات جأش . وانهم يبلون إما بذى حنق عليهم . وإما بذي فرق منهم فيدب كيده اليهم . فحسّنوا للسلطان طلب وزير من تربية دار الخلافة فانه ليس بالحضرة من يصلح لهذا المنصب . فاستدعى ربيب الدولة من بغداد الى اصفهان . وسدّ به المكان . فصار له اسم الوزارة بالوراثة . وكان لائقاً بتلك الدولة المريضة الملتاثة . وكانت علامته الحمد لله على النعم

قال : قال انوشروان وكان قد بقى من أيام عمر السلطان مقدار اربعين خمسين يوما وقد استحصد زرعه . وانتسخ شرعه . فجاءوا بهذا الصنم ودسوه فى الدست . وقصدوا بترتيبه شغل الوقت . واتفق موت الكفاة . وضمهم حبل الوفاة . وتناثروا تناثر ورق الخريف . وتفرقوا تفرق سحاب المصيف . ولم يبق فى تلك المدة اليسيرة من المعروفين كبير موصوف . ولا من الامراء الاكابر معروف . فصار الاتباع اصولا . والاقطاع نصولا . والدراريّ شموساً . والاذناب رؤوساً . ولم يبق في الدولة من القدماء الا مختص الملك المستوفى . والاستاذ ابو اسماعيل الطغرائيّ . فاما المختص فانهم عزلوه واعتقلوه وقرروا عليه خمسين الف دينار للخزانة ثم أخذوا خطه بأنه لا يخطب ما عاش

عملا . ولا يستنجح ما طال أمد عمره أملا . وخلّوا سبيله وما خلوا له الى ثروة سبيلا . وأخذوا ما كان له فلم يتركوا له كثيراً ولا قليلا . فأفلت بجريعة الذقن . وعدّ سلامته من المنح في تلك المحن . فتولى ديوان الاستيفاء كمال الملك السميرمي وعلا منه الامر . وحلا له المر . واستقل واستقام . وسما وسام . ورمى ورام . والوزير هينٌ لينٌ . وعجزه عن البطش بينٌ . وكمال الملك فارس ذلك الميدان . وحاكم ذلك الديوان .

وأما الاستاذ ابو اسماعيل الطغرائي فانهم لما لم يروا في فضله مطعناً . ولا على علمه من القدح مكمناً . اشاعوا بينهم انه ساحر . وانه في السحر عن ساعد الحذق حاسر . وان مرض السلطان ربما كان بسحره . وانه ان لم يُصرَف عن تصرفه فلا أمن من أمره . فبطلوه وعطلوه . واعتزلوه وعزلوه . وعاد الخطير الذي كان وزيراً بعد الطغراء خطه . ولم يضره عن درجة الوزارة حطه وكان قد خلا دركاه السلطان من الامراء والكبراء فانه كان شغلهم بحصار قلعة ألَمُوت مع الامير الكبير . انوشتكين شركير . ولقد كان شهماً شديداً . وسهماً سديداً . وسما ذعافا على العدو . وموتاً زؤاما على أهل الالحاد والعتوّ ولولا موت السلطان لتسلط على ألَمُوت . ولم يترك فرصة فتحها ان تفوت . وهو في ذلك لها حاصرٌ . والله له ناصرٌ . فصير السلطان عليّ ابن عمر حاجبه الكبير . وأسمى مكانه الاثير . وكان أمير البار يعني أمير الاذن وأمير البار هو الآذن عن السلطان اذا اجتمع الاكابر . والامير الحاجب الكبير هو الذى يسمع مشافهة السلطان ويؤديها الى الوزير فهو الناهي الآمر

قال : ولما مضى شهر اشتد مرض السلطان وبلغ الرجاء فيه اليأس . ووجد بالعدم الاحساس . وأصبح يعد الانفاس . وأمر بالحجاب وحجب عن الامراء.

وأيقن ان القدر لا يرعى له زمام ما بقي من الدماء . ولم يكن يدخل اليه الا الامير الحاجب علي بن عمر بن سرمة فهو الذي يسمع كلامه . وينفذ بالتبليغ احكامه . وسمى حديثه وصية وجعل نفسه وصيا . وعد مصدقه مطيعاً والمستريب برأيه الرائب عصيا . وللمقرب الاجل . وحل الوجل. ذكر الامير الحاجب ان السلطان أمر باخراج مائتي الف دينار من الخزانة لارضاء الخصوم واشكائهم . والاستحلال من فقراء الرعايا وأغنيائهم . فتسلم ذلك المال وقبضه . وتصرف فيه على ما وافق غرضه . وكان وزير الامير الحاجب الكبير حينئذ أبو القاسم الدركزيني ويلقب بزين الدين . فمن ذلك المال تموّل . واستكثر العبيد والخول . وكان ذلك مبدأ غناه . وريعان نجح مناه. وأمر العسكر بمبايعة ولي العهد ومتابعته . وطاعته ومشايعته . وانه لابد من جلوته على السرير واجلاسه . ووقوف الامراء على رأسه . وقيل للسلطان مرضك سحريٌّ . ومضضك خفيٌّ . وانما سحرتك زوجتك فاعضل دواءك . وحملوا السلطان على ان كحلها وسملها . وحبسها في بيت ضيق واعتقلها . وأتلف عدة من حواشيها . وعصابة من جواريها . ثم أخرجوا خاتم السلطان وقالوا انه أمر بخنقها . ودخل اليها من شد الوتر في حلقها . ومن عجيب القدر ومقدور العجب . ان الزوجين توافيا ساعة واحدة على العطب . فالخاتون في بيتها خنقت . والسلطان على فراشه نفسه زهقت . وذلك في أواخر سنة ٥١١ وقد كانت أيامه أيامن للايامى . ومراحم لليتامى . ورسومه جائزة غير جائرة . وأحكامه راضية غير ضائرة . وحصاه رصينا . وحجاه رزينا . ودينه متينا . وشرع علمه في العمل بالشرع مبينا. وكان رجل السلقجية الكامل . وحلمهم البازل . وله الآثار الحميدة . والآراء السديدة . ولما حسنت سيرته . وكملت

دولته . وأصحت سماؤه . وطاب هواؤه . وصفا ماؤه . وآلت آلاؤه . أن يغني الفقير ويجبر الكسير . ويفك قلاع الاسير . ويكف العسير . وينصر الاسلام . ويكشف الاظلام . ويقلع الملحدين . ويعلي اعلام الموحدين . قبض القضاء يده وقصر أمله وأمده . وغيض بحره . وغيب بدر .

بين الصفائح والثرى ريحانة قد كان لي من قربها مستمتع
واذا تذكرت الذى فعل البلى بجمال وجهك جاء مالا يدفع

قال : وتوفى أمير المؤمنين المستظهر بالله رضى الله عنه بعد وفاة السلطان محمد رحمه الله بمدة يسيرة وتحولت الدولتان . وتفصلت الجملتان . وخلف السلطان محمد خمسة بنين وهم محمود ومسعود وطغرل وسليمان وسلجق وكل منهم تولى السلطنة سوى سلجق وسيأتى ذكرهم فيما بعد ان شاء الله تعالى

ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا والدين أبى القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين

قال : فجلس على التخت مكان والده . واستقر من الملك فى أعلى وسائده . وأحكم قواعده . وحضر الناس على طبقاتهم للهناء . وجلوه في دست السنا والسناء . وقبلوا الارض . وأدوا من اقامة الرسم الفرض . ووقف العظماء والكبراء سماطين على ترتيب اقدارهم وقدر مراتبهم . وتناسقوا على درجاتهم فى مراقى مراتبهم .

قال أنوشروان : وتقدم الوزير الربيب وصعد الى السرير للتهنئة وتقبيل اليد ونزل وتقدم الخطير بحكم انه كان وزيراً يفعل مثل مافعل. وكان على كل حال للشيخوخة والتقدمة يستحق ان يقدم ويجل. فزاحمه الكمال السميرمي وأخره وتقدمه. ولم يعرف سابقته وخدمته للدولة وقدمه. فاقام الخطير رسم التهنئة بعده. ولزم كل منهم فى ذلك المقام حده. وأنا أيضاً أقمت رسم التهنئة. ووفيت حق التوفية. وكان السلطان حينئذ فى سن الحلم. متوقد الذكاء كالنار فوق العلم. مشرقا وجهه مع صغر سنه بسناء العظم.

وفى ابتداء هذه الدولة انتقلت الخلافة الى أمير المؤمنين المسترشد بالله ابن المستظهر بالله رضي الله عنهما وبويع له وجدد تقليد السلطان على الشرائط المشروعة. والرسوم الموضوعة واجتمع أرباب الدولة السلطانية واصطلحوا على التحالف وتحالفوا على الصلاح. وأجالوا بينهم فى مظاهرة البعض للبعض ضرب القداح. وكان أبو القاسم الانساباذى الدركزينى وزير الامير الحاجب على بار فصار يلقن مخدومه ويفهده. ويدله على طرق الضلال ويريه انه يرشده. ويقول ان الوزير والمستوفى ينبغي ان يكونا بحكمك. وهذا السلطان صغير ينبغي ان يكون تحت حجرك. ولا يأمر الا بأمرك. فادخل فى رأسه مالم يخرجه منه فى آخر الامر الا السيف. فأول مادبر انه ذكر للسلطان ان صلاح دولته فى افساد عمه. وانه يغلب على دولته برغمه. وكان عمه سنجر السلطان الاعظم عماد آل سلجق وسلطنته ببلاد خراسان الى العراق الى ماوراء النهر الى غزنة وخوارزم والترك قد عمت ونمت. ودولته قد علت وسمت. وهو شيخ البيت وعظيمه. وحافظ عزه ومديمه. فاحضروا الشهاب أسعد كاتب الانشاء وأمروه ان يكتب الى خان سمرقند

وقالوا له انا نقصد السلطان سنجر وهو لاشك يتوجه الينا اذا توجهنا للقائه والرأى ان تأتى أنت من ورائه . فيقع الخصم فى الوسط ويحصل فى التورّط. وكان هـذا الرأى الفائل . أول ماأدب الادبار وأهب دبوره . ومحا من الاقبال حبره وأذهب حبوره . ومن جملة تدبيراتهم المدبرة أيضاً ان الامير ملك العرب دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علىّ بن مزيد الاسدي كان مقيما فى خدمة السلطان منذ عشر سنين وقد سلا عن بلده وقنع بما فى يده . ورضى من السلطان بالرضى . وانقضي طمعه فى ملك ابيه الذي انقضى . وبلاد الحلة والولايات فى تصرف نواب السلطان والامير المجاهد بهروز الخادم الخصى نائب السلطان ببغداد والرعايا آمنة والاذايا مأمونة . والنعم راهنة والذمم بشكرها مرهونة . فبدلوا تلك القواعد وحلوا تلك المعاقد . وارتشوا من الامير دبيس وأعادوه الى العراق . فقامت الحرب على ساق . وكتبوا ملطفة بالقبض على بهروز . ومحاسبته واستخراج سرّ غناء المرموز . وكل هذا عاد بالفساد و فسد العوائد . وأفاد التمحيق ومحق الفوائد . والمفسدة الثالثة ان بلاد فارس كانت على أحسن نظام وأوفق مرام . وطاعتها شائعة . وشيعتها طائعة . والبذول فيها حاصلة . والحمول منها متواصلة . واتفق فى ذلك الوقت ان عاملها كان حاضراً بأصفهان فأشار الدركزيني على مخدومه بالقبض على العامل . ومطالبته بالحاصل . فأخذه وعذبه . وماصدقه ان المال بعدُ معدٌّ بفارس بل كذبه . فلما نمى الخبر الى أمير فارس طمع فى المال وكان مبلغاً وافراً وضنّ برده واستوحش . وجاهر بالعصيان وأفحش . وكان للسلطان جشران بتلك البلاد فاستاقها . وأذخار فاعتاقها . فاختلّ نظام الولايات الفارسية بتلك الآراب السيئة والاراء المسيئة

والمفسدة الرابعة ان جماعة كانوا مقيمين فى الخدمة من أمراء مازندران وأمراء الشبانكارية وهم جيل من جنس الاكراد فى جانب بلاد فارس . بلادهم ممتنعة . وقلاعهم مرتفعة . وكان السلطان الماضى قد الف قلوبهم باحسانه . وقادهم باليد الى سلطانه . لانه كانت الطرق منهم مخوفة . والفرقة منهم مألوفة. فأساء الدركزينى وصاحبه ومن وازرهما اليهم فاشتطوا عليهم. فنفروا وعادوا الى حصونهم . فاظهروا من الشر ما كان كمن . وحركوا من الفتنة ما كان سكن

والمفسدة الخامسة انه لم يخلف أحد من السلجقية ماخلفه السلطان محمد من العين والاثاث فتصرفوا فيه وتقاسموا به وفرغوا الخزانة من العين . فى أقرب من شهرين . فلما ذهب الذهب فضوا ختم الفضة وفضوها . واستخرجوا وجوه المعاملات الرابحة واستنضّوها .ثم تصرفوا فى المصوغات من الحلى والاوانى والآلات . ثم في الجواهر ثم فى الثياب . ثم فى الخيل المسومة العراب . ثم فى الجمال ولم يبقوا شيئاً حتى تفرقوا بأغنام النتاج . وتقاسموا بالكباش منها والنعاج . فصيروا الملك الآهل قفراً . وأضعفوا بعد الغنى فقاره فقراً .

والمفسدة السادسة انهم قالوا ان هؤلاء مماليك السلطان لايطيبوا بطاعتنا نفساً .ولا يجدون بمتابعتنا أنساً . فاحتالوا في شت شملهم وراموا كل سهم منهم الى هدف .وكل شهم منهم الى طرف.

والمفسدة السابعة وهى المفسدة الكبرى ان العساكر التى كانت مشغولة بحصار ألمَوُت وقد شارفت فتحها . وشاهدت نجحها . شرع الدركزينى فى تفريقها لميله الى الملاحدة . ووعده لهم بالمساعدة . وأخذ

رخصة فى قبض الامير الكبير انوشتكين شىر كير وهو أمير ذلك العسكر فرحلوا عن الحصار بغير ترتيب وتبعهم أهل المَوْت فقتلوا خلقاً . وذهب الباقون غربا وشرقا . ونقلوا الى القلعة من العدد الكثيرة والازواد والميرة . ماتزيد قيمته على مائتى الف دينار . ووصل الامير الكبير كُنْدُغدي الى الباب . وكان عظيما من أولى الالباب . فولوه اتابكية الملك طغرل أخى السلطان ثم حذروا السلطان منه فخاف كندغدي على نفسه وعلى ملكه فادلج به ساريا . وذهب متواريا . فلم يحوهما بعد ذلك دار . وصار من ذلك للقلب اشتغال . ولنار الفتنة اشتعال

والمفسدة الثامنة ان الامير قراجه الساقى سلموا اليه الملك سلجق أخا السلطان وولوه بلاد فارس فلما سمع الامير قيصر بقدومه وكانوا قد ولوه فارس من قبل هرب وحصل عند السلطان سنجر بخراسان وهو موتور . ونفث شكاويه التى هو بها مصدور

والمفسدة التاسعة انه كان للسلطان مماليك صغار . كأنهم اقمار . وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء . وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء . فاخذ كل واحد منهم عدة واقتسموا بالغلمان الروق . وأقاموا ألف سوق للفسوق

والمفسدة العاشرة أنهم أخرجوا الجوارى المطربات . والاماء المغنيات . من دور الحرم الى دورهم . وآثروا حضورهن مجالس حضورهم . وركبوا فى الفسق كل مركب . وذهبوا فى الخزى كل مذهب . وتسلطوا على السلطان واجترؤا عليه بما اجترحوه . وتمشى لهم بصبوته كل ما اقترحوه

قال أنوشروان : ذكر لى انه لما توفى السلطان محمد دخل الامير علىّ

بار الى خزانته فاخذ صناديق الجواهر النفيسة واليواقيت الثمينة فاودعها عند وزيره الدركزيني فلما قتل على ما سنذكره حصل بها ولم يسأل أحد عنها

قال عماد الدين : وأذكر طرفا من هذا الانساباذيّ وأنسباذ ضيعة من أقليم الأعلَم قريبة من دَرْكَزين فنسب نفسه الى دركزين لانها أكبر قرى تلك الولاية . ومعظم أهلها أهل الاباحة والغواية . وأكثرهم من المزدكية الخرمية . وشرهم شائع فى البرية . وكان أبوه فلاحا منهم فجاء به الى أصفهان وعلمه الخط . والجرأة والخبط . ومازال مخالطا للمتصرفين غُمْراً ذا غِمْرٍ . ووِتراً فى الشر أخا وتر . ما أحسن اليه أحد الا قتله . وما آوى الى جبل الازلزله . وأول من استخدمه بين يديه كمال الملك السميرميّ وعمّى العزيز فلقى كلا منهما الامرّين . وقابل بالاساءة منهما الحسنين .

قال : وجرى وزير الوقت على تلك القاعدة فى الافساد . ولم يرى مخالفتهم على المراد . وكان من خرقه وخرق أصحابه انهم جعلوا خطاب الامير على بار بوصى السلطان وسيروه أخص ألقابه فانه ألزمهم بذلك وقال يجب ان ألقب به وعزلوا الخطير من شغل الطغراء وناطوا به وزارة الملك سلجق المندوب الى فارس مع الامير قراجه الساقى . ومقصودهم ان يبعدوه عن الدركاه فلا يقع منهم له التلاقي . وفى كل ماعملوه لم يستطلعوا رأى السلطان ولا استأذنوه . وحقروه واستضعفوه . وتواترت أخبار هذه الفضائح . وتواصلت أثناء هذه القبائح . فاتحى السلطان سنجر لبيته الذى شرعوا فى هدمه . وتحركت على ابن الاخ الشفيق الشقيق شفقة عمه .

ذكر وصول السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم
معز الدنيا والدين أبي الحرث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين
(من خراسان الى حدود العراق وظفره وعفوه وعوده)

قال : فانتهى الى هذا السلطان العادل . الكامل الشامل . المحبوب الشمائل . ان أمر ابن أخيه محمود غير محمود . وان ملكه ان لم يتلاف مؤد الى التلاف مؤود . فصوب رايته صوب الريّ . ونشر لواءه ليعيد اللأواء الى الطي . وكان كالشمس أضاءت من مشرقها . وأنارت من أفقها . فلما أطل عسكره على العراق . وسد عثيره جوانب الآفاق . برز السلطان محمود سرادقه . وعرض فيالقه . ولم يغب أحد فى تلك النوبة من العساكر . وتلاطمت أمواج بحارها الزواخر . وكان مقدمي عسكر السلطان الاميران الاصفهسلاران عليّ بار ومنكوبرس وبينهما تباين . وتضاد وتضاغن . فلاجرم لاختلاف رأيهما . واختلاط أهوائهما لم يستقم تدبير . ولم يتدبر تقويم . ولم يتضح فى المصلحة تأخير ولا تقديم . ودرج الوزير الربيب في تلك الايام . وسكن فى حمى الحمام . وتولى الوزارة كمال الملك أبو الحسن عليّ بن أحمد السميرمي وذلك فى سنة ٥١٢ وذلك قبل المصاف بين السلطانين بثلاثة أيام وجرى أمره على نظام . فى غير وقت انتظام . وكان العسكران مشغولين بالتعبية فلما التقى الجمعان . واختلط النقعان . انهزم عسكر محمود وكسر جيشه . وانكسر جأشه . ولما ضل عن النار فراشه . ظل كأنما على النار فراشه . وقتل

فى المعركة جماعة مبرأون. وسلم المجرمون. فلما أصبح السلطان سنجر سأل عن ولد أخيه. ولم يحمد ما كان من تأخره عن حضرته وتراخيه. فارسل اليه رسولا لقبض زعره. وبسط عذره. وانه يؤثر حفظ قلبه والانس بقربه وتنفيس كربه. وانه يتدارك ما فرط بالتلافى. وانه يتم التقصى عن عهدة تلك الهنات بالتصافى. فاستخر الله ولا تستأخر. واستأثر لقاء من على لقائك لم يستأثر.

وكان أحاط أولئك المذمومون بالسلطان محمود لا يهدونه الى الصواب ولا يصوبونه الى الهدى. ويصدون عنه رى الرى ولا يروون منه الصدى. وكان قدسبق أبو القاسم الدركزينى صاحب الامير على بار الاعظمى لحضر لاصلاح أمر صاحبه وأحضر قدراً من المال الذى اختزله من الخزانة السلطانية فنثره وبذره. وقدم الرشى حتى أمن ماحذره. وأراد أن يكون هو المتوسط فى الصلح والصلاح. والمتحدث فى الانجاز والانجاح. وكان السلطان يؤثر أن لايطول مقامه فتثقل وطأته. وتكثر مضرته. ولم ير أن يترك البيت متداعى البنيان غير معمود. ويريد الانصراف راشدا وقد طالت عليه غيبة محمود. وما صدق بحضور الدركزينى على بابه. وظن انه قد حصل من النجح على لبابه. فأمر باحضاره فلما بصر به قال «اين على بار فانه لامر ولدى ضمين» فتلا «انا آتيك به قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ» قال «فاين ولدي» قال «أنا آتيك به قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ وانه يسعه عَطْفُك وعُرْفك» فندبه الى اصفهان لاحضارهم. وأجري الامور على ايثارهم. فبلغ الوزير كمال الملك السميرمي انس الدركزيني بالحضرة السنجرية وانه واصل بالجرأة. فسبق بالرأى ورأى

السبق . وأن يكون هو الذى يتولى بالرّتق والفتق . فقال للسلطان « هـذا عمّك فى مقام والدك وله عليك حقوقٌ . وعصيانه عقوق . ومن حسن الادب استعطافه . واستجداد رضاه واستئنافه . وانا امضى اليـه لامضاء الاليّة . وارضائه بالكلية » وخاف انه ان وصل الدركزينيّ يصير الامير عليّ بار للامر متولياً . ويبقى هو عن الشغل متخلياً . وانه يصير تابعاً . وماءه غائضاً . وماء جاه الدركزيني نابعاً . فتوجـه الى الرىّ . من جيّ . وقطع الطريق بالنشر والطىّ . ولقى الدركزينىّ فى طريقه . وأخبره بتوثقه من السلطان سنجر وتوثيقه . فلم يعرج على تصديقه . وقال له « اني قد قضيت الشغل فلا تتعب . وعرفتهم زهدنا فلا ترغب . فاجتهد بكل طريق فى اعادته عن طريقه » فما التفت ولا اكترث . وأغذ السير وما لبث . فمضى الخبر الى السلطان سنجر بأن الوزير كمال الملك قد قدم . وان ابن اخيك أرسله اليك للعذر لما ندم . فسرّ بذلك وأمر الامراء باستقباله . واحتفل فى حفله لتوفير اقباله . وأبصر الوزير من تعظيم خطره ما لم يخطر بباله . فحبط عمل وزير عليّ بار وبار . وانهدم كل ما كان بناه وانهار . وأخذ يد السلطان على شـد أواخيه . لابن أخيه . واعلمه بارادة الوفاق وتوخيه . واستوثق منه فى كل ما استوقفه . واستدرك بالروية فى الرأى كل ما فاته واستلحقه . وأقام الوزير وسير الى سلطانه من عنده رسولا يستدعيه ويستحثه . ويعلمه ان عمه لانتظاره اطال مقامه ولبثه . فأقبل محمود الى وزيره حامداً . والى عمه وافداً . فأكرم وفادته . وأنجح ارادته . ولم يجد عليّ بار بداً من الاتباع . وحضر ضيق الذرع قصير الباع . وخرّ لتقبيل الترب . واعترف بالذنب . فأبدى له السلطان الرحيم صفحة الصفح . ومنحه العفو وأعفاه عن المنح . ثم اجتمع كمال الملك

وعليّ بار ووزيره . على ما يتم به تقرير أمر السلطان محمود وتدبيره . وأنه يجب ان يترك رسم السلطنة احتراماً لعمه . وأن يكون مدة مقامه عنده بحكمه . وذلك انه اذا استقبل بجنيب السلطان يركبه ليحسن أدبه . وانه ينتقل من نوبتيه الحمراء . نوبتية بيضاء فى سوداء . وانه يأمر بابطال ضرب طبله . ما دام فى ظله . وانه اذا دخل على عمه قبّل الارض وانه يقوم عنده على قدمه وانه يمشى فى ركاب عمه راجلا من الباركاه الى السرادق . وانه لا ينفرد عن عمه بسرادق . بل ينزل فى جوار خيمه . وفى موضع أولاده وحرمه . وأن يبقى عشرين يوماً على هذه القاعد ليستعطف عمه فى عود مراضيه المتباعدة

قال : وكان من حلم سنجر انه يُغْضى عمن يغضب . ويجدى على من يجدب . فصفح عن كبائر ذنوبهم . بعد ما تصفح سرائر قلوبهم . وأفاض عليهم الخلع . واصطفى كلا واصطنع . وكتب منشوراً للوزير كمال الملك بتقريره على الوزارة . ومنشوراً لعليّ بار بتمكينه فى الامارة . ومنشوراً لابى القاسم الدركزينيّ بمنصب الطغراء والانشاء . ثم انهم طلبوا من السلطان سنجر خلوة حسّنوا له فيها من سفك الدماء كل قبيح . وأعلّوا عنده كل صحيح . وكان من جملة من ضربت رقابهم الامير منكوبرس وقراتكين القصاب . ثم قفل السلطان سنجر بعساكره الى خراسان . وقرر عليهم ان يبسطوا العدل والاحسان . وعاد الوزير الكمال . وله الأبهة والجلال . والدركزينيّ فى ديوان الطغراء . وشمس الملك بن نظام الملك فى ديوان الاستيفاء

قال : وكان عمّى العزيز فى ذلك الوقت ينوب فى الوزارة والاستيفاء والوزير كمال الملك لا يرجع الا الى كماله . ولا يعوّل الا على اشتغاله . بل السلطان لا يأنس الا به . ولا يصغى الا لخطابه . قال : ولا شك أن انوشروان

صعب عليه انحطاط حظوظه الى الحضيض . وانحراف مزاج شغله للحظ المريض . وعرّض للوزير كمال الملك بابيات غير واقعة فى موقعها . وتمثل بتمثيلات باردة ليست فى موضعها . وكأنه ما سمع للقاضي ابي بكر الارجانيّ فيه قبل ان يلى الوزارة وهو مشرف المملكة قصيدته التي يقول فيها

دع عنك يمني ويسرى غير مجدية　　واقصد أمامك واطلب منتهى السبل

واعلم اذا قلت رد بالعيس بحر ندى　　أنّى على غير عز الدين لم أحل

البحر أسماؤه شتى وأشهرها　　على اصطلاح بنى الآمال كف على

قال عماد الدين رحمه الله : سمعت من والدي رضى الله عنه انه لم يكن فى وزراء الدولة السلجقية أكمل من كمال الملك حزامة . وصرامة وشهامة . وكتبه بالفارسية تدل منه على فضل غزير . وعلم كثير . ومن معانيها تعرف قواعد الوزراء وقوانينها . وهى رياض ناضرة للناظرين ازهارها . فاغمة للمستنشقين بالريّا رياحينها . قال : قال انوشروان فأول ما شرع فيه الوزير كمال الملك من أمر وزارته أنه لما وصل الى أصفهان . تقدم بقراءة منشوره بوزارة العراق من خراسان . ثم دبر فى قتل الامير أحمد بن بغراء وبعث السلطان على الفتك بالامير عليّ بار وأغري . حتى أفلت منه هربا . واتخذ الليل جملا وادلج رهبا . فأركب وراءه من رجّل نفسه عن بدنه . وأخرج روحه من جسده . ووكل بوزيره الدركزيني واعتقله . وهم بان يقتله . قال عماد الدين رحمه الله : قال والدى وكان الدركزينيّ حينئذ صديقى فاستدعاني ولما بصر بى دعا على نفسه بالويل واستجار بي وأخذ منى بالذيل . فقال « أسألك ان تتوسل لى فى أمانى من القتل فقد أيقنت انى مقتول . وان لم تنصرنى فانى لاشك مخذول » فشفعت فى حقه الى أخي عزيز الدين فمازال بالوزير كمال الملك حتى خلصه . وفتح على

ذلك الطائر المشوم قفصه . وكان محبوساً فى موضع سبيل الخلاء فخلى سبيله فقدّر الله ان الشافع فيه بعد عشر سنين كان قتيله . فما عرف والدى ولا عمّى رحمهما الله انهما يسعيان فى قلع البيت بخلاصه . ويحصلان بتيسير أمره على تعسير أمرهما واعتياصه . فقد كان هذا أبو القاسم للدماء سفاكا . وبالكرام فتاكا . وتفرّس فيه الوزير كمال الملك الشر فأراد أن يريح الناس من غائلته وأراد الصحيح فما صح له ما أراد . ومابدا من الدركزينى ما بدامنه لو باد . ولكن القدر لايطاق . والمقدور ما يعاق

وأصلح الوزير بقتل على بار قلوب الجماعة . واستمالهم الى الطاعة . فقد كانت فى نفوسهم منه احن . وتمت عليهم باستيلائه محن . فوجدوا بانزعاجه الثبات . وبقتله الحياة . وتقدم الامير قيصر وترقت درجته . وقامت بالقيام فى الدولة حجته . وارتفع شأن أمراء كانوا متضعين وتحالفوا على طاعة السلطان وترجيح جانبه . والاضراب عن مقاصد عمه سنجر ومطالبه

قال انوشروان : فشرع الوزير فى المصادرات . وسمى ديوانها ديوان المفردات . قال عماد الدين : ولم يكن كما ذكر . ولا على وفق ما أنكر . وانما طالب أصحاب الامير على بار بأمواله . وأمر بمحاسبة عماله . والبحث عن اسبابه وأحواله . وأعاد رونق سلطنة العراق غضاً . وضم من نشرها ما كان منفضاً . وخرج فى خدمة السلطان من اصفهان على عزم بغداذ . وقد حكمه فى الامر وأعطى حكمه النفاذ . ولما قُبض الدركزيني وعُزل ولّى الوزير كمال الملك منصب الطغراء أخاه النصير . وناط به ذلك المنصب الكبير . وكان النصير رصيناً . ثقيل الطبع رزيناً . ولم يكن فيه ما كان فى أخيه الوزير من التلطف . والتطفل على المكارم والتعطف . وكانوا يقولون نعم المولى وبئس النصير .

قال : وفي سنة ٥١٣ جرى بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود مصاف بقرب همذان . وكان النصر فيه للسلطان . وذلك ان الملك مسعود كان مسلّماً الى الامير جَوْشبك وهو آتابكه بالموصل وعسكر الشأم وديار بكر فى خدمته . وهو ينعت فى ملك الغرب لحد مملكته . فجمع آتابك جوشبك جيوشاً كثيرة وجمعا جمّاغفيرا وطمع فى أخذ السلطنة وجعل الاستاذ أبا اسماعيل وهو مؤيد الطغرائيّ وزير مسعود . ولم يعلم انه لا يتمكن فيها من مسّ عود . فعلم السلطان بحشده فجاء فى حشره . وجاء جوشبك بمسعود تحت جتره . ولما اصطف الجمعان . وكاد يلتقى البحران . ويجتمع الصفان . بصر مسعود بأخيه محمد فحن اليه . وضبطه جوشبك فلم يعرج عليه . وصاح ايجى ايجى وهى كلمة بالتركية للاخ الكبير . فتشوش على جوشبك جميع ما قدمه من التدبير . وساق محمود ووقف الى جنب السلطان محمود أخيه . وأسلم للسلب والنهب جميع ما كان معه من جنوده ومواليه . فأول من أُخذ وزيره الاستاذ أبو اسماعيل الطغرائيّ فأُخبر الوزير كمال الملك به فقال للشهاب اسعد وكان طغرائياً فى ذلك الوقت نيابة عن النصير « هذا الرجل ملحد » فقال الوزير « من يكون ملحداً يستحق ان يقتل ظالماً » فقتل ظلماً . وقتل من الفضلاء الاكابر الاستاذ زين الكفاة أبو الفتوح وكان وزير البرسقي فأحسن محمود الى أخيه وأعاده الى عظمته ورتب آخر لاتابكيته وخدمته

قال : وكان من بقية أولاد ملوك الديلم فى الخدمة السلطانية المغيثية الملك عضد الدين علاء الدولة ابو كاليجار كرشاسف بن مؤيّد الدولة عليّ بن شمس الملوك فرامرز بن علاء الدولة وكان من السلطان بمنزلة الاخ . وقد انزله بالمحل الاشمخ . وكان مع ذلك محترزاً من حاسديه فلزم بيته فى مدينة يزد

فما زالوا يحسنون منابه بالباب . ولا يصوبون رأيه بالاغباب . فلما ركن الى ركنهم وركب . وكرب ان يجلو بلقاء السلطان عنه الكرب . جردوا اليه ثلثمائة فارس فاعترضوه . وأخذوه من طريقه وقبضوه . وكان الأمير قيصر تولى بابداء الود اخفاء ختله وختره . فحمله الى قلعة يقال لها فرّزين فاعتقله . وأحكم قيده وثقله . وهي قلعة منيعة . وتلعة رفيعة . تعدها النجوم من اترابها والسماء من أسبابها . فلطف الله به . وأوضح له مذهب مهربه . وذلك انه توسل حتى اشرف على السور . فى جنح الديجور . وألقى بنفسه من المكان العالي . وفعل فعل الآيس من حياته السالى . وسلمه الله حيث لا ترجى السلامة . ونزل نزول الغيث حدرته الغمامة . وتوقل فى تلك العقاب . وتسلل من تلك الشعاب . ووقع الى ولايته . وسر الناس بعود الانس والسرور بعوده الى بلدته . وعلموا أن خطى الخطوب لا تصل فى طورها الى طوده . وكانت عاقبة الامير قيصر انه ضربت ببغداد رقبته . وأودت به فى سبيل العقوبة عقبته

قال انو شروان : وكان الملك فى عهد السلطان محمد مجموعا . وجانبه من الاطماع ممنوعا . فلما صار الى ابنه محمود فرّقوا المجتمع . وضيقوا المتسع . وجعلوا له فيه شركة . ولم يتركوا له منه مسكة . وذلك عند حضور السلطان سنجر فأول ما اقتطعه سنجر لخاصّته ما زَنْدَران وطبرستان وقومس والدامَغان والرىّ وذُباوَنْد وأعمالها وما أفردوه للملك ركن الدين طغرل بن محمد ساره وآبه وسارق وسامان وقزوين وأبهر وزنجان وجيلان والديالم والطالقان . وللملك سلجوق اخيه ولاية فارس بأسرها وشطر من أصفهان من الخوز . وتغلب الامير دبيس بن صدقة بن منصور على البصرة وأعمالها والمضافات اليها من البطائح

وكذلك هيت والانبار وأعمال الفرات والرحبة وعانة وكذلك أعمال الموصل ونصيبين والخابور قد تغلب على كل منها أمير والذى بقى للسلطان أقطع جميعه . ومالحفظ ريعه . وانخفض رفعه . ولما لم يكن للسلطان خاص لم يكن له عمال وبطل الديوان . وتدون البطلان . فانه لم يبق للديوان شغل الا أخذ أموال ذوى اليسار . وإسعار نار الاعسار .

وقال عماد الدين فى ذكر كمال الملك الوزير : وبينا هو وزارته فى ريعانها . وسعادته فى عنفوانها . ودولته فى كمال سلطانها . فلم يشعر حتى عاجله القدر بجاءه فجأة . واستحال فى الحال كل مسرة مساءة . وذلك فى سنة ٥١٥ فان السلطان خرج من بغداد عائدا الى همذان . فتخلف عنه الوزير يوما على انه يتبع فى غد السلطان . فلما بكر ركب وقد رتب الموكب والسيوف بين يديه مسلولة . والغاشية محمولة . فوثب عليه قوم من بعض تلك الدكاكين . وضربوه بالسكاكين . فحمل جريحا . وبقى فى حجرة من غرف السوق طريحا وأحضر من يداويه . واستقل بالجرح آسيه . فلم يحسوا الا برجل قد قفز من السقف . ونزل عليه بمدية الحتف . فاتلف مهجته . ومحا من الزمان بهجته . فتولى عمي العزيز حفظ مخلفيه . وحلم عنهم حد الزمن السفيه . واستشهد وله ولدان أحدهما عضد الدين محمد والآخر فخر الدين محمود فتعصب الولد الكبير ذى الفضل الاوفر . والاعتقاد الانور . والدين المتين . والعلم واليقين . فولاه السلطان أشرف المناصب . وأرفع المراتب . فزهد فى الدنيا مع القدرة . وسلك طريق الانكسار والقناعة بالكسرة . قال عماد الدين : وهو الى اليوم من سنة ٥٧٩ حسن السيرة . صافى السريرة . خشن العيشة . قال للمعيشة . يلبس السمل البالى ويألف المنزل الخالى . ويأمر بالمعروف . ويأخذ بيد الملهوف . ينظر الى الدنيا

بعين العيافة. مقبل على الآخرة والتقوى قد ألبسته شعار المخافة. وتولى أخوه فخر الدين محمود الاعمال الفاخرة الى آخر زمانه. وظهر قدر مكانه. وقدرة امكانه. والعضد الزاهد فيه زاهد. وفي صرف جاهه عنه جاهد. وكان بينهما تضاد. وتباغض في الدنيا لاتواد. وعضد الدين يرجع الى فضل وافر. ووجه عن الحق والحقيقة سافر

قال عماد الدين: عدنا الى ما ذكره أنوشروان

ذكر وزارة شمس الملك بن نظام الملك

أنشد أنوشروان فيه متمثلا

لئيم أتاه اللؤم من عند نفسه ولم يأته من عند أم ولا أب

قال: قال لما صرع الكمال. واتسع المجال. سمت همة شمس الملك لطلب الوزارة. وخطب عروسها مع العجز عن افتراع البكارة. فاجتاب لباسها. وأثارت شمسه من مطلعها. وورد على الظماء البرح عد مشرعها. وتولى عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد منصب الاستيفاء. وقد نضل بالفضل والكفاية جميع الاكفاء. ومن جملة مبتدعاته في الخير انه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستان يحمل آلاته وخيمه وأدويته والاطباء والغلمان والمرضى مائتا بختي ومن جملتها أيضاً انه بني بمحلة العتابيين ببغداد مكتباً للايتام. ووقف عليها وقوفا مستمرة الجدوي على الدوام. والايتام مكفولون منها الى ان يبلغوا الحلم بالنفقة

والكسوة والطعام. وتعلم الآداب وحفظ القرآن . ومعرفة الحلال والحرام وصح له التحكم على الوزير . باحكام التدبير . وتولى ديوان الطغراء والانشاء الشهاب أسعد وكان معلما السلطان فى أيام والده وتنجز حظه انه يوليه الطغراء اذا انتهت اليه السلطنة ولما تولى لم يتغير عليه وبقى الى آخر عهده فى الطغراء. وتولى أبو القاسم الانساباذى ديوان العرض وكان أنوشروان عارضاً وهو غائب. وفى مقامه عنه نائب .

قال أنوشروان: كنت انا قد تخلفت فى بغداد في ذلك الاوان لشغل أقضيه . وأمراً امضيه. فاجتمع هؤلاء القوم واغتنموا غيبتي. وأخذوا باخذي وتعويقي توقيعاً. وشنعوا على عملي وعملوا شنيعاً. وكان مضمون المثال السلطاني ان الامر المطاع أعلاه الله ان أنوشروان ان كان فى حدود بغداد أُلزم بيته بباب المراتب . وسدت عن لقائه طرق الاقارب والاجانب . وإن كان قد وصل الى بلاد الجبل فيقعد في ولاية الامير بُرْسُقْ نقلة كفراش . ويشترط عليه ان لا يطلب المنصب والمعاش . ويحضر مماليكه الى الدركاه لينتقلوا الى الخواص من الامراء . ويحمل ثقلهم عنه مع الانزواء . قال وكان المثال بخط العزيز وقد مدّ الطغراء عليه أسعد وعلامة الوزير فيه أحمد الله على نعمه وتوقيع السلطان اعتصمت بالله وما وجدت من أنسب اليه هذا القصد غير العزيز. فان الآخرين كانوا مسخرين له وهو المتوحد بالتمييز والتبريز . وكتب الوزير بخط كاتبه ان شغل العرض قد فوض الى العميد الاجل الاخزين الدين ظهير الدولة أبي القاسم يعنى الدركزيني فتختم جميع دفاتر العرض وأوراقها وتنفذ حتي سلم اليه

قال : وأنهضوا الى طريقي جماعة من الفرسان لولا اعظام الامر السلطاني

المطاع . لما رعيت حرمة أولئك الرعاع . ولعادوا وحكوا انهم لقوا مني رجلا . ولو ركبوا من الخوف الليل جملا . فامتثلت الامر وسلمت اليهم موجودي وخرجت من مالي كالشعرة من العجين . ووقع الهجان بتوقيع الهجين . وسلمت نفسي الى الحبس . وبقي أمري على اللبس

قال : عدنا الى الحديث عن شمس الملك بن نظام الملك قال: فعاد الملك به الى أدنى استقامة . ووجد الى كفايته أيسر استنامة . لكنه لم يطو بساط الظلم والمصادرة . ولم يقبض عن التعدى الايدى المتجرئة على المبادرة . وكان الى الناس مبغضاً . ولمقتهم متعرضا . فلم يكفه ذلك حتى استناب بغيضا . واستطب لمرضه مريضا . وهو الكامل ابن الكافى الاصفهانيّ الذى مضى ذكر مخازيه فى وزارة الخطير . ووصف بالشؤم والسوء فى الادبار والتدبير . وهذا الكامل ما ناب عن أحد الا نابه خطب مبير . ودهمه ملم كبير . كما قال البحتريّ فى سعد حاجب عبيد الله

يا سعد انك قد خدمت ثلاثة ... كل عليه منك وسم لائح
وأراك تخدمُ رابعاً لتُبيرَهُ ... فأرفق به فالشيخ شيخ صالح
ياحاجب الوزراء انك عندهم ... سعد ولكن أنت سعد ذابح

فبدأ هذا النائب في الاول بأخذ مخلفي الوزير المستشهد وكانت خزانته قد نهبت . وذخائره قد ذهبت . وهم فى بيوت الاحزان . يرجون عواطف السلطان . فلم يرض لهم بالعدم حتى سجنهم وحبسهم . وضاعف عليهم محنهم وعرق عظامهم . وفرق نظامهم . ثم أمر باستعادة الرسوم والادرارات . ولم يقتصر على قطع الصلات . حتى كتب الى جميع البلاد باسترجاع ما أخذه أرباب الصدقات لسنتين . ومن اخذ عرضا بادراره ألزم ردّ العين . فوكلوا

فى كل بلد بالاخيار والاشراف . وسلطوا أقوياء الشرط على المتضوّنين

قال : وكان قد عزم السلطان فى هذه السنة على الغزاة فصدوه وعرضوا عليه كتاباً من بعض أمراء بلاد شروان يذكر فيه اننى قد استخلصت لكم المملكة الشروانية . وأهلها ينتظرون الراية السلطانية . وان الملك شروانشاه محصور . وان الفرج عليه محظور . فان أردتم تملك الخزائن . واستخراج الدفائن . والاستيلاء على الممالك فاصرفوا اليها الاعنّة . وأشرعوا نحوها الاسنّة . فثنوا عزم السلطان الى قصد بلاد شروان فلما وصل وجد الامر بخلاف ما ذكر وخرج اليه الملك شروانشاه راجياً انه قد عاد عيده . وان يتحلى بعد المطل بطوق الانعام جيده . فانه كان فقيراً قد قنع الرعية بملكه . وألفوا الانخراط فى سلكه . فحين وطئ البساط طوى بساطه . وعقل نشاطه . وسحب وحبس . وغبن وبخس . وانتظر أهل البلد انه يعود اليهم مملكا مكملا . مشرّفاً مجملاً . فحين عرفوا الحال أكثروا الصراخ والبكاء . وأثاروا الرجال والنساء . وخربوا الجامع ورموا منارته . وشعثوا البلد وأذهبوا عمارته . فما نفعهم ذلك وجرت عظائم تأنف منها العظماء . واجترحت كبائر تأباها الكبراء . وجرّ ذلك الخبط خطباً . لم يدع يابساً ولا رطباً . وطمع الكفار المتاغرون فأغاروا . وأبادوا الاعمال وأباروا . وقتلوا خلقاً من المسلمين ونزلوا قبالة السلطان فى ثلثين الف عنان على فرسخين لكن الله تدارك رمق الاسلام . بكسر أولئك الاغنام . ونهض السلطان محمود اليهم محموداً . ولم يدع فى هزمهم مجهوداً . وعاد منصوراً مسعوداً .

ولما حبس الملك وقع الشروع في مصادرة الرعية فلم يحصلوا على طائل . ولم يظفروا بحاصل . وكانت للخزانة السلطانية . فى كل سنة على الاعمال الشروانية .

مقاطعة مبلغها أربعون الف دينار فبطل حق تلك المواضعة بوضع الباطل . وطال المقام فى تلك البلاد لدفع البلاء.ورفع الاهوال والاهواء . وكان هذا القرار على شروان من عهدسلطان ملكشاه بن الب ارسلان فانه لما عبر على أرّان وصل الى خدمته الملك فريبرز صاحب شروان بعد امتناعه والتزم بحمل سبعين الف دينار الى الخزانة وما زالت المسامحات تدخل فى القرار . الى أن وقف على أربعين الف دينار . فباء الوزير بالوزر . وقبح الذكر . ولم يحظ فى مدة سنة واحدة من وزارته بعمل يذكر به الا حبس أنوشروان. وتخريب شروان . ولما أبصر السلطان اختلال الاحوال . واختلاط تلك الاعمال . سخط على الوزير شمس الملك بن نظام الملك وقتله بالسيف صبراً.وذلك فى آخر ربيع الاول سنة ٥١٧ بباب بيلقان

قال أنوشروان : وكان الذى جرى علىّ من الاخذ والنهب بباب حلوان أيضاً فى آخر ربيع الاول سنة ٥١٦

من يَرَ يوماً يُرَ به والدهر لايغتر به

قال عماد الدين : وسبب قتل هـذا الوزير ان أبا القاسم الانساباذيّ كان رسولا عند السلطان سنجر . وقرر من أمر بن أخيه السلطان محمود ماقرّر . وذكر له أن الوزير هو الذى اذهب الهيبة وشتت شمل الاجناد . وبتّ حبل السداد . وتوسل بكل طريق حتى تنجز كتاب السلطان سنجر الى بن أخيه فى طلب وزيره . وأمره بتسييره . فحار محمود وخشى انه ان سيره اطلع على سره . وان لم يسيره اسخط عمه بمخالفة أمره . فأُشير عليه بقتله . وتسيير رأسه . فبغت الوزير أقوي ما كان رجاء فى الحياة بيأسه .

قال عماد الدين : وعاد حكم المملكة كله الى عزيز الدين أبي نصر أحمد

ابن حامد وكان حينئذ مستوفى المملكة وجاذب زمامها . ومالك نظامها . فسكن السلطان اليه . وعول عليه . وعرض الوزارة عليه فاباها . ووجد مغارس المملكة ذاوية فروّاها . وقال أنا أنفذ أمورك وأوامرك . وأصفيّ مواردك ومصادرك . ولا أدع مصلحة تقف . ولا منفعة تنصرف . لكنني لا أتسم بالوزارة ولا أتقلد وزرها . على انني أتقلد أمرها . فاذا حضر صديق أبو القاسم الانساباذي جعلته صدرها . وما عرف ان صداقته عند عوده تعود عداوة . وانه يجرع مرارة سم ماطنه حلاوة . فمكث سنة بالمناصب متوحداً وبالمراتب منفرداً . وعاد السلطان الى مقر ملكه محبوّا بالظفر محبوراً . محمود الأثر مشكوراً . واستمر الشهاب أسعد الطغرائى فى الانشاء ومنصب الطغراء . ولما عاد الدركزيني قال العزيز للسلطان « قد وصل من يكفل بالامر ويكفى فى الحل والعقد . فانهضه للوزارة فانى غير ناهض بأوزارها . واتركنى ومضائي فى غير هذه الخدمة ولا تقاتنى بمضارب مضارها . وأنا ان خليت الوزارة اسما فما أخليها نظراً . واعذقها بسواى وأكون عليه بحكمي مستظهراً . فيكون أبو القاسم لي قسيما . وأصبح أنا له مقعداً فى المصالح مقيما » فقال السلطان « ماأعرف سواك . ولا أعول الا على حجتك وحجاك » وسيأتى ذكر الحال فى ذلك

قال أنوشروان : وفي تلك المدة استدعانى السلطان الى بابه وانتهت شدة حالي . وانقضت مدة اعتقالى . وانقذنى اللطف الربانى من كيد الخصوم . وعرفتنى التجارب انه لا محيد من المحتوم . وعلمت أنه لا يجدى طلب العز فى زمان الذل . ولا يوجد الخصب فى سنة الازل . وصممت فى الاعتزال حد العزم . ونزلت على آل المهلب ذوى الكرم والفضل والعلم

كما قيل

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الاوطان في زمن محل

فما ذال بى احسانهم وافتقادهم والطافهم حتى حسبتهم أهلى

قال : ويعنى أنوشروان بآل المهلب الامام صدر الدين عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الجندي باصفهان وكان أجود الامجاد ، وأمجد الاجواد . فلما ضافه أنوشروان أ كرم مثواه ، وقبله وآواه . قال : قال أنوشروان فصرف الىّ الاصدقاء الهمم وحقق اكرامهم عندى الكرم . واستقرضت من تاجر غريب جملة ، وكتبت له علىّ وثيقة فجاءنى بعد حين انسان وقال مخدومى عزيز الدين يسلم عليك . وقد نفذ هذه الوثيقة اليك . وقال لك ابطلها فان الدين قد قضى ، وصاحبه قد رضى . فعجبت كيف توسل فى اسداء هذه اليد الىّ ، وافضاله علىّ . فبقيت مدة فى تلك الضيافة . آمناً من المخافة . سالما من الآفة . حتى استدعانى السلطان بعد قتل الوزير ، وأهلنى للتدبير . فامتنعت أياماً ، وطلبت من الخطر زماماً . ولما وصلت الى الدركاه رأيت كلا من الجماعة ، يقول مااستحضر الا لسبب ، ومااستقدم الا لارب . قال : فراجعت فكرى . وندمت فى أمري . وقلت أعمال السلطان عوارىّ لابد من ارتجاعها . وملابس لا بد من انتزاعها . ولو خلصت فرُحتُ فرِحتُ . ولو استخرت الله فى الانزواء لاسترحت . وكان السلطان فى الاذن لى متوقفا وأنا قد ملت الى الوحدة والانفراد . وقصرت همتى على هذ المراد . فما زلت به حتى استأذنت منه فاذن فى الانصراف . وخصنى من مواعيد عوائده الجميلة بالالطاف . فساعدني أرباب الدولة من الخيل وغيرها بما حمل أثقالى . ومن الازواد وغيرها بما أثقل أحمالى . وتوجهت من أصفهان الى بغداد .

وعـدمت الملاذ لاجـل الملاذ . فلما وصلت الى حضرة الخلافة وجدت الاكرام . والانعام والاحترام .

ذكر وزارة الدركزينى فى سنة ٥١٨

قال : لما وضع عليه اسم الوزارة . تبدلت الغزارة بالنزارة . وهو أول فلاح ترك العمل بالفدان . فدان له عمل الترك . وحل البقر عن الملك . فحل فى دست الملك ففتك وهتك . واستباح الدماء وسفك . وشرع المنكرات . وانكر المشروعات . وعادى الكرام . وبدد النظام . وظاهر الباطنية . وأظهر السنة الجاهلية . وشرع فى الفتك بالاحرار . والهتك للاستار . فمن جملة من فتك به القاضى زين الاسلام أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروى وكان أوحد دهره . ونسيج وحده . والمعروف باسداء المعروف . والمرجوّ لاعداء الملهوف . وهو حبر العالم وبحر العلم . والحاكم بالعـدل والعادل فى الحكم . وقد ملك من قلوب السلاطين القبول . ولم يروا من نصحه واشاراته العدول . وكان من متعصبي عمى العزيز . المخصوصين فى الفضل والافضال بالتبريز . فتقررت له بعد وزارة الدركزينى رسالة السلطان الاعظم سنجر . وسار الى خراسان فى البهاء الابهر . والجمال الاوفر . فصعب على هذا الوزير أمره . وتقسم سره . وعرف انه اذا حضر هناك انهتك ستره . فانه كان موّه ولبس . وأخفى أحواله عنـد السلطان سنجر ودلس . فعرف ان الهروى يهرّيه . وينزع لباس تلبيسه ويعريه . فقرر مع عدة من الباطنية أنهم فتكوا

به عند عوده من رسالة خراسان . وقد حضر للصلاة في جامع همذان . فاستشهد قبل ان يشهد السلطان . وذلك في سنة ٥١٨

قال وكان حينئذ بالموصل آق سنقر البرسقيّ . الغازي المجاهد التقيّ النقيّ . فدخل في وزر ذلك السعيد الوزير الشقيّ . فانه كان قد قمع أهل الالحاد . وغمه أمر هذا الوزير الذي سد باب السداد . وتوسل الوزير عند السلطان في عزله فلم يقدر . وبالغ في كل مكيدة ولم يقصر . ولما أعياه أمره استدعى اخوانه من الباطنية . حتى جلسوا له في جامع الموصل بزيّ الصوفية . وقفزوا عليه وضربوه بالسكاكين . فجلّ به مصاب المسلمين . وذلك في ذي القعدة سنة ٥٢٠ . وكان وزير السلطان سنجر في ذلك العهد الاجلّ معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود وقد مضى ذكر كرمه وفضله في زمان السلطان محمد وتوليه ديوان الاستيفاء . ولقد كان موئلا لاهل الرجاء . وهو من ممدوحي القاضي أبي بكر الأرجاني وله فيه قصيدة صادية أولها

روّحا ساعة متون القلاص واحفظا وقفة بتلك المراص
يا خليليّ من سراة بني الاقيال والغر من بني الأعياص
واسياني فللأخلاء قدما بالتواسي في النائبات تواص
كيف أشكو خطباً ومختص ملك الأرض أضحى بالقرب منه اختصاصي
وإذا استنصر الهمام أبو نصر أطاعت لنا الليالي العواصي
ذو ندى يستهلّ كالديمة السكب ونشر كالكوكب الوباص
وبنان يريك للقلم النا حل فضلا على القنا العرّاص .

قال : فأنف من وزارة الدركزينيّ بالعراق . ولقد كان على الدولة شديد

الاشفاق . وعرف الدركزينيّ ان نقصه مع فضل أبي الفضل بادٍ . وأن أمره مبنيٌّ لعمى دهره عنه على غير عماد. فلم يزل يعمل كيده في نكبته . ويتسلق بالمكر على هضبته . وباطن الباطنية في قتله. وفرغ فكره لشغله. فوجده متحرزاً متيقظاً . متحرساً متحفظاً . فبث عليه حبائله . وأدبّ اليه غوائله . وسير الى خراسان عدة من الملاحدة . فتوصل منهم واحد الى أن خدم في اصطبل الوزير المختص سائساً لدوابه فأراد يوما عرض الخيل فحضر ذلك السائس وهو عريان . وقد خبأ سكينة في ناصية حصان . فأطلق حصانه من يده حتى شغب . واستخرج من ناصيته السكين ووثب . وتعمد مقتل الوزير فأصابه . وعظم على الكرام مصابه . وبضع السائس في الحال تبضيعاً ومزّعوه تمزيعاً . وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١

وما زال الدركزينيّ يتتبع الاكابر فمنهم من يقتله جهاراً باذن من السلطان . ومنهم من يقتله غيلة بمن يتخذه من أولئك الاعوان . قال : وكان سبب ميل الباطنية الى الدركزيني ان الامير شيركير رحمه الله كان مشتغلا بحصار قلعة أَلَمُوت وقد قارب فتحها . وشارفت الآمال في أخذها نجحها . فلما توفى السلطان محمد وتولى ابنه محمود وتمكن الدركزيني من الدولة أعمل الحيلة في استدعاء شيركير ونفّس عن القلعة ثم لم يزل يدقق الاحتيال حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها. ومساوى لفّقها حتى اعتقل ذلك الامير مع ولده شرف الدولة ولم يزل يطلب غرة السلطان في أمرهما حالتَيْ سكره وصحوه حتى أخذ رخصة في سفك دمهما الحرام. وأذهب بقتلهما قوة الاسلام . واتخذ بذلك عند ذوى الالحاد يدا . واستكثر له من أعوانهم مددا

قال : وكان عمي العزيز يحسب انه انسان . وأن جزاء الاحسان له منه احسان . فلما أحس بشرارة شرّه . وضراوة ضرّه . افكر فى طريق الانزواء . والخلوص من تلك الاهوال والاهواء . فاستأذن فى الحج فسار فى سنة ٥١٧ أو ٥١٨ وكان حاج تلك السنة بأجمعهم فى ضيافته وكرامته . وعمهم شمول عارفته حتى قال الرئيس أبو الحارث البغدادى فيه

يا كعبة الاسلام مالي أرى ... اليـك تسعي كعبة الجود
تقصد فى العام وهذا الفتى ... لم يلف يوماً غير مقصود

وهناه عند عوده القاضي أبو بكر الارجانيّ بقصيدته النونية المشهورة التي أولها

ورد الخدود ودونه شوك القنا ... فمن المحـدث نفسه أن يجتنى
لاتمـدد الايدى اليـه فطالما ... شبوا الحروب لان مددنا الاعينا
ما ان جفـوت الطيف الا ليـلة ... والحى قد نزلوا باعلى المنحنى
لما ألم وقد شـغلت بمدحـةٍ ... لعزيز دين الله فكرى موهنا
في ليلة حسدت مصابيح الدجى ... حكمى وقد كانت لهـا هى أزينا
قلبى بها حتى الصباح وشـمعتى ... بتنا ثلاثتنـا ومدحك شغلنـا
حـتى هزمنا للظلام جنـوده ... لما تشاهرنا عليها الالسنـا
أفناهما قطى وأفنيت الدجى ... سهـرا فاصبحنا وأسعـدهم أنا
لله مقـدم ماجـد أضحى به ... عنـا لنازلة النـوائب مظعنـا
أمنت اساءته عـداه لانه ... مذ كان لم يحسن سوى أن يحسنا
أتبعت غزوتك الحميـدة حجة ... فقضيت أيضاً فرضها المتعينا
وجررت أذيال الـكتائب موغلا ... في الارض خلف بنى الخبائث مثخنا

حتى غدت تلك المجاهل منهم وكأنما هن المناخر من منى

قال : ولما عاد من حجه ، استعفى السلطان من شغله . فما أجابه الى مراده . ولا مكّنه من انفراده ، وأعاده الى منصبه على العادة ، وأشرق به مطلع السعادة . وأصبح الوزير يجول فى مكر مكره ، ويسر له ما يرجع بشغل سره ، وعادت تلك الصداقة عداوةً ، والمعرفة نكرة وغباوة ، وغبرت على ذلك مدة فثبت العزيز على الاستعفاء ، وترك منصب الاستيفاء ، فقال السلطان « اذا كنت مستعفيا . ولا تؤثر أن تكون مستوفيا ، فما لي أعز من الولد والمال وقد سلمت اليك خزائنى وأولادى وبهذا يحصل مرادك ومرادى » فلما خلا منصبه منه ، ورغب العزيز عنه ، تولى الصفىّ أبو القاسم الجنزيّ ديوانه ، وجلس مكانه ، فتوازر هو والوزير والجماعة على قصد العزيز فلم يقدروا له على مضرّة . ولم يعثروا له على عثرة ، ومضت على وزارته ثلاث سنين وشمل العدل بغير التئام . وسلك الملك بلا نظام ، والمعاقد غير مبرمة ، والقواعد غير محكمة ، وتفرّغ العزيز لاعلام السلطان بالتشويش والتشويه ، وحصول كل أمر كريم به فى الامر الكريه ، فأمر السلطان بقبض الوزير واعتقاله ، وسلمه الى العزيز ليريح الناس من شره واغتياله ، فرأى أن اهلاكه على يده شنيع . وان ذكره بالفتك وهو ليس من أهله فظيع ، ودبر فى تولية وزير يسلمه اليه ، وهو لاجل الخوف على منصبه منه يقضى عليه ، فسعى فى استدعاء شرف الدين أنوشروان بن خالد بن محمد من بغداد فلما حضر واستوزر حمل الدركزينى الى داره على حاله ، وصيّره فى اعتقاله

وكانت فى أنوشروان ركاكة ظاهرة ، ووضاعة لخلق الرفعة قاهرة ، فلما تسلم الدركزينى ضرب له فى داره الخركاه ، وأذن لكل صاحب له أن

يدخل اليه ويلقاه . وكان في كل يوم يدخل اليه ويجلس بين يديه ويخاطبه يا مولانا . وأنت أولى منا بالمنصب الذى خصنا به السلطان وأولانا . فسقطت حرمته . وذهبت هيبته . واتضعت وزارته . وعرفت حقارته . وخيف عود الدركزينىّ بعد استقرار سلامته . الى منصب كرامته . فشرعوا فى اعادته . وجروا على ارادته . وهو جالس فى دار أنوشروان . والناس متناوبون اليه لتقرير وزارة السلطان . فما شعر أنوشروان حتى أخرج من داره . ورُدَّ الى مقره على قراره . وأذن لانوشروان فى العود الى موضعه . والغيض فى منبعه . فرأى الغنيمة فى الاياب . واغتنم السلامة التي لم تكن له فى الحساب . قال: وكانت وزارته سنة واحدة على ما أورده فى بابه . والآن أذكر ما ذكره عن نفسه فى كتابه

ذكر وزارة شرف الدين أبى نصر أنوشروان بن خالد

قال أنوشروان : كنت قد اتخذت بغداد مدينة السلام . دار المقام . وانا من حفظ الله في أوفى ذمام . فجاءنى كتاب السلطان محمود وخاتمه . ووصل رسوله وخادمه . يستحثني فى الوصول اليه . ويستعجلنى فى المثول بين يديه . فحين حضرت الخدمة شافهنى بالتقليد . وخصّنى بأمره الاكيد . وكمل لى تشريف الوزارة وخلعها . وأدواتها محلاها ومرصعها . ودواة الذهب والسلاح المجوهر فجلست فى الوزارة سنة وأشهراً لا أقدر على الخطاب فى مصلحة . ولا على التنفس بفائدة مترجحة . وصاحبا يميني ويسارى الشهاب أسعد الطغرائى والصفى أبو القاسم المستوفى والامير الحاجب الكبير حينئذ

ارغان . وامرأته خلف الستر قهرمانة السلطان . فلما رأيت اتفاقهم على ماهم فيه قلت في نفسي لايظهر لى مع الناقصين فضل . ولا يقبل منهم صرف ولا عدل . فاستعفيت واخترت العزل على التولية . واحدث نفسي عن الولاية بالتعزية والتسلية . ونفضت يدى من صحبتهم . وقلت العفاء على تربتهم ورتبتهم . وعاد الدركزيني الى الوزارة فانه ارغب أرغان الحاجب بالرشى . ومشى بغرضه فمشى . ورجع كالكاب الكلب . والبغل الشغب . وهابه من لم يكن يهابه . وامتلأ باللؤم والشر اهابه

قال : فعدت الى بغداد مستأنسا بالوحشة . آلفا بالوحدة . فلما وصل الدركزيني الى بغداد اجتهد ان ينالنى شره . فعصمنى الله من كيده . لا لاساءة اليه منى سبقت . ولا لضغينة علىّ بقلبه علقت . فانى كنت اسلفته فى حال حبسه وعزله احسانا . وقلدته امتنانا . ولم أترك فى الانعام امعانا . ولما كلأنى الله من غائلته مد يده الى مالى . وانزل النوازل باسبابى . وقد كنت بنيت على دجلة دارا فادعاها لنفسه ملكا . واستحضر عدولا شهدوا له بالملكية زورا وإفكا . وانتقل الى الدار بحكم الشرع . وصير باطله حقا ببيناته الكاذبة فى الاصل والفرع .

قال : واجترأ على الاجترام . واجتراح الآثام . وسفك دم الكرام . فتارة يظهر التسنن باراقة دم العلوية . وآونة يدّعى التشيع في قتل الائمة السُنِّيَّة . فمن جملة من سفك دمه . ورام عدمه . علاء الدولة رئيس همذان وكان شابا حسنا شريف النسب . كريم الحسب . وكان باصفهان قد حضر مجلس الوعظ فقام اليه رجل من أصحاب الدركزيني فضربه بسكينه . وفرى بمديته حبل وتينه . وكذلك عين القضاه الميانجىّ بهمذان كان من الاكابر

الائمة والاولياء ذوى الكرامات . وقد خلف ابا حامد الغزالى رحمه الله في المؤلفات الدينية والمصنفات . فحسده جهال الزمان المتلبسون بزى العلماء . ووضعهم الوزير عليه فقصدوه بالايذاء . وأفضى الامر به الى ان صلبه الوزير بهمذان . ولم يراقب الله فيه ولا الايمان . وكذلك الملك علاء الدولة بيزد سعى فى دمه وهتك حرمه . وكذلك رئيس ساوه اعتقله ثم قتله وتتبع البيوت الكبار واقتلعها . والجبال العظام فزعزعها . ومن جملة افعاله القبيحة . وأقواله العائدة على الدولة بالفضيحة . انه حسن للسلطان وقد وصل الى بغداد فى سنة ٥٢٠ ان زحف بعسكره الى دار الخلافة وقالوا وفعلوا ما لا يحسن ذكره . واعتمدوا كل ماقبحت سمعته وعظم وزره . وكان حينئذ وزير الخليفة المسترشد بالله رضي الله عنه جلال الدين أبو على الحسن بن على بن صدقة فتوسط للامر بكفايته . وكشف تلك الضلالة بهدايته . وكان صديق عمى العزيز رحمه الله . فتعاونا على الاصلاح . وأسوا الجراح . وحملا السلطان على معاودة طاعة إمامه . والتصرف على أوامره وأحكامه . وذلك فى اواخر ذي الحجة سنة ٥٢٠ أو أوائل المحرم سنة ٥٢١

ولما قرب مسير السلطان من بغداد حدث به مرض ضعف منه جسمه وقلبه فاعتقد ان ذلك من شؤم خلافه الخليفة . فجلس فى محفة ووقف على باب الحرم للمواقف الشريفة . وأبدى الاعظام والاجلال . وطلب العفو والاستحلال . فخرج اليه التوقيع الامامى باجمل جواب . والطف خطاب . وطابت نفسه . وزاد بذلك أمله فى البر وأنسه . ووصل الى همذان وقد ابل وتوفرت له حصة الصحة . وشكر الله تعالى على رواح المنحة .

قال عماد الدين رحمه الله : وفى هذه السنة عزل الدركزينى وولى

انوشروان كما سبق ذكره ثم عزل انو شروان بعد سنة وأعيد الدركزيني وما زال عمي العزيز فى عصمة من شر الوزير حتى أخبر السلطان بأن عمه سنجر قد سير فى طلب ميراث ابنتيه وجواهرهما رسولا فانه كان قد تزوج باحداهما فماتت ثم تزوج بالاخرى فماتت ايضاً فوضع الدركزيني من قال للسلطان « ان رسول عمك واصل اليك بسبب تلك الجواهر. وأنه لايعود عنك بما تقرره من المعاذر . وقد رضى سنجر بشهادة العزيز فانه أمين قوله صادق . والسلطان سنجر بصحته واثق . ونحن نرى ان تحبس العزيز فى بعض المعاقل . محفوظاً من الغوائل . حتى اذا وصل الرسول وأدى رسالته . وطلب العزيز وشهادته . قلت له هذا صاحبنا وقد نقمنا منه أمرا فعزلناه . وقبضنا عليه واعتقلناه . وما بقينا نرجع اليه فى الشهادة . وسؤال المحبوس خلاف العادة » فتلوّم السلطان محمود وتذمم . وتردد فكره وتقسم . ففاوضه الدركزيني وهوّن عليه الامر . وسهل عنده الوعر . وقال له « اذا كنت معتنيا فما يضره العقود مصونا . وما يعيب الدرّ مكنونا . والذخر مخزونا » قال « وانا أطاق لك من مالى ثلثمائة الف دينار اذا حبسته . وأقوم بادائه اذا أجلسته »

ذل الى المال . وحال بالمحال . فاستدعى عمى العزيز من داره وعرفه بغرضه ثم أمر بالتوكيل به على أجمل وجه وكان ذلك والسلطان حينئذ ببغداد فى أوائل سنة ٥٢٥ ثم قالوا للسلطان الصواب انفاذه الى معقل فقد قرب وصول الرسول فسلم العزيز الى بهروز الخادم شحنة بغداد حتى سيره الى تكريت فلم يلبث السلطان بعد حبسه الا قليلا . وكم تلا (ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) وذلك انه لم يسمع من رسول عمه عند حضوره ما قيل عن رسالته .

واستدل بذلك على كذب الوزير فى مقالته . وأرسل الى الوزير وطالبه بالمال فزاغ عن مطلبه . ومطل به . وسير الى أصفهان فقبض على والدى صفى الدين وعلى عمى ضياء الدين واعتقلهما بقلعتها ونهب وسلب . واستولى على أملاكنا وأموالنا واستوعب . وأما العزيز فان السلطان كتب اليه بتكريت يعده ويأمره بالصبر ويقول « اذا أخذت من الوزير ما بذله فانا لابد أن أطلقك وأعتقله » والوزير فى كل مدة يزن له شيأ من المال ويريه أنه من عنده ومن ذهبه ولا يعلم أنه جباه من مال المصادرات وجاء به ووعده بالباقي الى همذان . وفى القدر ان بقاءه قد انتهى وان حينه قد حان . ورحل السلطان من بغداد ومرض فى الطريق واشتد مرضه . ثم فارق جوهره عرضه . وذلك فى شوال سنة ٥٢٥ . وذكر ان الوزير سمه فى طعامه فانه لما قصر فى اداء المال . ونظر فى سوء المآل . شرع فى اغتيال السلطان على وجه الاحتيال . فتم له تأميله . وحين مضى السلطان لسبيله . وضح فى التسلط سبيله

قال : وكان قد اتفق وصول السلطان سنجر الى الرى فى سنة ٥٢١ قبل مضى السلطان محمود الى بغداد فعاد الى خراسان واستصحب الملوك معه تأنيسا لقلب محمود . باستصحاب اخويه طغرل ومسعود . عاد محمود الى سريره . وتفرد الوزير بتدبيره . ومن الاتفاقات العجيبة . والواقعات الغريبة . انه اجتمع فى ذلك العهد فى خركاه واحدة السلطان سنجر والاخوة الاربعة السلطان محمود ومسعود وطغرل وسليمان والوزير الدركزينى والنصير محمود بن أبى توبة وزير سنجر وهناك رجل يقال له القلك وهو من الندماء المطبوعين فقام وصلى ركعتين . ورفع الى السماء اليدين . وجعل يدعو الله

ويتضرع . ويبتهل اليه ويخشع . فاستدعاه سنجر وقال « ما هـذه الصلاة والدعاء » فقال « ناجيت الله تعالى وقلت هؤلاء العصبة الذين اجتمعوا فى هذه الحركاه هم أصول الفتن . وفروع المحن . فاخسف بهم هذه البقعة . وانفض عنهم هذه الرقعة . حتى يسلم خلقك . ويسلم حقك » فضحك منه سنجر . واستخف النديم المتمسخر .

فلما عاد محمود سار الى بغـداد وشرع فى ازهاق النفوس فازهقها . والاخذ بمشورة الوزير لنفاقها عنده مع نفاقها . لاجرم انه ما تمتع بعمره بعد قطع تلك الاعمار . وانتقل بجوره وجبروته الى جوار الجبار

قال : وحكي نجم الدين رشيد الخادم الغياثيّ انه حضر السلطان محموداً وهو يتقلب على فراشه فى سكرة الموت ويقول « ادفعوا عنى شير كير وولده فقد شهرا سيفين ليقتلانى » وكان يكرر هذا القول الى ان قضى نحبه . ولحق بربه . وماعصبت به هـذا الوزر الاعصبية هـذا الوزير . فانه عجل له سوء الادبار بسوء التدبير . وكان السلطان محمود محمود الخليقة . مودود الطريقة . إن تُرك وطبعه لكنه بُلي بانواع من البلاء من أعوانه . ونغصوا عليه مشرع سلطانه . وفرقوا فى ابتداء دولته خزانة أبيه . واستضعفوا جانبه وطمعوا فيه . قال : ووجد تفصيل بخط عمي العزيز رحمه الله ان الخزانة الغياثية المحمدية . كانت تشتمل على ثمانية عشر الف الف دينار سوى الصياغات والجواهر الثمينة وأصناف الثياب المعدنية . فآل الامر الى انهم احتاجوا الى اقامة وظيفة الفقاع . فلم يجدوا ما يصرفون فيها من المتاع . فاخرجوا الى الفقاعيّ عدة من صناديق الخزانة التى فرغت فباعها بما بلغت وحتى طلب السلطان من شابور الخازن غالية فاستمهله أياما وادعى اقلالا . ثم أحضر ثلثين مثقالا . فقال السلطان

لشابور وكان خازن أبيه « حدث لجماعات بما كان في خزانة أبي من الغالية » فقال شابور « كان في قلعة أصفهان منها في الاواني الذهبية والفضية . والبلور والصينية . مايقارب مائة وثمانين رطلا ومعنا في خزانة الصحبة مقدار ثلاثين رطلا » فقال السلطان للحاضرين « اعتبروا بالتفاوت بين الامرين وفصل مابين العصرين » قال : وكان محمود قوى المعرفة بالعربية . حافظاً للاشعار والامثال الادبية . عارفا بالتواريخ والسير . ناظراً فيما يوجب الاعتبار من الغير .

ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود

الى ان استقر الملك لطغرل

قال رحمه الله: كان قد تفرس الوزير في السلطان محمود . انه موؤد وانه في الاحياء غير معدود . وحين فارق كنفه . ورافق كفنه . استصحب الى الريّ مع عساكر العراق . وتظاهروا على الاتفاق . وأمراؤهم برُسُق وقزل وقراسنقر وقراطُغان وغيرهم وأقاموا بها تلك الشتوة . وعقدوا بها على انتظار السلطان سنجر الحبوة . ولبثوا من يوم موت محمود إلى حين وصول سنجر أكثر من خمسة أشهر فوصل الى الري في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٦ واستقبله عساكر العراق مع الوزير . وجلس سنجر على السرير ووصل بعده ليلا طغرل سحرةً . ولقى عمه بكرةً . فترجل له الوزير الدرگزيني

فما احترمه طغرل ولا التفت اليه . ولا قبله ولا أقبل عليه . وكان الرسول قد أرسل الى طغرل بتحفة ونسخة عهد . ابانة عن نصح وشفقة وبذل جهد. قال : وحكى زين الدين المظفر ابن سيدے الزنجاني وهو الرسول انه لقي طغرل بخوار الرى فمثل بين يديه . وأوصل هدية الوزير اليه . فلم يجعل لها وزنا . وأظهر عند رؤيتها حزنا . وذكر آتابكه شيركير وشرف الدولة ولده واغرورقت عيناه وابدي عليهما كمده . وقال «اين هما في هذا اليوم ولو عاشا لكانا انفع لى من هؤلاء القوم» ولما عرضت عليه اليمين بان فيه أثر السخط فشرع فيها متلفظاً . ومن ان يمين متحفظاً . فلم يتفوّه بروابطها . ولم يتنبه على شرائطها . ولما رجع الرسول الى الوزير عرفه ما جرى وأخبره فلم يكترث بتلك الحال . اغترارا بقوّة الاحتيال .

قال : وكان وزير السلطان سنجر نصير الدين محمود بن ابى توبة فأنعم على الدركزيني بفرع الري لتلك السنة فان الرى كانت من الاعمال السنجرية وواليها من أصحابها الاجلّ المقرّب جوهر المعروف بالامير الاجلّ فلما فرّع الوزير الفرع ووزّعه . منعه الامير الاجل ووزعه . فأغلظ الوزير له فى المقال . وكان ذلك من اسباب حتفه في المآل . قال : ورحل سنجر الى همذان وخيم بها ثلاثة أيام . ثم نهد الى نهاوند . وحث على اتباعه الجند . لأن الخبر وصل بأن الملك مسعوداً وصل مستعداً للملك ومعه صاحب فارس آتابك قراجه . ولما سمع طغرل باقبال أخيه مسعود . لم يطمع من السلطنة فى مسعود . فعزم على الرحيل فأحس سنجر بعزمه وسير اليه الوزير والامير الحاجب وهو محمود القاشانى . والامير قماج وجماعة من امراء العسكر الخراساني . فأتوه وهو واقف على تلعة حذاء كنكوَرْ وبلغوه رسالة عمه سنجر

وأنه ولاه سلطنة العراق وسلطه على ولاياته وانه ولىّ عهده. ومالك خراسان من بعده . فهوى الى الارض مقبلا . وجرى القدر بملكه من السماء فاصبح مقبلا . وسار سنجر الى نهاوند بعد ثلاث ونفذ السلطان طغرل فى العسكر العراقى فجاءهم الخبر بأن مسعودا امسى عائدا الى آذربيجان على سمت دِينَوَر وما فى عزمه ان يلقى عمه سنجر فأغذ الجماعة اليه سائرين وهجروا تلك الليلة الكرى . ووصلوا السير بالسرى. فما اسفر الصبح الا وليل العجاج جان . والخطى يهتز على يمين الشجاع كأنه جان . والكوسات تذعر . والبوقات تنعر . وصادفوا العسكر المسعودى على موضع من عمل دينور يقال له بَنْجَنْكُشْتْ مرت تلك الجيوش به فامتلأ الملا وماج المرت وجاش الموت وطلعت راية السلطان الاعظم سنجر وهو تحت مظلته . كالقمر فى هالته . وعلى ميمنته السلطان طغرل والامير قماج . وعلى ميسرته خوارزمشاه وعدة أمراء مساعير يسعرون بأسهم الهياج . فحملت ميسرة مسعود على ميمنة سنجر وفيها السلطان طغرل فصدمتها وهزمتها . وركض طغرل في الهزيمة فرسخين ثم تحيز الى عمه ووقف في قلبه . وثبت بجنبه . وحملت ميسرة سنجر على ميمنة مسعود ففرقت نظامها . والتهمت لهامها . وقرّ قراجه ووقف في خواصه وكانت لسنجر صفوف وراء صفوف تخرقها الى القلب . ودارت في الاحاطة بها رحي الحرب . وكان أشجع أهل زمانه فاثبت في مستنقع الموت رجله . ولم ير فى الاقدام بالروح بخله فلما كسر أسر . وقبض معه من أمرائه على يوسف الجاوش ووزيره تاج الدين بن دارست

ثم ركب السلطان بعد ثلاثة أيام ووقف على تلعة فاحضر بين يديه قراجه

ويوسف وهو مطرق لا يضرع له ولا يخاطبه فضربت رقبتهما .وطويت ورقتهما . ثم انصرف السلطان سنجر ذلك اليوم وارتحل من غده فلما وصل الى كور شذبه خلع على السلطان طغرل وسايره على انفراده . ووصاه بلاده وتلاده . وأقضى اليه باسراره وأسرَّ اليه بمفاوضاته . وأمره بان يكون مع رضاه ونهاه عن معارضاته . فقبّل عين الوزير ذاكره لماذا كره عمه . وظن انه سرّ يخفر فيه ذمامه ويخفي ذمه . ثم دعاه وودعه . وأودعه من النصيحة ما أودعه . وانصرف الى الريّ راجعاً . ولمصالح المالك جامعاً .

﴿ ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا والدين ﴾
﴿ أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه ﴾
(ابن الب ارسلان)

قال رحمه الله : جلس طغرل على سرير الملك بهمذان بعد انصراف السلطان سنجر الى خراسان فى جمادى الآخر سنة ٥٢٦ ووزيره القوام أبو القاسم ناصر بن عليّ الدركزيني الانساباذيّ استبد بتمشية الامور . والأمر والنهي على الجمهور . وكان لا يوقع فى الامثلة السلطانية مظهراً انه وزير سنجر . وانما خلفه بالعراق ليهذب المالك ويدبر . وهو في هذا الكبر نشيط . والسلطان طغرل منه مستنشيط . فهو فى بث العدل . والوزير فى بت الحبل . وذاك

يعطي وهـذا يأخذ . وهـذا يورّط وذاك ينقـذ . ووصلت رسـل الامام المسترشد بالله فلقيهم الوزير بعبوس وبؤس . وواقعهم بالنَجْه . وواجههم بالجَبْه وضيع للطمع في الرُّشَى الرُّشْدَ . وضل عن نهج الضلالة التى تشدّ . وأفسد ما صلح . وجرى على خاق الفلاحة وما أفلح . وانفصل الرسـل ولم يستقر بين الامام والسلطان قاعـدة . وكلما ظنت متقاربة عادت وهى بعادية عادة الوزير متباعدة .

ذكر ماجرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه

قال رحمه الله : كان داود ولي عهد أبيه . وآق سنقر الاحمديلي آتابكه ومربيه وهو بآزربيجان فى جمع كثير . وجم غفـير . وقصـده خواص والده وتغضبوا له وتعصـبوا . وثابوا اليه ووثبوا . ومعهـم الامير سـعد الدولة يرنقش الزكوى وكان من أجلّ أمراء الخدم . وأحذهم فى احياء رسوم البأس والـكرم . ومعهـم ابنا قراجه ايلرمش وأخوه . وعدة من الامراء هم الاعيان والوجوه . ومن أرباب العمائم الصـفى الاوحد أبو القـاسم الذى جعـل مسـتوفيا للسلطان محمد بعد العزيز . فحملهم على التبريز من تبريز . ونهض السلطان داود فى سـنة ٥٢٦ الى همـذان ولما قرب من معسكر عمـه طغرل انحـازت عدة من أمرائه الاتراك الى خدمة طغرل منهم بلنكري وأخوه مع عصبة ذات عصَبية وكذلك شـيمة الاتراك

غير وفية .

وبرز طغرل فى جنوده المتفقة . والبنود المختفقة . فلما تصاف العسكران . وتضايق العثيران . وقع البيض على البيض . ولم ير الا بحر الدم يجود من الغيظ بالفيض . ومضى الظهر ولا صهور . وقد حمي بالصدور الظهور . وظفر العم وعم الظفر . ونفر ابن الاخ وفر منه النفر . وانهزم آق سنقر بداود . وباء الباقون باغلال وقيود . وقتل فى المعركة ايلرمش بن قراجه مقدما . وبذل روحه فى الملتقى مكرماً . وأُخذ سعد الدولة يرنقش الزكوى فاعتقل فى همذان عند الوزير فى قصره وأُمضى على سبعين الف دينار فصلُ أمره . وتسلم منه قلعة قزوين . وخلت منه بلاده وذوين . وأخذ أيضاً الصفي المستوفي المعروف باوحد بهروز وحبس عند جاولى جاندار . وسأل الوزير أن ينقله ويعتقله عنده بالدار . فما رخص فيه السلطان . ولا تمكن منه ذلك الشيطان فانه كتب الى طغرل يقول « ان سلمتنى الى الوزير . أسلمتنى الى المبير وأنا أعطيك مائة الف دينار على أن أسلم ولا أُسلم . ويستصفى مالي لاالدم » .

فلما يئس الوزير من وقوعه في يده افكر فى حيلة ضعف بها مال مصادرته حتى أدي مائتى الف دينار وذلك أنه قال للسلطان طغرل « إن عمك أمرنى أن أضرب الدينار الركني فى همذان . حتى ينفق نقد العراق وخراسان » وتقدم بضرب الف دينار بذلك العيار . ونادى بالتعامل به فى تلك الديار . وطولب الصفي الاوحد بذلك النقد . من غير تضعيف العقد . ثم انه صادر الامراء وأمر بالمصادرات . وبيت بالاذى ذوى البيوتات . فقرر على قتلغ الرشيدى وكان استاذ دار السلطان محمود ثمانين الف دينار ثم

غدر به الوزير فاستخرج من ودائعه ثلاثين الف دينار اخرى فقرته وأفتقرته . وكسرته وخسرته . وأخذ من الجمال بن منارة البيع فى همذان ثلاثين الف دينار . وولى فخر الدولة بن أبي هاشم الحسني رئاسة همذان وأخذ منه عشرين الف دينار . وقرر على تاج الدين دولتشاه بن علاء الدولة ووالدته ووزيره مائة وخمسين الف دينار . وصادر الاكابر . وصدر الكبائر . وجر العظائم وعظم الجرائر . ووزع على بلاد الممالك بعلة صياغات بيت الشراب والمطبخ الوفا مؤلفة فاطلع السلطان طغرل على طغيانه وتسلطه فأنفذ اليه « انك اساءت سمعتي وأسمعت مساءتي . وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي . ألم يكفيك سلخ جلود العظماء . حتى شرعت فى استفراغ دماء الضعفاء . واستنزاف دماء الفقراء » فكف الوزير عن التوزيع بعد جباية الاكثر . والخيانة في الاوفر .

وسمع السلطان طغرل بتحرك اخيه مسعود . وخروجه مع آق سنقر فى جموع وحشود . فارتحل صوبه الى اذربيجان فلما سمع مسعود بقربه . لم يقف لحربه . وأغذ السير إلى بغداد في حزبه . ودخل طغرل الى مراغة وكان الوزير فى تأخر عنه فانتهز فرصة غيبته . وبسط يد معدلته . فجاءه الوزير بجاءة . وجر عليه جرأة . وبطل الحق وعطل العدل . ووجه على وجوه البلاد البلاء . ومثل بالاماثل والى الرؤساء اساء . وصادر زرقان رئيس تبريز . على سبعين الف دينار من الذهب الابريز . ودخلت الشتوة وقصرت الخطوة . واختار السلطان طغرل دخول تبريز والمقام فى قلعتها الى حين انحسار شتوتها . وانكسار سطوتها . فاجتمع عسف الوزير . وعصف الزمهرير وادبار المسيء وسوء التدبير . وكان المستولى على فارس بعد قراجه منكوبرس

وقد اجتمع عليه الترك فكتب الى السلطان . يطلب ولده الب ارسلان . ليذعن بالطاعة . والاعتراف بالتباعة . فأوجب ذلك رحيل السلطان والطرق مسدودة . والسبل مصدودة . فتضرر الظهر وظهر الضرر . ونفقت الدواب وتضوّر العسكر . ووصل الى اصفهان . وأنفذ الى فارس ولده الب ارسلان . فوقعت على منكوبرس حينئذ على الحقيقة سمة الآتابكية . ودرّت له اخلاف الحرمات البكيه .

ذكر حوادث جرت فى أثناء ذلك من السلطان مسعود وآتابك آق سنقر الاحمديلي

قال : رحمه الله لما قصد السلطان مسعود بغداد عبر على تكريت وكان واليها الامير نجم الدين أيوب وعمى عزيز الدين عنده فقال مسعود لايستتب أمرى الا بوزارة العزيز . فان الامراء يميلون اليه واذا استوزرته كنت فى حرز حريز . فنفّذ اليه خادمه عماد الدين صوابا . والامير أبا عبدالله الدووى ومعه مقدمين وحجابا . وطلبوه من الوالى . فاظهر الامير طاعة الموالى . لكنه اضمر نية اللاّوى وَلىٍّ المناوى . فان صاحبه كان مع السلطان طغرل فحصل فى الامر المشكل . ان سلمه خشى فى العاقبة عقوبة صاحبه الغائب . وان لم يسلم خاف من سخط السلطان الحاضر العاتب . واخرجه من القلعة الى المشهد بالمدينة . واشتغل بحمل اسباب التجمل والزينة . ولم يزل يدافع

الوقت حتى حان المغرب . وخان المطلب

فعزم العزيز على الخروج فيمن معه وتسابقوا الى الابواب فوجدوها قد أغلقت قبل وقت اغلاقها . وعند ذلك عاد وثوق الآمال بالانطلاق بوثاقها . وطلبت المفاتيح وقد حملت الى القلعة . فباتوا على مضضهم فى تلك البقعة . فلما اصبحوا وجدوا صطماز أحد مماليك بهروز وهو شحنة الحلة على الباب . وقد استتبع جماعة من الاوباش والاوشاب . وقد ساق فى ليلة واحدة اربعين فرسخاً . وجاء لمن بالقلعة مصرخا . ودخل على العزيز وأخذ بيده ورده الى القلعة وقال للقوم « انصرفوا بسلام . فلا حاجة بنا الى التعرض من صاحبنا لمعتبة وملام . وهذا السلطان مسعود ان استقرت له سلطنته فالافاق له مذعنة . وما دام الملك لاخيه فلا مطمح له فيه » فعلم القوم انهم اخطأوا الحزم . وضيعوا العزم . فرجعوا الى السلطان وأخبروه بالحكم والعلة . فخل به الشحناء من شحنة الحلة . وطلب بعض اخوة العزيز ليستخدمه . ويتقرب به اليه ويقدمه

وكان العم بهاء الدين أبو طالب وزير آق سنقر الاحمديلي وهو فى الخدمة فرتبه فى منصب الاستيفاء . وتعوض بالصعيد الطيب من الماء . واستوزر أنو شيروان . وجمل بمكانته المكان . وأخذ العسكر للملك طالباً . ولاخيه مناصباً . وكان السلطان طغرل حينئذ باصفهان . وقد استخلف آتابك قرا سنقر بآذربيجان فلما نهد آق سنقر مع السلطان مسعود الى آذربيجان . تزحزح عنه قرا سنقر الى زنجان . وتحصن عين الدولة خوارزمشاه والاميران بيشكتين وبلاق بأردبيل والامير الحاجب تتار بأرمية وتحكم السلطان مسعود وآق سنقر فى تلك البلاد . وانتظمت امورهم فى سلك السداد . ونزلوا على

أردبيل محاصرين . وثبت اهلها صابرين مصابرين . وكتب الدركزينى الى قرا سنقر يحرّضه ويقول له « بارز آق سنقر فأنت له مبارز بالمبارزة . واحضره وناجزه الحرب بنفسك والا حضرت بنفسى الى المناجزة » فكتب جوابه ومهد فى تأخير القتال عذرا فلم يعذره الوزير وكتب اليه ثانيا يأمره بالمناجزة فأستشاط قرا سنقر من اشتطاط الوزير وقال لجماعته « قد بلانا الله بهذا الفلاح . والدولة بوجوده معدومة الفلاح » فاحتد الاميران الحاجب تتار وجاولى الجاندار وقالا «لا بد من طاعة السلطان فى محاربة أهل العصيان . فلا تجبن فهذا مقام الشجعان » فاغتاظ وركب وساق نيفا وعشرين فرسخا فى ليلة واحدة فوصل بخيول رازحة . وخيول آق سنقر جامة غير جانحة . فتلاقيا وتضاربا . ثم انهزم قرا سنقر وفر . وظفر آق سنقر وقر . وكانت الحرب على باب اردبيل . فشفى آق سنقر منهم الغليل . واحتوى على ما كان معهم . ولم يقم بعدهم وتبعهم . وهجر الكرى . ووصل السير بالسرى . حتى وصل الى همذان . وعنا الملك لمسعود ودان . وخرج السلطان طغرل وتحصن بارْوَنْدْ وماوَشان وكان قد عرض له مرض اقعده عن الحركة . واعجزه عن حماية المملكة . فقدم الامير الحسن الجاندار على العسكر وهاجه الى اللقاء . وألقاه فى الهيجاء . ثم انهزم طغرل الى الرىّ قادما . وعلى الرأى نادما . وعلى وزيره واجدا . ولله شكرا على سلامته ساجدا .

ذكر ما كان من حديث عمي العزيز وحادثته
بعد عوده الى القلعة

قال : قال الدركزيني لسنجر عند عوده الى خراسان « انك تعود الى خراسان ويبعد علينا استئذانك فى المهام فاعطنا علاماتك فى دروج بياض . لمقاصد تعرض واغراض . فاذاعنت مصلحة . واتفقت منفعة للدولة مترجحة. أصدرنا بها مثالا بعلامتك فلا يخالفه القريب والبعيد . ولا ينقاد الاله الغوى والرشيد » وكانت علامة سنجر تحت قوس الطغراء وفوق بسم الله (توكلت على الله) فاخذ العلامات فى عدة دروج . واتخذها أسبابا لاستباحة دماء وفروج . فاول مثال زوّره انه وقع تحت علامة منها بقتل العزيز الى صاحب تكريت بهروز الخصى . واتفق انه كان فى العسكر معهم فارهبه وأرعبه وأمره بالامتثال . والجرى على مقتضى المثال . ففزع الخصى وتمكن منه الخوف وكتب الى والي تكريت نجم الدين أيوب . وخاطبه فى الخطب المخطوب . وقال له « هذا توقيع السلطان مع صاحب وزيره . يأمر بقتل العزيز وتسليمه اليه وتسييره . فان أبيت فقد رضيت بسخطى . وخالفت شرطى . وأردت الخطأ فى رد خطى »

وكان نجم الدين رجلا مسلما . فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلّما . وعرف أخوه أسد الدين شيركوه الحال . وحجز بينه وبين الوقوف على التوقيع الواصل وحال . فشاركه أخوه شيركوه فى رد الوارد . وصرفوه بالخلع والفوائد وكان شيركوه ملازما للعزيز ومتبركا به . ومتمسكا بسننه .

قال عماد الدين : سمعته يوما يقول « صليت ليلة مع العزيز فسمعت هاتفاً يقول جعلك الله عزيزاً كما حميت العزيز » فما أطمعنى فى مصر بعد نيف وثلاثين سنة الا هذه الدعوة . وأيقنت انى أنال هذه الحظوة . قال :فكان كما قال فانه ملك مصر وصار عزيزها . ومن حاز الجنة بما فعله فلا عجب لمملكة مصر ان يحوزها

قال : فلما عرف الدركزيني تمنع ماتوقعه . ضاق عليه الفضا وماوسعه . فثقل على بهروز وفزعه . وقال له « سر بنفسك ولا تتنفس بسرك حتى تأتى تكريت . وبيت من بها قبل ان تبيت » ووكل بالحصى أياما . ومزج له فى الشهد سماماً . ثم أطلقه على الشرط فلم يشعر نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه حتى هجم الحصى عليهما القلعة وقال لهما « قد دافعتما عن هذا الرجل دفعات فكيف هذه الدفعة » فدفعاه فلم يندفع . وردعاه فلم يرتدع . فتركاه وشأنه . فما ترك ما شانه . وكان بهروز قد استصحب معه من أعوان الدركزيني ملحدا . مثله مفسدا. فلما عرف العزيز رحمه الله انه قد أسلم . وأحس بالامر وما أعلم . قام يصلى ركعتين فصلى الاولى بسورة الكهف وشرع فى الاخرى بياسين . وطالت صلاته على الملحد اللعين . فضربه وهو في السجود. فجاد بروحه فى مناجات المعبود . وشهد السعادة . وسعد بالشهادة . وكان مذ حبس متوفرا على العبادة . يصوم ويقوم وذلك فى سنة ٥٢٧ وعمره ٥٥ سنة . وجرى هذا الامر . ولم يكن عند السلطان طغرل خبر . وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فانه بعد قتله الدركزيني طلب العزيز فاعلم بحادثته وحديثه . فلعن الوزير على تأثيره . وشؤمة النارى وتأريثه . ولم يكن بين مقتل الشهيد العزيز وبين

مقتل المرتد الوزير سوى أربعين يوما

ذكر قتل الوزير الدركزيني وما آل اليه أمر السلطان طغرل

قال رحمه الله: قد ذكرنا انه أحجم الى الرى من قدام آق سنقر ومسعود. في عدد مفلول وفل معدود . وخرج الامراء الذين كانوا باردبيل فى الحصار ورحلوا على سمت أصفهان . ليلحقوا السلطان . وفارقهم العسكر فوصلوا فى خف من الخواص . وعبروا للخلاص . على النهج المعتاص . وجاءت العساكر الى مسعود من كل حدَب تنسلُ . وبكل عسال تعسل . وكان طغرل قد رحل الى أصفهان . ثم رحل لقصد أخيه مسعود الى خوزستان . وأيقن ان كل ماتم عليه من الوهن فى أموره كان بوزر وزيره . وإدبار تدبيره . فأمر بصلبه . فصلب بامره . وانقطع لثقل جسمه حبل خناقه . فوقع الى الارض فى آخر ارماقه . وفى جملة النظّارة مملوك من مماليك شيركير واقف . وهو بما جرى منه على مالكه عارف . فشق الحلقة بسيفه المسلول . وضرب رقبة الوزير المغلول . فقطع فى الحال اربا اربا . وأفرغ قحف رأسه وحمل الى ابن شيركير فاتخذه للكلاب شربا . وأهديت كل أنملة له الى من عنده له ثار . وانتعش بعثاره من كان له عثار . وكان مقتله بشابور خواست

وكان السلطان طغرل قد قال له وهو جافل . ومن طلوع أخيه عليه آفل « اين العسكر أين الجند أين ما سبق به منك في الكفاية الوعد » فقال

له « لا تبالي ولا تخطر خطراً بالبال فانى قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك وكأنى بهم وقد تعجل قمعهم وتفلل جمعهم » فاغتاظ السلطان وقال له « قد وضحت صحة الحادك . وبان فساد اعتقادك » فامر بتجريده واشعال نار الحديد في ماء وريده

قال : ووصل الخبر بان الباطنية قد دخلوا على آق سنقر فى خيمته بمرج قراتكين . وتناوبوه بالسكاكين . وان عساكره ارتحلت من همذان . على صوب آذربيجان . فان السلطان مسعودا وان كان فى جمع جم . وعسكر دهم لكن أمره مدبر . اذ عدم من هو له مدبر . فثنى طغرل عنانه . وشرع لنحر الخصم سنانه . ومضى الى الرى . وطوى المنازل اليها أسرع الطى . فلما خيم بها اجتمع الذباب على عسله . والذؤبان العاسلة فى محفله وجحفله . ورحل السلطان مسعود بعد مقتل آتابكه آق سنقر الى الرى لاضعاف آخية اخيه . ومناجزته قبل انتهاض قوادمه بخوافيه . والعسكر الباقى معه يزيد على ستة آلاف فارس وطغرل فى ثلاثة آلاف فبرزوا بعدة المبارزة . وانجزوا عدة المناجزة . فانهزم طغرل وحماه حماة خواصه . وخلصه ذوو اخلاصه . واستأمن الاميران بلاق وسنقر صاحب ذنجان وجماعة الى العسكر المسعودي . وأستوت سفينة السكينة منهم فى بحر جوده على الجودي وذلك فى ثامن عشر رجب سنة ٥٢٧

وامتد طغرل الى طبرستان ونزل على الاصفهبد على فأكرمه وأعز مقدمه ووسع له ولعساكره الاتراك وأنفق فيهم الذخائر والاموال وأقاموا شتوتهم عنده فلما انحسر الشتاء رحل طغرل عائداً الى همذان واتصل به من الامراء الاكابر جماعة . لهم على الانام طاعة . مثل عين الدولة خوارزمشاه ومحمد

ابن شاهملك وحيدر بن شيركير وسعد الدولة يرنقش ووصل بزابه من عند آتابك منكوبرس فى الفى فارس من فارس فاشتدت شوكته . واحتدت شكته . وكان السلطان مسعود بآذربيجان فاستدعى فخر الدين عبد الرحمن ابن طغايرك واتصل به يرنقش البازدار ونجم الدين رشيد ونهضوا لصوب قزوين والرى . عازمين على حسم الداء بالكي . فرحل السلطان طغرل يتتبع أثارهم . ويشق غبارهم . فنكلوا عن لقائه . وولوه ظهورهم عند ظهور لوائه . وتفرقوا ايدى سبا وغنم أصحاب طغرل ما وجدوه من دوابهم وأسلحتهم وندب قرا سنقر الى محاربة الملك داود بن محمود بالمراغه فهزمه . وفل غربه وثلمه . وتمكن الساطان من سلطنته . وتسلط بمكنته . وفرع سريره وعرف سروره .

وزارة شرف الدين على بن رجاء

قال رحمه الله : سمعت والدى صفى الدين يشكره ويثنى عليه ويقول لما قتل السلطان طغرل وزيره الدركزيني استدعاني من اصفهان وظن ان العزيز باق . وانه عن حضرته اذ طلبه غير معتاق . قال : فقربني واكرمني قال « خذ خطي الى بهروز باحضار أخيك . وأسرع فاني منتظر لتوافيك » قال : فمضيت الى بغداد واذا بالقضاء قد قضى . والحكم قد أمضى . فلما عرف طغرل بوفاته طلب رجلا كافياً فوجد على بن رجاء عليا كما رجا . فعول عليه فى وزارته وسلم اليه المنصب وشرع فى مصادرة الدركزينية وقبض على

نوابهم . وضيق على أصحابهم . قال : وفى هذه النوبة قتل السلطان مسعود الصفى الاوحد المستوفى وصادر أهله على مائتى الف دينار وكان ذلك برأى سعد الدين أسعد المنشئ الخراسانى وبمواطاة الكمال ثابت القمى فانه تولى منصب الاستيفاء. فرأى اتلاف من يترشح لمنصبه حتى يبطش بيد الاستيلاء

ولما استقرت قاعدة طغرل وأمن من معار معارضيه . وعلا على مقار مقارعيه . وجلس على تخته . وتجلى بعلو بخته . فاجأه الاجل فانتقل من الثراء الى الثرى . ومن دار البلاء الى دار البلى . وذلك فى أوائل سنة ٥٢٨ فانه عرض له قولنج فشرب دواء أسهله وأدواه . وأسقط قواه . فتشتت ذلك الجمع . وانطفى ذلك الشمع . وغاض ذلك البحر . وغاب ذلك البدر . وكانت وفاته بهمذان ودفنه بها فى مدرسة بناها لبعض خدمه . وأسف بنو الآمال على كرمه . وكانت مدة ولايته سنتين وشهراً أو شهرين وكان جامعا للخلال التى تفتقر اليها السلطنة من الحزم والتحفظ . والعزم والتيقظ. الا انه كان مستبدا بآرائه . معجبا بأهوائه . لايستشير فى أموره . ولا يسترشد في تدبيره . وكان مصطنعاً لاراذل صحبوه فى أول عهده . فصاروا مقدمي جنده . والمخصوصين برفده. فكانت دناءتهم تغض من جليل قدره وتغمض على ذكره .

﴿ ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا والدين أبي الفتح ﴾

﴿ مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سنة ٥٢٨ ﴾

قال رحمه الله: كانت أم مسعود حظية تسمى نيست اندر جهان وزوجوها بعد وفاة السلطان محمد بالامير الاصفهسلار منكوبرس والي العراق. ونقلوا معها برسم جهازها من الخزانة السلطانية اموالا لا تنفد مع دوام الانفاق. وكان منكوبرس من أكرم أمراء الدولة وأعيانها وكان قد استبدّ باقطاعات العراق بعد وفاة السلطان وتفرد بها مدة حياته. وارتفع بوفور ارتفاعاته. وحكي عن وزيره وليّ الدين المخلّص محمد الميانجي انه قال «جمعت له في العراق الف الف وثلث مائة الف دينار نقداً مطبوعا بالسكة الامامية سوى ما كان له من الآلات والثياب والدواب والجواهر وقد ألممنا بذكر قتله في عهد السلطان محمود. ورجعنا الى حديث مسعود. وذلك انه سلمه والده في سنة ٥٠٥ الى الامير الاصفهسلار مودود صاحب الموصل

ثم جهز مودوداً لحرب الفرنج ووصل الى الطبرية وروّى صدى الاسلام من دم الكفر. وشهر على أيمان الايمان نصل النصر. وعاد الى دمشق محبوّاً بالفتح. محبوراً بالنُّجح. وحضر في الجامع في آخر جمعة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ وخرج ويده في يد طغتكين صاحب البلد. وهو محفوف من جنده بذوي العَدد والعُدَد. فجاء اليه رجل وضربه بضربتين فنفذت احداهما الى خاصرته وحمل الى دار طغتكين. وعزّ فيه عزاء المسلمين. وقيل انه خاف منه على دمشق فدسّ اليه. ولولا ذلك لكان لما اهريق منه الدم شق عليه.

ولما وصل نعي مودود الى السلطان محمد سلم ولده مسعوداً الى آق سنقر البرسقي وأقطعه الموصل والجزيرة . وأجزل له عطاياه الغزيرة . ولما توفى محمد تولى محمود فزوّج أم مسعود بمنكوبرس استمالة لقلبه . واظهاراً للتقرب اليه ترغيباً له ورغبة فى قربه . فلما ظفر به قتله . وحلى بصبغ دمه من سيفه عطلة . وجمع جوشبك الجيوش وسار بمسعود الى حرب أخيه محمود فكان ما كان من هزيمته وقتل أبي اسماعيل الطغرائي وزيره

ثم استدعى السلطان سنجر بعد ذلك مسعوداً واخوته . وقرّر على السلطان محمود من مال العراق نفقتهم ونفقته . الى أن خرج الامراء على محمود فى آخر أيامه فاستدعوا مسعوداً من جرجان . وحملوه على مناجزة السلطان . فما تسنى له أمر . ولا تهيأ له نصر . فاستمال السلطان محمود أخاه مسعوداً وقربه وسيّره الى ارّانية . واستكانت لهيبته عيون أعيانها الرانية . ثم لما توفى محمود جرى له ما ذكرناه مع أخيه طغرل حتى مضى لسبيله

قال : وكان مسعود قد وصل الى دار الخلافة فى حياة أخيه وخطب الخليفة المسترشد بالله له وأجله وبجله ووقعت عليه سمة السلطنة بالاسموّ . وعلاصيته بلا صوت علو . وكان الجند يجتمع عليه ويفترق . ويشئم تارة معه ويعرق . فلما نبت غرسه . وثبت عرشه . وقرّ قراره . وسر أسراره . وكان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد . قال رحمه الله : وكان المسترشد بالله رضي الله عنه قد استوزره مدة ولما وصل السلطان مسعود الى دار الخلافة وخطب له فى آخر المحرم سنة ٥٢٧ سفر أنوشروان وهو وزير الخليفة فى مهامه . فسفر بحسن سفارته وجه مرامه . وأحضره المسترشد وقال له شفاها « تلق هذه النعمة بشكرك واتق الله فى سرك وجهرك » وخلع عليه وطوّقه وسوّره وجلس على

الكرسي المعدله فقبل الارض وقال له أمير المؤمنين «من لم يحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره قال الله تعالى ذكره فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» فأعاد عليه الوزير بالفارسية فأكثر من الدعاء والضراعة . ونطق بالاذعان والطاعة . وقلده بسيفين . وعقد له بيده لوائين . وسلم اليه ابن أخيه داود وآتابكه آق سنقر وقال له «أنهض وخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين» فمضى مسعود وهى النوبة التى نصر فيها على طغرل قال : ثم رأي الخليفة عزل أنو شروان واستيزار شرف الدين نقيب النقباء على ابن طراد الزينبي وفيه يقول حيص بيص قصيدة أولها

شكراً لدهري بالضمير وبالفم ... لما أعاض بمنعم عن منعم

فجلس في بيته مكرما . ولزم منزله محترما . ثم اجتمع بالسلطان مسعود فاستوزره . وصدّ رهبة الاطماع حين صدّره . وكان المستولي على مسعود آق سنقر فلما استشهد تمكن الامير يرنقش البازدار فاستولى ولم يلتفت اليه ولا الي وزيره وكان آتابك قراسنقر حينئذ قد وصل الى الخدمة في حشوده وجنوده وحماة آذربيجان . وكماة ارّان . وعنده استشمار من زوجة السلطان الخاتون زبيدة بنت بركيارق فانها كانت على السلطان متسلطة فرأى صلحها واصلاح رأيها . وحمله دهاؤه على حمل النفائس اليها واهدائها . فلم يعجب الامير يرنقش ذلك فأستوحش ووافقه الامراء الاكابر وهم برسق وقزل أمير آخر وسنقر صاحب ذنجان وجاولي وحيدر بن شيركير فخرجوا عن الطاعة . وتدرجوا الى مفارقة الجماعة . ورحل يرنقش بهم الى بروجرد وبقى السلطان ومعه قراسنقر فى جيوشه واتصل به خوارزمشاه ووصل الامير السابق رشيد من خراسان فنهض السلطان بهم الى هؤلاء اليهم والتقوا

فانهزم برنقش وأسر من الامراء الطغرلية جماعـة . ووقعت فى اطلاقهم من قرا سنقر شفاعة . ولم يزل بهم حتى اصلح حالهم . وقضى اشغالهم .

وأما برنقش البازدار فانه رهب فهرب ودار بخـلافه حتى أتي دار الخلافة . فحط بحرم الامن رَحْلَ المخافة . واستصحب معـه من الاتراك جمعاً كثيراً . وصار بين الخليفة والسلطان للشرّ مثيراً . وأشاع عن السلطان نقض الأيمـان . ورفض الايمـان . وزعم أنه قد عزم على صـدق القصد . وانه باغ باغ زَرْعَ الدولة المسترشدية بالحصد . وكان الخليفة قد انقرض من السلطان فى تغييرات غـيرت فيه آراءه . وبدت من شحنة بغداد ماأبدت شحناءه . فلما سمع قول برنقش صار يرى نقشه فى الحجر . ونبتَ ما شجر من الخلاف والعناد عند الخليفة نبتَ الشجر . وكان السلطان قد همّ باتباع برنقش بعسكر يكفه ويكفيه . ويقف على أثره ويقتفيه . فصـدق الخليفة قصـده . وتحقق حقَ عنـاده عنده . فحينئذ خطبَ وخاطب . وطاب وطالب . وخرج بنفسه فى هيأة رائعة . وهيبة رائقة . وخرج معه من كلّ طائفة أعيانها . وتعاونت على التناصر انصارُ الدولة وأعوانها . وسار وقد صحبه حتى الشعراء والاطباء . والصوفية والفقهاء . وفي تلك السفرة يقول أبو القاسم بن الفضل الشاعر قصيدته التى اولهـا

فى العسكر المنصور نحن عصابة ... مرذولة أخسس بنا من معشر

خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى ... مـن خفـة ورقاعـة وتهوّر

ويقول فيها

تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا ... نسعى لنأخذ ترمذاً من سنجر

قال : ولم يقدر على التخلف عن الخليفة ذو قدر . ولم يفسح لذى عذر .

وسار فى حشد وحشر . وضم ونشر . ونمي الى السلطان خروج الخليفة فشق عليه شقاقه . وأظلمت آفاقه . فخرج صوبه من همذان والتقوا بمرج يقال له داى مرك ولما تراءى الجمعان مال الجنس الى الجنس . فمال الترك الى الترك . وأسلموا حرمة الاسلام المصونة الى الهتك .وتفرد الخليفة مع مفرديه . وبعد من جدى منجديه . ثم أقشع نشاصه . وانفل عنه خواصه . ووقف ولم يولّ . وثبت ولم يخلّ . وهابت الجماعة الاقدام عليه . والتقدم اليه . فنزل أمير العلم السلطانى وتقدم ولم يزل يقبل الارض حتى وصل اليه فأخذ بعنانه . ثم أحدق به الامراء كما يحدق كلّ موكب بسلطانه . وأنزلوه فى خيمة ومعه وزيره نقيب النقباء وابن طلحة صاحب المخزن وسديد الدولة ابن الانباريّ كاتب الانشاء وبقى هكذا فى مخيم مسعود يرحل برحيله . ويحل بحلوله . وهو يعده باعادته الى دار الامامة حتى كان المعسكر على المراغة فوصل الامير يرنقش قرآن خوان من خراسان برسالة سنجرية كتم سرّها. وأسبل سترها . وهجم على الخليفة جماعة من الباطنية ففتكوا به فى سرادقه . وفجعوا الزمان بسيد خلائفه وخلائقه . وذلك فى يوم الخميس الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٩ فعرف بقرائن الاحوال ان سنجر سير الباطنية لقتله . وما اشنع وأفظع ما أقدم عليه من فعله .

﴿ ولاية أمير المؤمنين أبي جعفر منصور الراشد بالله ﴾

(ابن المسترشد بالله رضى الله عنهما)

قال : فوصل الخبر الى بغداد باستشهاد الخليفة رضوان الله عليه يوم السبت السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٥٢٩ وبويع للراشد بالخلافة وجلس فى منصبها فى ذي الحجة وبقى فى دار الامامية ببغداد قريب تسعة أشهر على ارجاف مزعج للارجاء . وخوف غالب على الرجاء . حتى تفرغ مسعود الى شغله . فشمل بيته بيت شمله . وأخرج بدره من بيت شرفه . وأتى على متلده ومطرفه . وسيأتي ذكر ذلك فى موضعه

قال: فأما السلطان مسعود فانه بعد حادثة الخليفة بالمراغة قبحت سمعته . فذكرته الالسن . ونكرته الاعين . فصار يفكر فى شئ ينفى عنه الظنة . ويستلّ به من القلوب السخيمة المستكنة . حتى سولت له نفسه قتل الامير دبيس بن صدقة . وكان فى القرب منه بمنزلة انسان عينه الذي بوأه الحدقة فرأى انه اذا قتله نسب الناس اليه قتل الخليفة وان السلطان لذلك لم يبق عليه . وكان الامير دبيس المزيدى حضر باركاه السلطان وهو جالس ينتظر الاذن فجاءه من ورائه وهو لا يراه بختيار الوشاق . وأبان بسيفه رأسه وأسال على البساط دمه المهراق . وكان بين استشهاد الخليفة وقتل دبيس شهر واحد . وكانت هذه النوبة أيضاً شنيعة . والفضيحة فظيعة . وشفعت الكبيرة بالكبيرة . واتبعت الجريرة بالجريرة . فتقرحت القلوب وتحرقت . وأسفت النفوس وأشفقت . فلم يكترث السلطان بما كرث . ولم يحدث غماً لما حدث

وطما عباب طماعيته . ولفح شررشرته . وخشيه الاكابر والاماثل . وغشيه الاصاغر والاراذل . فرفع قوانين السلطنة وأبطلها . ومحاسنامحاسنهاوعطلها

فأول مابدأ به بعد حادثة الخليفة انه نهض الى بلاد سكمان فجلب على سكانها البلاء . وأضرى بها الضراء . وخافه ابن سكمان فجفل . ثم بذل له بالذل خدمة حتى قفل . وحينئذ توجه الى بغداد مناصباً للخليفة . ناصبا له وجه الخيفة . فنذر وحذر . وقام وقعد . وأحس بقرب من قتل أباه فأباه وبعد . وكان الامير زنكي بن آق سنقر صاحب الشأم ببغداذ . فحمله على السير منها والاغذاذ . وكان داود بن السلطان محمود قد وصل الى بغداد وزنكي موازره . ومظاهره وناصره . فلما حضرها مسعود وحصرها . ونازل بعسكره عسكرها . رحل داود عائداً الى آذربيجان . وأجفل زنكي راجعاً الى الشام . وقد خاف السلطان وأشار على الخليفة باتباع أثره فما أصغي اليه . ولا سهل خروجه من بيته عليه . ثم استوحش من مقامه بعد ان أقام مدّة على استيحاش . فرحل رحلة آيس ونفر نفرة خاش . ومضى اقبال خادم أبيه معه . وصحبه وزيره جلال الدين أبو الرضاء بن صدقة وخيم بظاهر الموصل متمسكا بحبل قاطعه . ومغترا بسلم منازعه . فان زنكيا لما أصلح أمره مع مسعود سيّبه وخيّبه . وأخذ اقبالا خادمه وحبسه ثم قتله . وأزعج الخليفة فانتقل انتقال المرتاب وتحول تحول المرتاع . وبقي كذلك سنتين لايستقر به مكان . ولا يمكن له قرار . حتى اجتمع بالسلطان داود في آذربيجان . وجاء معه الى محاصرة أصفهان . وختم له بالشهادة عليها سنة ٥٣٢ في ظهر يوم الثلثاء السادس والعشرين من شهر رمضان وكان ذلك في القيظ وقت الهاجرة المتأججة . والقائلة المتوهجة . فهجم عليه

قوم من فدائية الباطنية . فأضجعوه على فراش المنية

قال : عماد الدين وانا اذكر فى صغرى هذا الحادث الكبير وحديثه وتأثيره فى القلوب وتاريثه . وكان ذلك بعقب سنوات اسنات . وشتوات شتات . ومجاعات للجماعات مفرقة . ونوائب نوابى للنوائب محرّقة . وهلك الناس جوعا . وخرج من أهل أصفهان من لم ينو اليها رجوعا . وما كفاهم ذلك حتى نزل عليهم داود بخريت القرى وألحقت بالوهاد وأغلقت أبواب البلد . ووهت أسباب الجلد . وأعيان أهل أصفهان لما أحسوا بالحصار . رغبوا فى الاصحار . وانتقلوا الى ظاهرها وسكنوا حتى فى مقابرها . وهناك بقرب زندروذ عند المصلى قصور عالية مبنية على قبور أكابرها . وكنا نحن من جملة المنتقلين الى بعض قصورنا . وقد عنينا بامورنا . فجاء العسكر المحاصر . في عدد كلّ عن عده الحاصر . وكان عمي بهاء الدين مع داود فى ديوان الاستيفاء واليه وزارة خوارزمشاه ولم يكن مع الراشد وزيره أبو الرضا بن صدقة فان زنكيا احتبسه عنده ثم استوزره فنفذ الى والدى صفى الدين والزمه بوزارته فأبى ثم اتفقت حادثة الراشد فحمدنا الله على ترك خدمته . والعصمة من واقعته . فان والدى رحمه الله حلف ان لايخدم بعد العزيز سلطانا . ولا يتولى ديوانا . فوفى بيمينه مدة عمره . وعاش بعد أخيه نيفا وثلاثين سنة مقبلا على امره . ودفن الراشد فى مدينة جيّ وأفردت له تربة فى جامعها وصار الى اليوم موضع قبره من أشرف مواضعها

وحينئذ تفرق شمل تلك العساكر ورحل داود آخذاً طريق الرى وسار معه والدى واستصحبني وأخي أبا بكر وخلانا فى المدرسة المحدثة

بقاشان وأقمنا بها سنة نتردد الى المكتب ونشتغل بالقرآن والكتب الادبية ثم عدنا الى اصفهان وكلانا لم يبلغ قمره الى الابدار. والوالد سار فى ليل الاسفار.
قال : وأما أنوشروان الوزير فانه ما لبث فى الوزارة . وكان معهد الملك به غير مستتب العمارة . لا لنقص فيه بل لتغير القواعد . وتكدر الموارد . فعزل واعتزل . وما انتقل عن داره حتى تحول الى جوار ربه وانتقل . وجلس للوزارة عماد الدين أبو البركات الدركزينى . قال عماد الدين رحمه الله : وكان نسيباً للقوام الدركزيني من جهة اخواله . وقد حسنت فى ايام دولته حوالى احواله . ورتبه أيام الوزارة المحمودية عارضاللجيش وبقى مستمرافي منصبه . مستقيما على مذهبه . وهو الذى يقول فيه القاضى الارّجانى

دام علاء العماد فهورجاء العباد دام لنا طالعا فهو ضياء البلاد
له يد لم تزل تصدر عنها أياد عيون حساده مكحولة بالسهاد
كأن أجفانها أهدابها من قتاد

ولما رأى السلطان مسعود في عنفوان دولته . وريعان سلطنته . الخلل حالا والحال مختلة . والعلل بادية والمبادى معتلة . استعجز أنوشروان للين اخلاقه . وقرب قمر عمره من محاقه . فرأي صرفه باحترام . وعزله باكرام وظن انه اذا ولى دركزينيا أحيي رسوم الاقتدار . وسطا سطوة الجبار . فولى العماد فما رفع عمادا . ولا عرف سدادا . ولا مشي الا فى طريق السلامة . وقنع بالدست والعلامة . وكان فى منصب الاستيفاء حينئذ كمال الدين ثابت القمي الثابت الكامل الباسل وكان فى زمان عمى من نواب ديوانه . وصنائع احسانه . وكان شهما ناقدا . وسهما نافذا . فأنس السلطان

بروائه . وركن الى رأيه . واستغنى به عن وزرائه . وهو الذى يقول فيه القاضى أبو بكر الارّجاني قصيدة منها

سل النجم عنى فى رفيع سمائه أشاهد مثلى من جليس مبايت
أساهره حتى تكل لحاظه وينسل فى الصبح انسلال المفالت
سقى عهدهم غيث تقول اذا بدا تجلل وجه الارض ورق الفواخت
معلمة الامطار عيني على الثري اذا ماسما إن لم يكن كف ثابت
له قلم ان هزه فى كتابة أبر على سيف الكمى المصالت

قال : وهذا ثابت كان من دهاة الرجال . وكفاة الاعمال . وبمشورته شيدت القواعد . وشدت المعاقد . وولى المقتفي وخلع الراشد . وأما السلطان مسعود فانه بعد خروج الراشد من مقام الخلافة استشار الوزير شرف الدين علىّ بن طواد الزينبي وكان قد اعتقله بعد ماجرى على المسترشد ثم أطلقه واستصحبه وخاطبه فيمن يخطب له فاشار بخير الخلائف والخلائق أبي عبدالله محمد ابن المستظهر فبويع له بالخلافة فى ذى القعدة سنة ٥٣٠ ونعت بالمقتفى لامر الله ووزر له شرف الدين الزينبي واجمع الانام على بيعته . واجتمعت الآمال الظامئة على شرعته . وكر السلطان راجعاً الى الجبل . واثقاً بحصول الامل . وانتهى اليه ان آتابك منكوبرس للخروج عليه مستعد وانه مستجند مستنجد لمجاوريه مستجيد لعدة الحرب مستجد . فانهض آتابك قراسنقر الى أصفهان ليكون على طريق دفعه فسار ومعه برنقش البازدار . وجاولى الجاندار . وسنقر صاحب زنجان وهم العظماء الكبار . وهم اعضاد الدولة وأركانها . وملاك مسكن المملكة وسكانها . ووصلوا الى أصفهان وكان القحط فى الابتداء . فكانوا سبب الوباء والغلاء . وأكلوا ماوجدوه من

الرطب واليابس . وألحقوا الغني بالفقير البائس

قال : وانا اذكر وقد وصل قرا سنقر ووزيره عز الملك ابو العز البروجردى وكان من الشياطين الذين استتبعهم في عصره الدركزينى فقبض بقايا أملاكنا التى أسأرتها المصادرات . وعمد الى شمل جماعتنا ليسرع فيه الشتات . وأقاموا تلك الشتوة باصفهان ثم صح الخبر بوصول آتابكه منكوبرس فعرف قرا سنقر والامراء انهم لا يطيقون مقاومته فساروا الى همذان . ولحقوا بالسلطان . وجاء منكوبرس الى أصفهان . نخلفهم فى الظلم والاظلام . ورعى الغلال قبل ادراكها . وأعجل الارماق عن امتساكها . وأقام مدة . ولقى الناس منهم شدة . ورحل فى أوفر عدة وأوفى عدة . فلما قرب من السلطان مسعود . تحاجز العسكران وباتا علي لقاء موعود . والتقيا بالموضع المعروف بكورشنبه . وصدقا الوثبة . وكانت الدبرة فى الاول على عسكر فارس . فاصبحت فوارسه فرائس . وأسر منكوبرس وأمر السلطان بقتله بين يديه . وكان شجاعاً كريماً فاسفت القلوب عليه . وكان الامير بوزابه من أعظم أصحابه . وأنجم اضرابه . فلما رأى العزيمة . أجلت عن الهزيمة . قال « اذا سلمنا فقد أبنا بالغنيمة » وحسب أن منكوبرس ناج . ولم يدر أن نعيه له مفاج . فلما نعى اليه صاحبه . ضاقت به مذاهبه . وحلف أنه لا يبرح حتى يأخذ بثاره . ويستقبل من عثاره . فعطف على معسكر السلطان مسعود وقد أمن . ووفى له النصر بما ضمن . والمضارب قدشيمت . والمضارب قد أقيمت . والسوابق قد أريحت . والسوابغ قدأزيحت . فبيناهم فى أغفل حالة اذ هجمهم بوزابه واستخرج كل أمير من مضربه . وسد على كل كبير طريق مهربه . وركب السلطان مسعود فأبلى بلاء حسناً . ولم يترك

فى الدفاع عن مهجته ممكنا . ثم ولى ومعه قرا سنقر هزيماً تشله الرماح . هشيما تذروه الرياح . وحصل فى قبضة بوزابه أثنا عشر اميراً منهم صدقة ابن دبيس بن صدقة المزيدى والامير عنتر الجاوانى والامير الحاجب الكبير ارغان وآتابك سنقر صاحب زنجان ومحمد بن قرا سنقر وجماعة آخرون وما منهم الا من قدمه . وأراق دمه . وشفى وتره . ووفى نذره . وذلك فى أواخر سنة ٥٣١

ثم قفل بوزابه الي فارس واستولى على مملكتها . واستقر في ولايتها . وعاد السلطان الى سريره . مسلما لقضاء الله وتقديره . وهو الغالب المغلوب . والسالب المسلوب . وقد بددت عقود سلكه . وبادت سعود ملكه . فجلس لما تم فى المأتم . وعاد الى ما ثم من عادة المأثم . واتخذ سواهم ندماء . ورفع غيرهم امراء

قال : وفى أثناء هذه الفترة كان خروج السلطان داود ومعه الراشد فجرى ما جرى واستشهد الراشد . وانعكست على داود المقاصد . وتمهدت لمسعود القواعد . واتصل بعد ذلك الملك سلجق بأخيه السلطان مسعود فاقطعه بلاد سكمان من خلاط وأعمالها ومنازكرد وارزن واضاف اليه الامير غزاغلى السلاحي مقطع تبريز فقصدها واستصفاها . فاستخرج اموالها واستوفاها واوسعها سبياً وتخريباً . وسام أهلها ظلما وتعذيبا . ومازالت الدولة مضطربة والفتنة مضطرمة . وأيدى الظلم عائثة . والسن الذم عابثة . حتى استجد السلطان وزيرا . استجاد لمملكته تدبيرا . وحكم وأحكم . ونقض وابرم . وهو الوزير كمال الدين محمد بن على الخازن من اهل الرى قال : وكان السلطان استعجز العماد أبا البركات . ووجده فى تسكين الخطوب عديم الحركات .

فصرفه الى بيته على اجمل وجه . ولزم موطنه على رفق ورفه . ولم يفلت وزير كافلاته . وكانت الليالى بالسلامة كافلاته . وشغلته العطلة بصومه وصلاته

وتولى الوزارة كمال الدين وكانت وزارته فى سنة ٥٣٣ ببغداد وفى ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت وفى منصب الاشراف المهذب بن ابى البدر الاصفهانى وفى كتابة الانشاء ولى الدين المعروف بسياه كاسه وفى منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهاني فانشرحت الصدور . وانتظمت الامور . ورتب الوزير لخزانة السلطان أموالا تحمل اليها . وجهات توفر عليها . وأحيي معالم للملك قد دثرت . ونظم عقودا للمصالح انتثرت . وابتدأ بكسر الجبارين وجبر المنكسرين . وقرر مع السلطان سرا . ان ينوى لقرا سنقر شرا . وبذل لقرا سنقر فى وزيره عز الملك أبى العز البروجردى خمسمائة الف دينار على انه يسلمه اليه . ويسلط يد الاقتدار عليه . فاعرض عنه . وما قبل البذل منه . وبخل بصاحبه لمحض الكرم . وما اسعد من اختار الصاحب على الدينار والدرهم . فلما ايس منه اخاف السلطان من عواقبه وقال له «لا يجمع فى غمد سيفان . ولا يظهر لك مع تسلطه قوة السلطان» وقرر معه استدعاء بوزابه من فارس ليفرسه به . ويجر الخلاف الى مذهبه . فاستوحش سر قرا سنقر فاضمر الكيد . واعمل الايد . فاستدعى الملك سلجق ووعده بان يمضى معه الى فارس ويستخلصها لاجله وحمل أيضاً على النهضة معه داود بن محمود وآتابكه اياز وكان من صنائع قرا سنقر

ورحل قرا سنقر عن آذربيجان نحو السلطان مسعود الى همذان ومعه الملكان ومعه من العساكر عشرة آلاف فلما قرب انفذ وزيره عز الملك

البروجردى الى السلطان رسولا . وتحدث معه وقرر سولا . وحمله منه ومن الملكين ومن جماعة الامراء كتبا مضمونها « انا لانأمن جانب الوزير الكمال . وانا لانصبر على ما يبدو منه من الاعمال. فاما ان تعدمه . واما ان تسلمه . فان دفعته الينا فنحن طائعون . وان دافعت عنه فنحن عن انفسنا مدافعون » فلما سمع السلطان ماقالوه . استقالهم فما أقالوه . فحار فى تدبيره . واضطر الى تسليم وزيره . فقبض عليه وسلمه الى الحاجب تتار فاوقع به التبار . وضرب عنقه وذلك في شوال سنة ٥٣٣ فحينئذ وصل قراسنقر ومعه الملكان سلجق وداود الي الخدمة السلطانية . وحمدوه على اتباع تلك الهمة الشيطانية . ورتب قرا سنقر الوزير مجد الدين عز الملك ابا العز البروجردى في وزارة السلطان مسعود وكان شيخا ذا بهجة وبهاء . ولهجة ورواء . ولم يزل مذ عهد السلطان محمد متصرفا مع اكابر الامراء لم يبطل ومتحليا بالولاية لم يعطل . وما زال متدرجا فى الولايات حتى بلغ الوزارة ووجد بعد النزارة الغزارة . فانه كان فى ريعان عمره يخدم شاكردا . ويستعذب فى كل اوان فى خدمة وزير وردا . فتمول الاموال وملك الاملاك وقيل انه كان يجرى فى ملكه ايام وزارته اربعمائة قرية

قال : فنكب الكمال ثابتا المستوفى وقبضه وأعدمه وقيل انه خنقه . واذهب بذهابه بهجة الملك ورونقه . وتولى منصب الاستيفاء بعده المهذب ابو طالب بن ابي البدر ولم يلبث فى منصب الاستيفاء شهرا حتى اختفى بدره فى السرار . وانتقل من هذه الدار . الى تلك الدار . وتولى مكانه ديوان الاستيفاء الكمال ابو الريان الاصفهاني قال : وهؤلاء الذين تولوا الاستيفاء كلهم كانوا من صنائع العزيز وتلامذته وكان فى ديوان الانشاء سعد الدين

الخراساني . وفى منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهانى
فاما آتابك قراسنقر فانه لما قتل الوزير كمال الدين محمد الخازن وجلس وزيره
في وزارة السلطان رحل بالملكين سلجق وداود الى بلاد فارس فلما عرف
بوزابه حضورهم لجأ الى قلعة كل وكلاب وهى بين خوزستان وفارس ودخل
الملك سلجق مدينة شيراز وجلس على سرير الملك بها مسرورا . ونظم من
المصالح ما كان منثورا . وغفل عن القدر فأنس بملكه مغرورا . واراد
قراسنقر ان يخلى عنده عسكرا يحمى حماه . ويعدى على عداه . فحمل الامير
غزاغلى السلاحى وهو مقدم عسكر سلجق حب التفرد والتوحد على اظهار
الغنى عمن يحده . وانه لاحاجة به الى من يسعده . فقال لقراسنقر « انا ما
احتاج الى احد . ولا افتقر الى مدد » فاستحسن قراسنقر منه هذا العزم
وترك الحزم . فصار غزاغلي مستقلا . وسار قراسنقر مستقلا . ومضى صوب
خوزستان . ليعبر منها الى همذان . وسرح الملك داود جماعة من العسكرية
على طريق سواها . للنية التى نواها . فلما وصل الى عسكر مكرم لم يوافقه
الهواء الحوزى فوقع فى القوم وفي دوابهم الموتان . وعجزت القدرة وتعذر
الامكان . فاقام على تلك الصورة . بحسب الضرورة

واما الملك سلجق فانه ظن انه ملك . وان خصمه هلك . وان بوزابه
على كل حال مملوك لايقدم على المسالك . وانه انما فر لانسداد المسالك .
ورجا أيضا من غزاغلى اتابكه انه لايخل بالتيقظ . ولا يخلى ما يجب عليه
من التحفظ . وكان الامر بالعكس . وسقم حاله على النكس . فان آتابكه
اشتغل بالاكل والشرب . واللهو واللعب . فبيناه كذلك اذ هجم عليه بوزابه
وعلى الملك سلجق فقتل وفتك . وأسر وأوثق . ولم ينج من العسكر الا

القليل . ولم يعرج على الخليل الخليل . وقبض سلجق وحمله الى قلعة اسفيذدز وكان ذلك آخر العهد به . ولم يشك احد فى عطبه . فتمكن بوزابه من ملكه وجري على المراد مدار فلكه . واستشعرت الملوك مهابته . وتجنبت الأسود غابته . فلم يركض الى فارس بعدها فارس . ولم ينل الفريسة بها غيره فارس . واما قراسنقر فانه لما انتهى اليه الخبر . وعلم انه لاقدرة له على دفع مانواه القدر . مضى على وجهه مولّيا . موليا ان لا يكون بعدها متوليا . فلما وصل الى برُوجرد صادفه الخبر بان مدينة جنزة وأعمالها قد خسف بها . وان الزلزلة قد هدمتها . وانها خربت حتى كأن الارض عدمتها . وان الكفار الابخازية والكرجية هجمتها . وقد باد من أهلها مقدار ثلاثمائة الف نفس فأمرّوا الباقين الامن احتمى بقلعتها . وآوى الى تلعتها . وذلك مع تشعث سورها . وتهدم دورها . وان الاموال نبشت . وان الخبايا فتشت . فأغذ قراسنقر السير اليها وكان إيوانى بن أبي الليث لعنه الله مقدم عسكر الابخاز قد قرن بالزلزلة الزلازل . وبالنازلة النوازل . وكان قد حمل باب مدينة جنزة وبنى مدينة سمّاها جنزة وعلق عليها ذلك الباب . واغتنم غيبة قراسنقر عن البلاد فسامها العذاب . وذلك في سنة ٥٣٣

فلما وصل قراسنقر عادت دولة الدين . وعادة النصر والتمكين . وظهر أهل التوحيد على أهل التثليث . ونعش الطيب بعثار الخبيث . وواقعهم قراسنقر فهزمهم وثلمهم . وقتل منهم مقتلة عظيمة وخرب البلدة المستحدثة وأعاد باب جنزة اليها وأعادها فى العمارة الى أحسن حالاتها . وأجمل هيآتها . وكان من جملة من هلك بها زوجته بنت الامير أرغان وأولاده فاستولى عليه الهم وعلق به السل . وبقى مدة يتداوى ولا يبل . وتوفى سنة ٥٣٥ بأردبيل

فأكثر المسلمون عليه العويل . وعدموا عنه البديل . قال : وكان لما اتصل به أجله . وانقطع عن الحياة أمله . أحضر جاولي الجندار ونصبه مكانه . وسلم اليه ابنه وجنوده وسلطانه . ووصى اليه بقطع دابر الكفار . ومواصلة برّ الابرار . فتولى ولايته . ووصل بنهايته بدايته . وأنفذ اليه السلطان مسعود الخلعة والعهد . وأجزل له العطاء والرفد . وقرر عليه جميع أعمال قراسنقر بأرّانية وآذربيجان . وولاه تلك المعاقل والمدن والبلدان . ونهض الامير جاولي فى السنة الثانية الى خدمة السلطان فقبل البساط وبسط له القبول . وعرض هداياه وتحفه وطرفه والحمول . فضاق الفضاء الواسع بمضارب جنوده . وخفقت القلوب لهيبة خوافق بنوده . واتصل بالامير عباس صاحب الريّ . ونشر من المودة بينهما ما كان فى الطيّ . وتوافقا وتواثقا ونظمهما طاعة السلطان فى سلك المصافاة

وكان الامير عباس من مماليك جوهر خادم السلطان سنجر والريّ فى أقطاعه وقد نفذه اليها والياً . وكان أمره بها عالياً . فلما قتل صاحبه بفتك الباطنية به ثار عباس للثار وجدّ فى طلبه واستولى على الريّ وأعمالها . وتفرّد بحيازة أموالها . وقوى على السلطانين سنجر ومسعود . واستظهر بمن معه من جموع وجنود . وبمن اتصل به من مماليك الامير الاجل صاحبه وكانوا زهاء أربعة آلاف فى عدد كثير . وجمع كبير . وقصر عزمه على قصد الباطنية وكبسهم فى مواطنهم . وبيتهم فى أماكنهم . وقتل منهم مدة ولايته أكثر من مائة الف حتى بنى من رؤسهم بالريّ مناراً أذن عليه المؤذنون . وأخاف القوم فما كانوا فى عصرهم يأمنون المنون . وكان ذا همة كافلة للرعية بالمعونة فرضى السلطان بايالته . وأقره على ولايته

ولما اتصل جاولى الجاندار بخدمة السلطان وجده حاضراً . والفى روض الرضى به ناضرا . وكان الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الحاكم على الدولة . المهيب الصولة . وكان وسيما جسيما . للسلاطين قسيما . لا يرى الا برأيه . ولا اجابة الا لدعائه . وكان الامير بك ارسلان خاصبك بن بلنكرى أخص الناس بالسلطان وأعلقهم بقلبه . قد اختاره منذ شعف به على صحبه . ولما كبر كان أكبر الامراء . وأعظم الكبراء . واجتمع هؤلاء الاكابر تلك السنة بالحضرة . والدنيا بالنعيم لهم بادية النضرة . وحمل فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الامير عباسا على مباينة عز الملك الوزير . ومعارضته فى التدبير . وأطمعه في تولية نائبه الجمال الجاجرمىّ فى الوزارة وكان شابا مقبول الحركة . مأمول البركة . يرجع الى توسع فى المُرُوّة . وترفع فى الفتُوّة . فاستحكم طمعه في المنصب وقوى قلبه بمساعدة الاميرين عباس وابن طغايرك فتحمل وتجمل . وجد وجاد . واستجد واستجاد . وقرب أن يتم مراده وكاد . فتعصب الامير جاولى للوزير عز الملك . وأعاد نظم جاهه الى السلك . وساعده خاصبك على مساعدته فاستقام أمر الوزير وأجمع الجميع على إبقائه . واتفقت الكلمة على انه لا مضاهي له فى مضائه

ورحل السلطان الى بغداد رحلة الشتاء . واستصحب جماعة الامراء . وعاد عباس الى الرىّ . قال : وأنا أذكر وصولهم الى بغداد فى هيئة عظيمة وهيئة وسيمة في سنة ٥٣٦

قال : وخطب جاولى بنت عبد الرحمن بن طغايرك وتمت بينهما المصاهرة . وتأكدت ما بينهما المظاهرة . وعاد جاولى الى بلاد أرّانية وآزربيجان

مشتد الامر . قوى الظهر . مستبشرا بما تأكد بينه وبين الامير الحاجب الكبير عبد الرحمن من عقدى الوصلة والاخوة . وأقام السلطان ببغداد تلك الشتوة . متوفرا على نيل الطرب وقضاء الشهوة . مستهاما بادناء الدنان . واقتناء القيان . وتقريب المساخر . وابعاد ذوى المفاخر . متكلا على السعادة فى دفع الاعداء فانه لم يزل كاسمه مسعودا . ولم يتصد لعداوته الا من كفى الله شره فاصبح عنه مصدودا

قال : وكان الامير سعدالدولة يرنقش الزكوي من أكابر الدولة وقدمائها . وأكابرها وعظمائها . ومتولى وزارته يمين الدين المكين أبو على العارض . وله الفضل المستفيض والافضال الفائض . وكان سعد الدولة يرنقش متولى أصفهان والامير غلبك نائبه وسعد الدولة للمعسكر غير مفارق . ولما لا يوافق رضاء السلطان غير راض ولا موافق . فكانت أبهة الملك بمقام أبهته قائمة . ونصرة الاقبال بدوام نظر اقباله دائمة . وكانت الخدام الحبوش . لهم الجيوش . والاسرة والعروش . منهم نجم الدين رشيد من مشايخهم وأكابرهم وجمال الدين اقبال الجاندار وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالى ودونهم فى الرتبة عماد الدين صواب وشمس الدين كافور وأمين الدين فرج الدووي وأمثالهم وهم عصبية فيهم عصبية على الشافعية . ويتقربون الى الله بما يوصلون اليهم من الاذية . ونكبوا أصحاب الشافعى بانواع البلاء فى جميع البلاد . وخصوهم بالطراد والابعاد . وحاولوا إخفاء مذهبه فتعالى ظهوراً . وأرادوا إطفاء نوره فما زاده الله الا نوراً

قال : ونكبوا رؤساء المذهب فى كل بلد . ولم يبقوا منهم على أحد . فنهم أبو الفضائل بن المشاط بالرى ومنهم أبو الفتوح الاسفرائنى ببغداد

ومنهم بنو الجندي باصفهان ودخل في مذهب ابي حنيفة جماعة طلباللجاه، وخوفامنهم لا من الله . ومن جملتهم القاضي عمدة لدين الساوى . قال : وكان وزير الخليفة المتقى لما تولى شرف الدين على بن طراد الزينبي وكاتب الانشاء سديد الدولة بن الانباري وصاحب المخزن كمال الدين بن طلحة وتزوج الامام المقتفى بأخت السلطان مسعود فاطمة خاتون . وعزل شرف الدين الزينبي عن وزارة الخليفة في سنة ٥٣٤ وسببه انه استشعر فمضى الى دار السلطان بها معتصما ثم لزم بعد ذلك داره محترما وتولى الوزارة نظام الدين ابو نصر بن جهير وكان الاستيلاء بالعراق لاصحاب السلطان . وليس لاحد بكفهم يدان .

قال: وفي سنة ٥٣٥ خرج الكافر الخطائى واستولى على ماوراء النهر . وكسر السلطان سنجر اشدّ الكسرة ووقع عظماء مملكته في الاسر . وفي سنة ٥٣٨ قتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملشكاه بأيدي الملاحدة بتبريز غيلة . وعاش أيامه من شريد الدهر شريداً ولم يسترح ليلة . وكان قد زوجه السلطان مسعود بنته وأقنعه بتبريز ملازما لبيته . قاعدا فوق تخته تحت بخته ولما خانته في المبدأ السعادة . وفت له في العاقبة الشهادة . وقيل ان الامير زنكي بن آق سنقر وضع عليه من حشيشية الشأم من فتك به . فأمن على بلاده بسببه . وذلك ان السلطان مسعود كان قد عول على ان يسير داود الى الشأم . ويحفظ به ثغور الاسلام . ففزع زنكي وجزع . وسقط في يده من حديث الحادث الذى وقع . وخذله الايد . ولكن نصره الكيد . ووصل خبره الى بغداد فعقد له في دار الخلافة مجلس العزاء ثلثة أيام بحضور أرباب المناصب . وعدت المصيبة بقتله من أفجع المصائب

وفي سنة ٥٣٩ رحل السلطان مسعود الى أصفهان . وكانت دار السلطنة

قد تشعثت فشد منها الاركان . وتغير رأيه فى الوزير عز الملك البروجردي فعزله . ولم يستبق العزلة واستصفى ماله . وشغل بوباله سردوباله . واستوزر مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهاني ونقله الى الوزارة من الطغراء وكانت له زوجة من جواري مسعود تركية سليطة متسلطة . حاكمة عليه . متبسطة فتسلم عز الملك وسلمه اليها فخنقته . بعد ماعذبته وعلقته . فقتل مثل القتلة التى قتل بها الكمال ثابتاً . وكل من كان حاسداً له على منصبه عاد شامتاً . وكان عز الملك البروجردى شيخاً بهيجا بهيا قد جاوز الثمانين سنة ومع شيخوخيته يقطر ماء النضارة من محياه . وكان فى السعادة سعيداً في محياه وكان فى أيام وزارته مرهوب الغرار . مشبوب النار . وكان نائبه فى الوزارة نجيب الدين عبد الجليل السهم المصيب . والشهم المهيب . والسيف الذى يفري . ويفصل ويبري ويفصل بيت الاصول ويستأصل البيوت . ويستنزل من الجو العقاب ويستخرج من قعر البحر الحوت . وقد ضربوا على بغداد الضرائب . ومكسوا المكاسب

قال: وكان رضي الدين أبو سعد مستوفى السلطان . البعيد من الشين البديع الشأن . ممن يغشاه والدى بسبب خدمته لاخيه العزيز فى أيامه . وكان ربيب انعامه . وكان من أوسع صدور ذلك العصر صدراً . وأقلهم شراً . وكان نائبه كمال الدين أبو الريان الاصفهانى من تلاميذ عمى العزيز وغلمانه . ولم يكن أعرف منه بقانون الاستيفاء فى زمانه . لكنه كان خاليا من الادب . عاليا مع نقصه فى أكمل الرتب . وهو صورة بلا معني . وحسن بلا حسنى . وبرق بلا وابل . وطول بلا طائل . وكان عز الملك الوزير مع جهله وشدة بخله . ربما نسمت له ريح أريحية . وسمنت بنفسه روح

تحية . ومن جملة ذلك انه كان بالعراق عميدٌ رازيٌّ تولى سنة . واكتنى ثروة. واستقنى واستغني . وحبا وجنى وخبي . فلما جاء السلطان قيل له « اعمل حسابك » فأحضر المشرف وكان يعرف بابن الحكيم من أهل بغداد وقال « أريد ان تدع المكر منك . وتدعو مكرمتك . وتهتم بأمري وتستأمر همتك . وتحسّن الحسبة . وتحتسب الحسنة . وتكف بكفايتك عنى الايدى والالسنة » فقال المشرف « انا لا اجسر ان استر . ولكل ما اذكر لابد ان اذكر . وعليّ ان اخفى كثيرا مما خفى من الجنايات والجبايات . والاجتذابات والجمالات . ولا بد ان اجمع ما أخذته من المرافق الوافرة . والفوائد الظاهرة » واتفقا على اسقاط مبالغ حتى تقرر ذكر خمسين الف دينار فبذل له الفى دينار على انه يذكرها فى الحشو ولا يبرز بها لعل الوزير يغفل عنها . ولا يؤاخذه بسببها . فأبي الا ايرادها . وتخصيصها بالذكر وافرادها .

قال : عماد الدين حدثنى المشرف بن حكيم قال : دخلنا بالحساب الى الوزير عز الملك فأول ما وقعت عينه فى المجموع . على المبلغ المرفوع . فقال ماهذا فقيل الرسوم التى اخذها . والمرافق التى اجتذبها . فضرب عليه بقلمه وقال « كيف تجيزون ان تجمعوا عليه ما ارتفق به من رسومه وخدمه . هذا بقى على الباب سنتين يتدين ويتمون . فلما شفى ألم أمله . ورفع علم عمله . صار له معلوم . وحصلت له رسوم . فليس من المروة ان نستعيدها وما فوض اليه الشغل الا ليستفيدها » قال : فخرجنا نسحب اذيالنا انا للخجل . والعميد للجذل . وقد رُدَّ الى العمل . فأخذ بيدى وناولنى صرة فيها ستمائة دينار وقال « هذا ما جملته باسمك . وما ضرتنى أمانتك . فاجر فيها على رسمك »

قال : ولما جلس مؤيد الدين المرزبان في الوزارة بدأت الامور في الاختلال . والعقود في الانحلال . وكان قد قنع من الوزارة باسمها . ومن المرتبة برسمها . وكان يروق الناس بشر المحيا . ويروقه الانس بشرب الحميا لا ينافر الا الغواني و لا ينافث الا الاغاني . وكان وزراء الامراء قد غلبوا على امره . وبلغوا الى قدره . فما له قول مسموع . ولا طول متبوع . ولا هو مشكور ولا مشكوّ . ولا مخشي ولا مرجوّ . وخاصبك بن بلنكري هو الآمر الناهي . وهو داهية من الدواهي . وكان وزيره رئيس الدين ابو تغلب بن حماد السهروردي العبيق بريا الرياسة . الابيق برأي السياسة . قد استولى على الامر واحتوى . وتمكن من ورد الملك وارتوي . وكل أمر لا ينفذه لا ينفذ . وكل حق لا يؤخذه لا يؤخذ . وكان كصاحبه مسعودا مصحوبا بالسعادة . ممدودا من المال والجاه بالزيادة

قال : وكانت قد تأكدت بين الامير عباس صاحب الري وبين الامير بوزابه صاحب فارس صداقة صادقة . ومودة أحوالها الحوالى متناسقة . فطمعا في المملكة وزعما ان البركة في الحركة وقال « ان الفرصة خالية . والفرصة بادية . وهذا وقت الارتماء الى العزة . والامتراء للدرّة » فكتب بوزابه الى السلطان اني واصل الى خدمة السرير وخرج من شيراز بالملكين محمد وملكشاه ابني السلطان محمود بن ملكشاه وخرج عباس من الرى بالملك سليمان أخي السلطان مسعود وكتب أيضاً «انى واصل الى جنابك . لملازمة ركابك » فحمل السلطان قولهما على الظاهر . وخاف ما خفي في الباطن من الباطل . وعرف ان أمره معهما غير مستقيم . وانه ان رحلا اليه فهو مقيم . فكتب الى جاولى الجاندار يستدعيه فوجده متجنيا متجنبا بالقبض

على الوزير عز الملك من غير مشاورته . وقلة اكتراثهم به وترك مراقبته في مصادرته .

فلما شعر السلطان بتأخره استشعر حذره وورى عن الهزيمة برحلة الشتاء الى بغداذ . وحث السير بالاغذاذ . ومعه من الاكابر عبدالرحمن بن طغايرك وخاصبك بن بلنكرى ووصل بوزابه وعباس الى همذان على ظن انهما يجتمعان بالسلطان . وهما مبديان للطاعة مخفيان للعصيان . فاقاما بها شاتيين واتصل بهما الامير ناصر الدين خطلبة البازدارى وكان ليثا خادرا . وقسورا قاسرا . وكتبوا الى الامير جاولى الجاندار باذربيجان وقالوا له « انت الكبير . لك التدبير . ونحن اتباعك واشياعك فان قدمت الينا . قدمت علينا . وكنت صاحب جيوش من ينتصب على سرير الملك . وانخرطنا معك طائعين في السلك » فرد جوابهم بجميل واعاد رسولهم بتأميل . واشتغل بحشد الجموع وجمع الحشود . وحشر الجنود ونشر البنود . واتصل به أتابك اياز وكان آتابك داود في حياته وهو مشكور الغناء في مقاماته . وعضده الامير شيربن آق سنقر فأظهر حينئذ النهدة الى همذان . والنهضة الى الناهضين المتسلطين على السلطان . فوجد الطريق مسدودة بالثلوج . فأقام بعسكره مجمعا . وللنهوض عند انحساء الثلوج مزمعا . وتطايرت كتبه الى بغداد لاستدعاء السلطان اليه . واستقدامه عليه . والسلطان في بغداد ساه بسهوه . لاه بلهوه . زاه بزهوه . فلما تنبه من وسنه . ندم على خلع رسنه . ورجع من الحزم الى سننه . ولبى نداء جاولى واجاب دعوته . وعزم على الرحيل اليه وسار على الدربند القرابلى الى المراغة في أوعر طريق . وأعسر مضيق . حتى اتصل بالامير جاولى فكشف من المدد الجم . وكثر من العدد اللمم .

واعجب السلطان الحال وحل به العجب . وانقلب الى القوة وقوى منه القلب. فحسدت الجماعة جاولى وغبطوه . وتحيلوا فى أن يقبضوا عليه ويربطوه. فان ابن طغايرك مع مصاهرته له كان بامكانه متبرما . وكذلك خاصبك كان من استيلائه متوهما . فاجمع الامراء واحتالوا لاغتياله فى سرادق السلطان فاطلع على السر ووقع على مكر المكر . فاحترز منهم وتقبض عنهم واراد أن يبطش بهم كما أرادوا البطش به . ثم جرى فى الحلم والكرم على حسب مذهبه وقال للسلطان «أنا على مناصحتك . وفى منى صحتك . ولا يجمعنى واياك بعد هذا ناد . ولا يسمع تلبيتى فيه مناد» فما اجتمع السلطان وجاولى بعد ذلك الا راكبين . منفردين عن العسكر متجانبين . وقال للسلطان « ان اردت تدانى امني . فتباعد عنى ودعنى انهض بعساكري الي اعدائك واذكرهم بحقوق نعمائك فان أتوا اقبلتهم . وان أبوا اقتلتهم . وان اتبعوا سررتهم . وان ساروا تبعتهم » فاعتذر اليه السطان واستماله . واستعفاه من ذكر ماجرى واستقاله . وحكمه فى الحل والعقد والاقطاع . وامر الجند والامراء بالايتمار لامره وسر بسرور سره . وشرع جاولى فى مكاتبة الملك سليمان وخدعه . ورده عن المقام مع القوم وردعه . وتوثق له من السلطان بيمين . وسير نسخة امان له مع أمين . ففارقهم . وانفصل وانفصم عنهم . ووصل أيضاً خوارزمشاه يوسف واخوه . فاتبعهما للتوجه الاعيان والوجوه . ولما عرف بوزانه وعباس تعذر ماحاولاه . وتعسر مازاولاه . وتفرق الجند الذى جمعاه . تفارقا على مواعدة فى معاودة الجمع . وودعا على موادعة مودعة للطاعة والسمع . وعزم كلاهما على الرجوع الي بلده بنية الرجوع . والغروب فى أفقه على استئناف الطلوع

وكان السلطان عند اتصال أخيه سليمان بجانبه . واستظهاره بكتائبه .

علم ان بوزابه وعباسا يفترقان . وانهما يعدان بانهما يعودان . فرحل بالعسكر الى مدينة سجاس مع جاولى على عزيمة الاسراع والاتباع . والسلطان وخواصه على حالة من الارتياب والارتياع . فقال لجاولى «انهض انت وراء بوزابه فالعسكر والشوكة معه . والرأى مسيرى الى الرىّ لالقى عباسا واقمعه» فمضى جاولى الى همذان ومحمد مسعود نحو الرىّ . فحصل من وردها بالرىّ وغنى بالسعادة عن استعمال المشرفى والسمهرى . وقبض سليمان شاه اخاه وحبسه في قلعة سرجهان . وتلقى ماصعب بالاحتمال والاحتماء فهان

ولما علم بوزابه ان جاولي جاء ولىّ وخلّى همذان وترك اثقاله وخزائنه بها وسار فسار جاولي وراءه جريدةً . وقطع حتى وصل الى القرب مراحل بعيدة . فلما دنا منه ابدي البقيا عليه . واسدى الحسنى اليه . وقال « اتخذ اليوم عنده يدا . لينجدنى عند الحاجة غداً . فهذا السلطان غير موثوق بمواثيقه ولا موفق فى تسديده وتفويقه » وذكر غدرَهُ باخيه سليمان شاه فكتب الى بوزابه وهو على حد الهزيمة كتابامضمونه « انى مصدقك ومصادقك . وموافقك لا مفارقك . وخاطب حبك . وطالب ودك . وقد صرت من حزبك . وما سرت لحربك »

وفاعتمد بوزابه على قوله واعتد بطوله . وملأ ايدى الرسل بالايادى ارسالا . وقال حسنا وحسّن مقالا . وأعاد ما كتب بما كبت الاعادى . وذكر « انى اجبت الداعى ولبيت المنادى . ولم يبق الآن الا التعاهد على الجد . والتساعد على المهد . وعلامة صدقك فى صداقتك انى خلفت خزانتى ثلاثين وقرا من المال الصامت بهمذان فى دار الاثير أبى عيسى فان رأيت ان تأخذها فخذها . وان سمحت بانفاذها فانفذها . اتعلم انى مستوثق منك بشفيق

مسترفق لشقيق » فعاد جاولى الى همذان وتسلم من الاثير ابى عيسى المال .
وسير على جماله تلك الاحمال . وندب معها مائة فارس من عسكره الى اصفهان
وكتب الى الامير غلبك واليها أن يضم لحفظها الي فرسانه الفرسان . فلما
وصلت خزانة بوزابه اليه عقد على الود الخنصر . وزكى فى الوفاء والوفاق
منه العنصر . وتعاقدا على المعاهدة . وتعاهدا على المعاودة . وابن بوزابه يأتى
بالملك محمد بن محمود متى أراد . وان يجعلا همتهما الجمع والاحتشاد . وعاد كل
واحد منهما الى مركزه . واحتمى على السلطان بتعززه . وتأكدت بين
جاولى وبين السلطان الوحشة . ودبت الى أعضاء المملكة بسبب فتور
اعضادها الرعشة . واعتلت العقائد . وانحلت المعاقد . ولما تمادي الامر .
تبدى السر ووقع الشر . فانفذ جاولى الامير تتار الي بوزابه بفارس يستنجزه
الوعد . ويستنجح منه القصد . وأقام بميانج ومعه جميعاً كابر الامراء
والرسل تترى منهم الى الامير تتار لاستحثاث بوزابه بالاستدعاء

وأقام جاولي مدة ينتظر . وفى تدبير الملك يفكر . فكان من قضاء الله
مالم يكن فى حسابه . ودنا الاجل الذي فى كتابه . وكان فخر الدين بن
طغايرك لما عرف توجه الامير تتار الي فارس لاستنهاض بوزابه شخص
اليه بنفسه من جانب السلطان ليصده عن الورود . ويرده عن الصدود .
وتمادى على جاولى المقام له بظاهر ميانج واجتمعت عليه العساكر العظام .
وازدحف اللفيف والتف الزحام . وكان فى اثنى عشر ألف دارع وكانت معه
عساكر ارانية وأرمنية تخيم على زنجان . وحتم على عزم همذان . وكان بيدايده
زمام الزمان . وهو أصم عن حديث الحدثان . وكان قد افتصد . لغير مرض
عرض . ثم تصرف على عادته بيده فبسط وقبض . ونزع فى قس فتألم عرقه

فتألم عرقه وتورم . ودجا أفقه وأظلم . وكان سريان الورم من شريانه . وصعد فيه الدم بعد جريانه . وتجاوز من عرقه الى حلقه وصدره . وانتقل الى بطن الثرى من ظهره . وكانت وفاته بزنجان فى جمادى الاولى سنة ٥٤١ وفى ذلك يقول زين الدين المظفر بن سيدى الزنجانى من قصيدة

عشرون الف مهند قد أصلتت   فلت مضاربها نكاية مبضع

وقيل ان فى الليلة التى توفى فيها جاولى جندار قتل زنكي بن آق سنقر بالشام . وكان كلاهما قطباً يدور عليه فلك الاسلام

قال : والصحيح ان زنكى بن آق سنقر قتل فى شهر ربيع الآخر من السنة على قلعة جعبر قبل موت جاولى بايام . ولكن تدانى موتهما . وتنادى فوتهما . ومن قبلهما كانت وفاة سعد الدولة يرنقش ووفاة قزل أمير آخر وكان قد قتل من قبل ناصر الدين قتلغ ابه البازدارىّ فتقاربت مناياهم . وتبدلت نقودهم بنساياهم . وصاروا أسمارا . وعادوا اخبارا . ولما اخترم جاولى انحلت تلك المعاقد . واختلت تلك القواعد . وتفرق ذلك الجمع . وتشوش ذلك الوضع . وعاد كلُّ طائر الى وكره . وكل صاح الى سكره . وآمن السلطان من أمله . وأقبل اليه من قبله . وعاد الامير تتار الى السلطان ابوزابه متوسطاً . ولتمكينه مشترطاً . وكان ذلك برأي الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك وعملت سعادة السلطان عمله . وقدر الله له مالم يجر بخاطره أمله

قال : وحيث أجرينا ذكر زنكي بن آق سنقر وقتله بالشام في التاريخ

الذى توفى فيه جاولى جاندار بزنجان فانا نذكر جملة من أموره الى ان قضى الله عليه بمقدوره

ذكر زنكي بن آق سنقر فى آخر عهده

قال : كان جباراً عسوفاً . بنكباء النكبات عصوفاً . نمرىّ الخلق . أسدىّ الخنق . لا ينكر العُنْفَ . ولا يعرف العُرف . قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه . مجفوّ لجفوه . عاد عات . حتف عداة ورعاة . لكنما ختم الله له فى آخر عمره بالسعادة وبالشهادة . ووفقه للجهاد الذى هو أفضل أركان العبادة . وهو الذى فتح الرّها عنوة . واحتل بها من السعادة ذروة . وذلك يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فتسني بفتح الرها للمسلمين . جوس بلاد جوسلين . وعاد جميعها الى الاسلام فى عهد ولد زنكي نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ . وأمورها تنتسخ . ومعاقلها تفرع . وعقائلها تفترع . ثم ان زنكي بعد فتح الرها نزل على حصن البيرة وهى على الفرات . وهو مشحون بالفرنج العتاة . فجاءه الخبر بان نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر قتل . فترك الحصار وارتحل .

ذكر مقتل جغر نائب زنكي بالموصل

قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى الب ارسلان وهو في معقل من معاقل سنجار. والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجيّ وهو بالموصل . وكان هذا الملك مسلما الى الامير دبيس بن صدقة فانتزعه منه زنكي في حرب . وأنزل من اكرامه في منزل رحب . وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكي تربيه وتبريه . وتجرى به في حلبة تجريبه وتجريه . حتى بلغ وأدرك . وساكن فطنته تحرك . وفهدته المرأة غير مرة وأنهدته . وعاهدته على الوفاق وعلى الوفاء عهدته . وتأسد الشبل وضاق به عرينه . وشمخ عرنينه . وكان نصير الدين جغر نائب زنكي بالموصل للدماء سفاكا . وبالنفوس فتاكا . يأخذ البرىء بالسقيم . ويلحق الولود بالعقيم . وقيل انه لما أحكم سور الموصل . واحترز بالحفظة منه على المخرج والمدخل . وأعجبه كمال احكامه . وملاك أحكامه . ناداه مجنون نداء عاقل وقال (هل تقدر أن تبنى على الموصل سوراً يسد طريق القضاء النازل) فدار المنجنون بتصديق ما قال المجنون فانه لما أحس من الملك نحس الملك صار يقبض عنانه . ويبسط فيه لسانه . ويقول (إن عقل والا عقلته وان نقل طبعه والا نقلته) فسمع الملك ما راعه . وأسره في نفسه وما أذاعه . فقدر ودبر . وفكّر ومكّر . وجمع اليه من حوله . وقال لهم فكتموا قوله . واتفقوا على انه اذا جاء الى سلام خاتون أو سلامه . أحيط به من خلفه ومن قدامه . فاذا أصابوا منه المقتل . ملكوا الموصل .

فركب نصير الدين بكرة على عادته . وهو يزعم ان ادارة الفلك بارادته . واخترق المدينة ووصل الى الدار التي فيها الملك للتسليم فملكت حشاشته حاشية الملك . وقطعت سلك حياته في طريق الدهليز المنسلك . ومزقوه بسيوفهم ومزعوه . وضربوه بسكاكينهم وبضعوه . ونادوا بشعار الملك واركبوه . وذلك في أواخر سنة ٥٣٩ وتشوش البلد وخاف أهله العاقبة . وحذروا من زنكي سطواته المعاقبة . فخرج القاضي تاج الدين يحيي بن عبد الله الشهرزوري وجاء الى الملك وهناه . وسهل له الصعب مما جناه . وقال له « نحن قدامك . وقد صرنا مماليكك وخدامك . فسر في المدينة واسلكها . وادخل القلعة واملكها » فركن الى قوله . وسكن بحوله . واحدق به الجند كانهم في خدمته . وصوبوا له سداد عزمته . حتى صعد الى القلعة فأجلسوه في المركز . وأحاطوا به احاطة الدائرة بالمركز . والتقطوا مماليكه من حواليه وأفردوه واحتاطوا عليه . ولم ير له بعد ذلك أثر . ولم يسمع له خبر . ولا شك انه بعد ما احتيل عليه اغتيل . وبعد ما استنزل أزيل

وولى زنكي الموصل بعد جغر زين الدين علي بن بكتكين المعروف بعلي كوجك فنظم السلك ونهج المسلك . وتلافى واستدرك . ووصل زنكي بعد ذلك الى الموصل فاستصفى أموال جغر واستخرج ذخائره . واستنظف أوله وآخره . وصادر أهله واقاربه . وأحل بنوابه نوائبه . وسلبهم القوة والقوت . ونوع عليهم جوره المقوت . ثم عطف زنكي على الملك الآخر الب ارسلان فاستخرجه من معقله . وعني بتفاصيل امره وجمله . وضرب له نوبتية ونوبا . ورتب له في حالتي جلوسه وركوبه رتبا . واغرى بتوليا كرامه وتوخيه . وغرضه خفاء ماجرى من هلاك اخيه . وقصد حصار قلعة جعبر وصاحبها

عز الدين على بن مالك بن سالم بن مالك ونازلها. وقابلها وقاتلها . وأحاط بسورها المعصوم احاطة السوار بالمعصم . وربض على ربضها فى مجثم المخيم . ولج فى الحصار وهو مستظهر بالانصار . مستنصر بالاستظهار . ومتكثر بالاستعداد معتد بالاستكثار . مغرور بالدهر . مسرور بالقهر . يظن ان القضاء بحكمه . وان القدر خصم خصمه . وأهل الحصن قد اشفوا منه على الدامغ الدامر . وقد بلوا من وبل وباله بالهامل الهامر . فأتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا . ووافاهم الفرح من حيث لم يكتسبوا

وذلك ان زنكيا كان اذا نام ينام حول سريره عدة من خدامه . يشفقون عليه فى حالتى يقظته ومنامه . يذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه ويزورونه زور الخيال فى احلامه . وهم من الصباح الروق . فى حسن الصباح لدى الشروق . وهو يحبهم ويحبُوهم . ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم . وهم ابناء الفحول القروم . من الترك والارمن والروم . وكان من دأبه انه اذا نقم على كبير ارداه واقصاه . واستبقى ولده عنده وخصاه . واذا استحسن غلاما استدام مروديته بالخصى والسَّل . وفاجأه ووجأه بقطع النسل . فهم على انهم من ذوى الاختصاص . ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص . فنام تلك الليلة اليهم مستنيما . وللوثوق بهم مستديما . وهو صريع الراح . نزيف الاقداح فغلبه نعاسه وملكه رقاده . وحوله مماليكه مُرَدُه ومراده . فانتبه وهم قد شرعوا فى اللعب . وأخذوا فى الشرب والطرب . فزبرهم وزجرهم . ومنعه السكر من الكلام حين أبصرهم . فحرك رأسه يتوعدهم . وهينم بلسانه يتهددهم . ولم يدر ان تحريكه للرأس سبب قطعه . وان نزوله على القلعة بالنازلة خاتمة قلعه . فتولى كبيرهم الامر والباقون ساكتون . وتحرك ورفقاؤه

ساكنون . وكان اسمه يرنقش نخف اليه . وبرك عليه . وفرشه على فراشه وغشيه فى غشاشه . وذبحه فى نومه . ولم يغن عنه ذب قومه . وخرج ومعه خاتمه . وهو لا يرتاب به لانه خاص زنكي وخادمه . وركب فرس النوبة . موهما انه فى مهم . وقد ندب لكشف ملم . وأهل القلعة فى أضيق شدة وأشد ضيق . وكلهم لباس المطيف بهم غير مطيق . حتى أتاهم الخادم فتحدث بما احدث . فأشاعوا قتل زنكي من القلعة . وارتاع الناس لما هالهم من الروعة . وركبوا ولبسوا السلاح . ورقبوا تلك الليلة لامرهم الى الصباح . وزحف بعضهم الى خيمة جمال الدين محمد بن على بن ابي منصور فرمى بالنشاب وحصل من امره فى الاضطراب . فقصد من حماه من الامراء . وشاركه في تصويب الاراء . واتفقوا على ان يبادر نور الدين محمود بن زنكي الي الشام . للحوطة على ثغور الاسلام . فسار معه أولياؤه . وكبراء الشام وأمراؤه . وكبيرهم صلاح الدين محمد اليغبسانى وسار معه أسد الدين شيركوه . وانحازت اليه الاعيان والوجوه . فملك حلب . وبلغ المراد وغلب . وافتض الفتوحات الابكار . واستخلص من الكفار الديار

وأما الوزير جمال الدين محمد بن على بن أبي منصور فانه لما بعد عنه من كان يحذره . وعرف الامر ممن كان ينكره . ضم العسكر واستمال الملك الب ارسلان وأطمعه فى المملكة . وحثه على الحركة . وكاتب زين الدين على كوجك بالموصل على ان يستدعى سيف الدين غازيا اكبر أولاد زنكي وكان لا يفارق خدمة السلطان مسعود بأمر والده . امنا به من غوائل القصد ومكايده . فكتبوا اليه بالواقعة . واشاروا عليه بالمسارعة . فاتفق وصول الخبر اليه بشهرزور . وقد انفصل عن السلطان بدستور . فأغذ السير

واستعجل الخبر وسبق الى الموصل قبل وصول الجماعة . ولما عرف جمال الدين بوصوله سبق أيضا الى الموصل وبقى الملك منفردا فاستوحش . وتشور فى رأيه وتشوش . وركب صوب الجزيرة مفارقا . والى حلبة النجاة مسابقاً فسيروا وراءه من وثق بتوفير أمانته أمانه . وخيلوا له ان قد عاد القوم غلمانه . وان غازيا اذا كنت معه اخذ البلاد باسمك . وجمل الممالك برسمك . وما زالوا يحدثونه بالختر والختل . الى قلت القتل ؟ فانه عاد معهم ودخل الموصل فى استقبال ونثار . واعظام واكبار . حتى دخل الدار . وخال الاستقرار . فما أجلسوه . حتى اختلسوه . وما رسموه . حتى رمسوه . وكتموا أمره . وختموا عمره . وجرى بين جمال الدين الوزير وبين زين الدين على كوجك وسيف الدين غازي التعاقد . على التعاضد . والتعاهد . على التساعد . وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى . وكان باسترعاء ما أولاه الله من نعمه أولى . وانه عاش بنداه الجود . وعشا الى ناديه الوفود . وعادت به الموصل قبلة الاقبال . وكعبة الآمال . فانارت مطالع سعوده . وسارت في الآفاق صنائع جوده . وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلها . وجمع بالامن شملها .

ذكر حال جمال الدين الجواد أبي جعفر محمد بن علي ابن أبي منصور

قال رحمه الله : كان والده من أصفهان الكامل عليّ وهو حاجب الوزير شمس الملك بن نظام الملك وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب ارسلان وابنه الكامل نجيب . أديب لبيب . وزادت أيامه في السموّ . وأيامنه في النموّ . حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء واستضاءت برأيه في الحوادث الاراء . وكان قد زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال الم العزيز فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمدوخرّجه في الادب . ودرّجه في الرتب . فاول مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي محلياً . فبرز في تلك الحلبة سابقاً ومجليا . وغلب في تحليته ذكر الابلج . فنعته الاتراك بالابلج . واستقام في نجابته على المنهج . واتفق انه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشأم تزوج بامرأة الامير الاسفهسلار كُنْدُ غدى وولدها خاصبك بن كند غدى من أمراء الدولة وأبناء المملكة . وهو يسير معها فرتبه الوزير جمال الدين لخاصبك وزيراً فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة . مقبول الفكاهة . شهي الهشاشة . بهي البشاشة . فتوفرت مني زنكي على منادمته . وقصر صباحه ومساءه على مساهمته. وعول عليه في آخر عمره في اشراف ديوانه . وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه . فلم يظهر من جمال الدين في زمان زنكي جود . ولا عرف له موجود

فانه كان يقتنع بأقواته ، وترجية أوقاته ، ويرفع جميع مايحصل له الي خزانة زنكى استبقاء لجاهه ، واستملاء به على اشباهه ، فمكنه زنكى من أصحاب ديوانه ، فمنهم من استضر باساءته ومنهم من انتفع باحسانه ، ولما قتل زنكى صار للدولة الآتابكية ملاذا ، وللبيت الاقسنقرى معاذا ، واستوزره الامير غازى بن زنكي وآزره على كوجك على وزارته ، وحالف له على مظاهرته ومضافرته ، فأجرى بحر السماح ، ونادى حىّ على الفلاح ، فصاحت بافضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا اليه من كل فج عميق ، وقصد من كل بلد سحيق ، وقصده العظماء ، ومدحه الشعراء ، وممن وفد اليه ومدحه أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصيفي المعروف بحيص بيص ، قال : وأنشدني لنفسه من قصيدة أولها

يالِ الصوارم والرماح الذُّبّل ... نصراً ومن أنجدتما لم يخذل
لو شئتما ومشيةً بمشيةٍ ... جاد الزمان وبالعلى لم يبخل
أنا فارس اليومين يوم مقالة ... ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ومنها يصف بناءه لسور المدينة وعمارة قبر

وتقر عين محمد بمحمد ... محيي دريسىْ علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه ... ومعين أمته بجود مسبل .
خرقٌ يناط قميصه ورداؤه ... بعباب زخار وهضبة يذبل

قال : وكنت أنا في ذلك العهد ببغداد متفقها واتفق حضوري بالموصل في ذي القعدة سنة ٥٤٢ فحضرت عند جمال الدين بالجامع فى جمعتين ، وتكلمت عنده مع الفقهاء فى مسئلتين ، ومما مدحته به من قصيدة أولها وذلك من أول نظمى

أظنهم وقد عزموا ارتحالا   ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشي   فلما حال عهد الوصل حالا
أخلائي وهل في الناس خل   به أخلي من الاشجان بالا
لئن لم أشف صدري من حسودي   ولم أذق العدى داءً عضالا
فلا أدركت من أدبي مراما   ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وخدت اليكم بي جمال   ولا واليت مولانا الجمالا
وقائلة أفي الدنيا كريم   سواه فقلت لا وأبي الملالا

قال : ولم يقنع بما جاد به للوفود . حتى زم الى البلاد ركائب الجود . فجعل لكل بلدة من بلاد الاسلام من مواهبه راتباً . وأصبح جوده في الآفاق الى المقيمين سائراً وللطالبين طالباً .

عاد الحديث الى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بعد موت جاولى في سنة ٥٤١

قال رحمه الله : ولما توفي جاولى جاندار طمع الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك في تولي بلاد ارانية وأرمنية وعرف انه لا يتمشى له ذلك مع تسلط خاصبك بن بلنكرى فتوسل في استمالة الامير بوزابه صاحب فارس الى السلطان ليتم له مراده بتوسطه وأرسل الي الامير الحاجب تتار وهو عند الامير بوزابه ان هذا أوان قدومه . وزمان هجومه .

فقدم المعسكر السلطانى فى عسكر ضخم . ومقدم فخم . واتصل به الامير عباس صاحب الرىّ فى عدة وعديد . وبأس شديد . واتفق هؤلاء الثلاثة ابن طغايرك وبوزابه وعباس على تدبير الدولة وتقرير قوانينها . وترتيب دواوينها . وكف عادية المتسلطين عنها . وتوفير حظوظهم بالاستقلال بها منها . فأحوجت السلطان الضرورة الى النزول على حكمهم . ورأى السلامة فى سلمهم . وأقسم على رضاهم ورضى بقسمهم . فاول ما فعلوا انهم عزلوا وزيره . ونقلوا الى الوزير الذى ولوه تدبيره .

ذكر وزارة تاج الدين ابن دارست الفارسى

قال : كان ابن دارست وزير بوازبه صاحب فارس فرتّبه فى وزارة السلطان ليصدر الامور على مراده . ويورد على وفق ايراده . وكان هذا الوزير رفيع القدر . وسيع الصدر . محبا للخير مبغضاً للشر فما فعل أمراً ينقم عليه . ولا احال حالا يتوجه لاجلها اللائمة عليه . ونائبه أمين الدين أبو الحسن الكازروني ذو الدين المتين . والحلم الرزين . والاستهتار باعمال الشر . والاشتهار بافعال الخير . وتولى ديوان العرض والد الوزير عضد الدين وهو جميل مجمل لمذهبه . مهذب مذهب لمنصبه . واقروا ولاية آذربيجان وارانية جميعها على بن طغايرك عبد الرحمن . وقرروا ابعاد خاصبك بن بلنكرى عن السلطان . فسار فى خدمة ابن طغايرك أميرا . وصحبه فى مضمار الخلصاء ولم يخلص في صحبته ضميرا .

وتقرر ان يكون احدالثلاثة بالنوبة ملازمالخدمة السلطان حتى يسلم لهم جانبه. وتؤمن نوائبه . وانفصل الامير بوزابه الى بلاد فارس ورحل السلطان الى بغداد ومعه الامير عباس صاحب الري في شركة مائمة . وهيئة رائعة

قال : ولما قدموا بغداد في خريف هذه السنة خرجت مع الفقهاء لتلقيهم والناس مشتغلون على تخوفهم منهم وتوقيهم . فلما حلوا ببغداد نزلوا دورها وسكنوا للتخريب معمورها . وألهبوا الكروب . وأرهبوا القلوب . وكانت هذه عادتهم اذا وصلوا . وعاديتهم اذا نزلوا . فتمكن الاتراك لايتركون تمكنا من الجهل . وعندهم ان الظلم من العدل . ولكن الوزير نزل في دار الوزارة بالاجمة . متوخيابث المكرمة . وأمر بتجديد عمارة المدرسة التاجية التى بناها خاله الوزير تاج الملك أبوالغنائم بن دارست ببغداد وأوطنها شيخنا شرف الدين يوسف الدمشقي فاحيى دريسها بدروسه . واشرق افقها بنجوم العلم وشموسه . ورتب الوزير في داره مجالس للختمات . وحضور ائمة الفرق وفقهائها للمناظرات . ولم يعارض السلطان في شئ من أوامره وأموره . وابتسمت الدولة باسفاره وسفوره . لكنه مع تقاصر مدته ما أمر ولا أحلى . ولا شغل ولا اخلى . ولا عزل ولا ولىّ . كل ذلك طلباً للسلامة . واستقاء لماء الاستقامة . وعلما بوخم العاقبة . وألم المعاقبة . فلا جرم توفرت الدواعي على حبه . وفرت العوادى من حربه وحزبه

قال : وفي هذه السنة قدم الامير العالم قطب الدين أبو منصور المظفرّ ابن اردشير العبادي الواعظ فاعجز بالفصاحة وأعجب . وشرّق بأنوار البلاغة وغرب . وأنا اذكر وقد حضرت مجلسه وقد وضع له منبر على شاطئ دجلة والسلطان مطل عليه من أعلى مكان والامير عباس صاحب الري جالس

فى شفارته بدجلة بحيث يسمعه . والعبادى يفتن الناس بما يبديه من سحره وبدعه . وحضرت مدة مقامى ببغداد جميع مجالسه أكتبها من لفظه . وأقبل عليه الامام المقتفى وقبله . ورفعه وبجله . وأمره بالجلوس فى جامع القصر فى موضع يقرب من منظرته . ليجلس حيث لا يراه وهو بحضرته . وانبثت بدائهه وبدائعه . واشرقت بنجح مطالبه مطالعه .

ذكر ما جرى من الحوادث التى انحلت بها تلك العقود
واختلت تلك العهود

قال رحمه الله : وصل الخبر بقتل الامير عبد الرحمن بن طغايرك بأرّانية وكان من قدر الله سبحانه انه استصحب معه خاصبك بلنكرى ليبعده عن الخدمة السلطانية غير مكترث به وكان مع خاصبك امر من السلطان سرّاً فى الفتك به ان خلت عرصة . أو أمكنت فرصة . فركب ابن طغايرك يوما لتجهيز العساكر الى غزاة الكرج ووقف منفرداً في ذلك المرج . وهو يسير أميراً أميراً . ولا يمكن من المقام كبيراً ولا صغيراً . وابن بلنكرى واقف لايريم . وهو لبرق مايشيمه من عارض النمد يشيم . ومعه الامير زنكي الجاندار فتقدم وأقدم وضرب رأس ابن طغايرك بسوط حديد شدخه وفشخه . واستصرخ بأعوانه فعدم مصرخه . وضرب بعد ذلك بالسيوف . وتفرقت عنه جموع تلك الصفوف . وتغلب ابن بلنكرى على ارّانية فأحسن

الى الذين ساعدوه . وعقد حبي الحب لهم حين عاقدوه . وامتد الى أردبيل محاصرا وبها الامير آق ارسلان وأخرجه منها بالامان . ثم اشتغل بحصار مراغة لينال منها ماراغ . وحصرها طويلا ولم يجد فيها المساغ

ولما نمي الى السلطان ببغداد خبر قتل ابن طغايرك أحضر الامير عباسا في داره ليخلو به ويستشيره فلما خلا به أمر بضرب رقبته . ورمى جثته . وذلك بكرة خميس من ذى القعدة سنة ٥٤١ فركب عسكر عباس يقدمهم الامير آق سنقر الفيروزكوهي وشقوا مدينة بغداد وساروا. ونهض الاوباش لنهب دار الوزير وثاروا . فأركب السلطان جماعة منعوا من الوصول الي داره . وبقي موقراً موفراً على حرمته وقراره ثم أذن له في الانصراف الى فارس مصحوبا بالصيانة مصونا بالصحبة. مرتب الاحوال حالى الرتبة . فجاء اليه وودع ودعا . ورعى له السلطان حق مارعى وتلا (وأن ليس للانسان الا ماسعى)

﴿ ذكر وزارة شمس الدين بن النجيب الاصم الدركزيني ﴾

قال : وحفظ السلطان حرمة الوزير تاج الدين فلم يتسم شمس الدين الوزير بوزارته . حتى انصرف الوزير بجاهه وماله وحرمته . وحشمته ونعمته . ولم ير وزير للسلجقية صرف ولم ينكب فى نفسه أو فى ماله سواه ولانه كان يرجو منه استمالة الامير بوزابه وتحصيل رضاه . فانه لم يشك فى حركته. والابتلاء بمعركته . فضمن له تاج الدين بن دارست ان يكفيه أمره

ويكف شره . وكان هذا من دهائه لينجو من الداهية . ويستفيد الاحكام لقواعده الواهية . فرحل فرحا للسلامة . ظاعناً من وطنه الى دار المقامة . فاستقل بالوزارة حينئذ شمس الدين أبو النجيب وكان من قبل يخدم ابن بلنكرى فلما سار أقام يخدم الامير الحاجب تتار . مستديما لعود مخدومه الانتظار . فرغب السلطان فيه لاجل اختصاصه بخاصبك ولم يكن فيه من أدوات الوزارة الا كونه للقوام الدركزيني نسيبا . فحاز من منصبه نصيبا . وكان بزمانه شبيهاً . وفى مكانه نبيها . لائقا بالقوم . موافقا للسوم . يطلب مرافقهم فى مرافقهم . والتخلق بخلائقهم . والسلطان لاه بالملاهى . متناه في المناهى . لايسأل عما يفعل ولا يفعل مايسأل . ولا يقبل مايقال ولا يقول مايقبل . وعنّ للسلطان ان يحرك ساكن الوصل بابداء عزمه اليها . واظهار عوجه عليها فبادر متولوها بحمول . وتحف وهدايا وخيول . فقبلها منهم . ورضى عنهم . وأقام ببغداد باقي تلك الشتوة فلما رحل ضيف الشتاء حل السلطان حبوة مقامه . وأمر خبر خروج بوزابه صاحب فارس ما أحلاه من احلامه . نخفقت القلوب والبنود . وقلقت الجنوب والجنود . ثم اغذ السلطان مسعود الى همذان سيره ليسبقه اليها . قبل اطلاله عليها . فانها مقام ملكه . ونظام سلكه . وطير الكتب الى خاصبك ابن بلنكرى وهو على حصار مراغة ليقدم تلك المساكر . ويقدم اقدام الليث الخادر

وأما بوزابه فانه لما نمى اليه عباس وعبد الرحمن قامت قيامته . وغامت غمامته . وكدر عيشه . وكثر طيشه . وجاش جاشه وجيشه. ونهد بالملكين محمد وملكشاه ابنى محمود وأقبل بهما كالنيرين . من جترهما فى فلكين . فلما

قرب من اصفهان تلقاه صدر الدين ابن الخجندىّ وفتح له أبوابها . وحمل
على الاصحاب له أصحابها . فدخل دار مملكتها . ومقر سلطنتها . وأجلس
الملكين على السرير الالب ارسلانىّ . والتخت الخسروانىّ . ثم خرج بهما
على سمت همذان وهو لا يشك انه اذا بلغ غلب . واذا بسل سلب . فوصل
الى مرج قراتكين وهى من همذان على مرحلة واتصل به ابن عباس صاحب
الرى فلما عرف السلطان مسعود قربه . حزّب حزبه . وقوّى قلبه . وطير
الى ابن بلنكري كتبه . وضيق في التأخير عذره ووسع عتبه . فوصل وقد
حم اللقاء . وحق البلاء . فقوى السلطان وتسلطت قوته . . واحتبى بالشدة
واشتدت حبوته . ولما تقارب الفريقان . باتا ليلتهما يعبّيان . وبحرهما يعب .
وجمرهما يشب . وريحهما تهب . فلما بدا الصباح خلف من العجاج الليل ليل .
وانجر على المجرة من مجرى المجرين ذيل . وطما بما سل من الجفون سيل
وطلع فى كل أفق من لمع اليمانى سهيل . والتقى الصفان . وتلاطم البحران .
وصال الحديد على الحديد . وصل الحديد فى الحديد . وكادت الكسرة تصح
على مسعود . وبقى قلبه ثابتاً بين طارد ومطرود . وبوزابه قد تهور وتهجم
وحمل على القلب ليقلبه بحملته . ويميز تفصيله بجملته . فكبا به الفرس ففُرِس .
واختلسه القدر فقدر عليه واختلس . وحمل الى السلطان أسيراً . فخاطبه
وعاتبه كثيراً . فلم ينبس ببنت شفة وأراد السلطان الابقاء عليه لشهامته . فأبى
ابن بلنكرى الا فش هامته . فأمر السلطان بالاضراب عن رِقبته . وضرب
رَقَبته . وأمر بحمل رأسه الي العراق . وأن يطاف به فى جميع الآفاق . وانجلى
الغبار عن ابن عباس قتيلا . وانهزم عسكر فارس والملكان موليان لا يلويان .
وموليان لا يليان . وجلس مسعود للهناء وخص خاصبك بالاصطناع

والاصطفاء . وعظمه على الامراء . وأمره على العظماء . وذلك في سنة ٥٤٢

ذكر ماجرى باصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه

قال رحمه الله : كان نجم الدين رشيد النيائيّ والى اصفهان من قبل السلطان وهو متعصب على الشافعية فلما تم من صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجنديّ الى بوزابه الميل . بادر بالارسال الى اصفهان للايقاع بمن خرج على السلطان وعلم ابن الخجندى فخرج منها وزحف العوام الى المدرسة فنهبوها وأحرقوا دار كتبها وتشتتت بنو الخجندي فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل . وأوردهما جمال الدين الوزير من انعامه واكرامه المنهل المنهّل . ومضى جمال الدين الى الحج . وأقام صدر الدين وبحر جود الوزير له متلاطم اللج . ثم انصرف عنه مملوّ الحقائب . محبوًّا بالمواهب . وعمل فى جمال الدين ابياتا من جملتها

جئت الى بابك فردا وقد   خرجت من نعمائك فى قافله

ووصل الي اصفهان فتوفر اهلها على خدمته . وافترضوا اقامة حرمته وأما جمال الدين اخوه فانى لما عدت الى بغداد لقيته وقد عاد من الحج فى صفر سنة ٥٤٣ . وكان قد عزم والدى على العود الى اصفهان فصحبناه وجمعتنا الطريق ووجدناه نعم الرفيق . ثم تفارقنا وسار هو مع قافلة همذان . وسرنا مع قافلة اصفهان . ثم وصل الخبر بان السلطان رضى عنه وعن أخيه وخلع عليهما . وأعاد الرئاسة اليهما . ثم وصلا . وعلى اضعاف ما كان لهما من الحشمة حصلا .

ذكر بعض الحوادث

قال : في سنة ٥٤١ حج ابن جهير وزير الخليفة المقتفى فرتب صاحب المخزن قوام الدين بن صدقة وزيراً . وكان بيته أثيلا أثيرا . ورتب فى المخزن عوضه زعيم الدين يحيي بن جعفر ورتب بعد ذلك يحيي بن محمد بن هبيرة صاحب الديوان . وفى سنة ٥٤٣ مات قاضى القضاة ببغداد يوم النحر وهو فخر الدين على بن الحسين الزينبي . ورتب بعد ذلك عوضه عماد الدين بن الدامغانى

قال : واما السلطان مسعود فانه أرسل الى ابن أخيه الملك محمد بن محمود بعد قتل بوزابه فاستدعاه . ومنّ عليه ومنّاه . وزوجه بنته . وعهد اليه فى الولاية وولاه عهده . ثم ملّكه خوزستان ولما امن ابن بلنكري من الجوانب عمد الى الامير الحاجب تتار وقبضه وأوثقه . وأنفذه الى قلعة سرجهان واعتقله بها ثم خنقه . وصفا له الجوّ فباض وصفر . وضفا عليه الضوء فاجتلى الظفر

قال : وفى شهر ربيع الاول سنة ٥٤٣ وصلت شعبةٌ من أكابر الامراء ومعهم الملك محمد الى بغداد محاصرين . وعلى خذلان السلطان مسعود لشقوتهم متناصرين . منهم شمس الدين ايلدكز والامير قيصر وملك العرب على بن دبيس وغيرهم . فحضروها وحصروها . فخرج أهل بغداد لردهم فأفرجوا عنهم . حتى اصحروا فكروا عليهم كرة اردتهم . وما ابقت عليهم بل أفنتهم . وكانت بالقرب منهم حُفَر الغسالين . وتنانير الآجُريين . وأتاتين الجصاصين . فما نجا الامن آوى اليها . وقتلوا زهاء خمسمائة نفس وجلّ رُزْء بغداد بأهلها . وأمضها ما دهاها من شغلها . ثم طلبوا من الديوان العزيز

ثلثين ألف دينار ليرحلوا . وفصلوا الامر على المبلغ لينفصلوا . فاستشار الخليفة الوزير وأرباب المناصب فى انه هل يبذل لهم الذهب . وهل يحتمل للراحة منهم التعب . فما فيهم الا من عجل بالعذل . للتأنى فى البذل . فاخرجت العين . فأشار ابن هبيرة وهو يومئذ صاحب الديوان بضد ما أشاروا . وصار من الراى الى غير ما صاروا . وقال للامام « هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان . وجاهروكما بالعصيان . فاجعل بالله الاستجارة . وقدم منه الاستخارة . وأنفق ما عزمت على بذله لهم . فى عسكر يقاومهم ويدفع شرهم . فانك ان دفعتهم بالعطاء لم تسلم من عتب السلطان مسعود . وان هزمتهم باللقاء قلت له انى فللت جنود عصيانك من أهل طاعتك بجنود . وأنت لا تحمد على ما تحمل . ولا تشكر على ما تعمل »

فقبل الخليفة رأيه ولم ير خلافه . وجمع حينئذ وجند . وحشر وحشد . واستخدم من البطالين ابطالا من المقاتلة المقابلة المبطلين . وفرق المال ومال اليه الفريق . وأنفق فنفق فى سوق تفويقه التوفيق . وصار من ذلك اليوم للخليفة جند مهيب . ونار لها فى أفئدة العدى لهيب . فردّ هؤلاء الارديا بالحد الحديد . والجد الجديد . وقال « انى أري المشورة الهبيرية أريًا مشوراً . وصوب صوابه لريّ الرأى مشكورا » . فجاء به وزّر عليه جيب الوزارة . ولم يزل عنده مودود الشارة . مقبول الاشارة . وذلك يوم الاربعاء الرابع أو رابع عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٤٤ . فشرع فى نصر أمر الشرع . رحيب الصدر والباع والذرع . وأكرم الفضلاء . وفضل الكرماء . وعاش فى وزارتى المقتفى والمستنجد ست عشرة سنة وشهرين . قرير العين . أيد اليدين

وكان به عمش . وبوزير السلطان طرش . وأمر الدين والدولة بهما منتظم . وشعب الخلافة والسلطنة بكفايتهما ملتئم .

ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه الى الرىّ

في أواخر شعبان سنة ٥٤٤

قال رحمه الله : لما عرف سنجر ما تم بالعراق من اغتيال النفوس . واقتطاف الرؤس . واستيلاء خاصبك على خواص الاولياء . واغضاء السلطان في مهد الاغفال . وخدعه بالالطاف خدع الاطفال . قال « لابد من الادراك والاستدراك . والامساك والاستمساك . وتهذيب المستعلى . وتعذيب المستولى . واخفاء الشر اللائح . واطفاء الشرر اللافح » فنهض على كبر سنه ووصل الى الرى في صميم الشتاء وقرها في قره فأجفل مسعود من همذان راحلا على سمت بغداد فثنى عنانه شرف الدين الموفق كردبازو وقال له « أنت لسنجر مقام الولد . والاولاد ببر الآباء فازوا . وما أسعدهم اذا حصلوا رضاهم وحازوا » فسار الى الرى معه . وأبى ابن بلنكرى أن يتبعه . وأقام هو والوزير الاصم بهمذان فلما بصر سنجر بمسعود قدمه وأكرمه . وقر عينا به وقربه . وتحدث معه بما نجيه . ورضى عنه وماعتبه . ونسى كل ماذكره . وادبر عن كل ما دفعه . وشفع السلطان في خاصبك فأجابه . وذكر له فعله فاستصابه . فما أمر بمعروف ولانهى عن نكر . ولا أبدل شكوى بشكر . ولا كشف ظلامة . ولا كف قلامة . لكنه ودع ابن أخيه وعاد .

واغذ الى خراسان التأويب والاساد . ورجع السلطان واستصحب خاصبك والوزير الاصم معه الى بغداد. وأقام تلك الشتوة بها فى رفاعة وفراغ . وصباح صباح ومساء مساغ . وكان مع سنجر كبراء أمرائه مثل المؤيد يرنقش هريوه والفلك على البحتري وسنقر العزيزى وغيرهم من عظماء عسكره وخواص معشره

﴿ ذكر حوادث فى تلك السنين ﴾

قال رحمه الله : وفى السادس من شهر ربيع الاول سنة ٥٤٣ نزل ملك الالمان بجمع عظيم من الفرنج على دمشق وحاصرها وأشرف المسلمون فيها على اليأس ثم منعها الله تعالى ورحلوا عنها بعد أربعة أيام خائبين هائبين . خاسئين خاسرين . وفى أوائل جمادي الاولى من سنة ٥٤٤ توفى الامير غازى بن زنكى صاحب الموصل وتولي أخوه قطب الدين مودود . وجمال الدين الجواد وزير على حاله وزين الدين عليّ كوجك متولى العسكر ورجاله . وتوفى الحافظ متولي مصر فى خامس جمادي الاولى من هذه السنة . وتولى بعده ولده الظافر . وفى موسم سنة ٥٤٤ وقعت زعب ومن تابعها من العرب على قافلة الحج عند قفولها من مكة الى المدينة فاهلكت الناس . وأحلت بهم البؤس والبأس . وعظم مصاب المسلمين فى الآفاق . ونجا من الآلاف آحاد بآخر الارماق . وفى الحادى والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ كسر نور الدين محمود بن زنكى على انب من الشأم ابرنس انطاكية

وقتله وحز راسه . وشد بتلك النصرة للاسلام قواعده وآساسه . وفى سنة ٥٤٥ أسر التركمان جوسلين وسلموه الى نور الدين ونزل الملك مسعود ابن قلج ارسلان على تل باشر وهى مع جوسلين ونزل نور الدين بعد أسر جوسلين على قلعة عزاز وفتحها بالامان . وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٥٤٦ تسلم الامير حسان المنبجي تل باشر بالامان . وفى سنة ٥٤٦ أغار عز الدين على بن مالك صاحب قلعة جعبر على أطراف الرقة ففزعوا اليه وأدركوه وقتلوه . وجلس مكانه في القلعة شهاب الدين مالك ولد عز الدين .

ذكر ماتجدد من الملك ملكشاه بن محمود

ووفاة السلطان مسعود

قال : اغار فى ربيع الاول سنة ٥٤٥ ملكشاه بن محمود على أصفهان وساق بعض مواشيها . وصار يناديها بالاخافة ويناشيها . وكان فيها نجم الدين رشيد واليها . فانهض السلطان اليها شرف الدين كردبازو وضم اليه جماعة من الامراء . فلما وصلوا الى أصفهان راسلوا الملك ملكشاه وقبحوا له مااستحسنه . وتحركوا اليه بما سكنه . وتحمل له رشيد بمال حمله وسيره اليه ورحله . ونزلت السكينة وسكنت النازلة . وأسبل الامن وأمنت السابلة . وشتى السلطان مسعود سنة ٥٤٥ ببغداد غائصا مع لذاته فى لذاته قانصاً من العيش فرصاته . ثم رحل عنها رحيل مودع فلم يعد بعدها الى

العراق وترافق السلطان وخاصبك ولم يتفارقا . وتوافدا على الترافد وتوافقا وكان خاصبك فرحا باختصاصه . ومنذ كان ماالخلى صاحبه من حبه واخلاصه . فوصلا الى همذان وانقضت سنة ٥٤٦ صافية عن القذى . كافية للاذى . ماضية مع الغنى . مضية السناء . ولم يعلما ان سنة سبع بسنها كالسبع عضوض . وان كل ماأبرمه اليوم الزمان غداً منقوض . وان الحياة مختومة وان الوفاة محتومة . وان عمران العمر مهدوم . وان سر القضاء مكتوم . فلم يزل مسعود مسعوداً حتى عاجله القدر . وماأجله الاجل . وأصابته علة الغثيان والقئ فما سلمت حتى أسلمت نشره الى الطىّ . وشمسه الى الفيء . وجمد فى آخر جمادى الآخرة ذوبه . وخمد ضرامه وأقلع صوبه . وكان مسعود ضخم الدسيعة . جم الصنيعة . لكنه يصطنع الاراذل . ويرفع الاسافل . وكان كثير الاتكال . على استمرار الاقبال . قليل الاحتفال . بمكايد الرجال . دائم الاغضاء عن ذميم الفعال . لايضمر لعدو سخيمة . ولا يقبل فى ولى نميمة . واتفق قبل وفاته ان اخاه سليمان شاه كان بقلعة قزوين معتقلا . وكان عليه بالحوط مثقلا . فواطأه مستحفظها . ووفق الخادم على الخروج بعد موت أخيه لطلب السلطنة . واتصاله بذوى الايدى المتمكنة . وكان الملك ملكشاه بن محمود . قد اتصل بعمه مسعود اليه لاجيا . ولآلائه راجيا . وقد أجمل اليه . واشتمل عليه . وهو حاضر حين حضره الحين . وغارت وغاصت العين والمين . ولابد ان يقطع بين المتواصلين البين . ودفن بهمذان فى مدرسة بناها جمال الدين اقبال الخادم الجاندار

﴿ ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود ﴾

قال : لما توفى عمه اجتمع العسكر على نصبه . وعقد حبي الاعتقاد لحبه . وأجلسوه على السرير وأطاعه الامراء وأئتمروا بطاعته . وتيمنوا بيومه وسعدوا بطلعته . وتفرد ابن بلنكرى على عادته ومساعدة سعادته . بالامر والنهى والحل والعقد . والقصر والمد . والقبول والرد . والميل الى جمع المال . وجباية الاعمال . والحاق ذوي الاثراء بذوي الاقلال . واشتغل ملكشاه بالانهماك فى القصف . والانهتاك بالعزف . وفوض الامور كلها الى ابن بلنكري . وكان من فلك ملكها فى أوج المشترى . واعتاق بنجحه . ووثق بنصحه . وما درى انه يخسر من ربحه . ويظلم يومه بطلوع صبحه . فان ابن بلنكري طرب فبطر . وخطر بضميره ان يضمر الخطار . وجمع الامراء وكبيرهم الحسن الجاندار وقال لهم « هذا سلطان لا يفلح . والملك لا يصلح . فانه غرٌّ ذو غرور . وغمرٌ جاهل بالامور . قد شغلته الخمر عن الامر . وأغناه الحشف عن التمر . وأنا أرى من الصواب ان نخليه . ونستدعي أخاه محمداً ونوليه » فعلم الامراء ان خاصبك كالباحث عن حتفه بظلفه . والجالب النكر الى عرفه . وكانوا قد كرهوا استيلاءه . وسئموا استعلاءه . فوافقوه على الرأى الرائب . وعدوه من المواهب . وقالوا لعل الملك اذا تولاه حازم جازم . وعاقل بمصالحه عالم . انتحى له من هذا العادى . وشفى بصداه غليل الملك الصادي . فقالوا لخاصبك « عجل هـذا الامر قبل ان يفطن به فنأيس

من نجح مطالبه » فقبض ابن بلنكرى ملكشاه فى دار الحسن الجاندار وهو فى ضيافته . فقراه بآفته . واعتقله ببرج همذان وكان قد أنفذ الى الملك محمد بن محمود جمال الدين ايلقتشت بن قايماز الحرامىّ ونفذ ابن بلنكرى لاستحلافه الامير مشيد الدين بن شاهملك ومعه وزيره الكمال ابو شجاع الزنجانىّ المعروف بالتعجيلي فخانوه فى الرسالة . وحسنوا للسلطان محمد ضد ما أراده ابن بلنكرى من الحالة . وقرروا معه قتله يوم الوصول . وقالوا له لا تقبل غير هذا الرأى لتحظى بالقبول . وعادوا وقالوا لابن بلنكرى « انا قد حلفناه واستوثقنا منه بالايمان . وأكدنا أقسام القسم بحيث يكون حنثه ارتداداً عن الايمان » فوثق بامانتهم وأمن للوثوق بهم وأرسل واسترسل . وعجل واستعجل . وأما ملكشاه فانه تخلص من اعتقاله . وخرج نجمه من بيت وباله . وكانهم توانوا فى حفظه . ووكلوه الى حظه . وكما أغفلوا الاحسان اليه . أحسنوا بالغفلة عنه . ولم يكن لهم عنده ثار فيحملهم على الانتقام منه . وصرحوا بهربه . ولم يعرضوا بطلبه . ولم يلبث في سلطنته الا شهرين أو ثلاثة ثم تقلبت به الاحوال الى ان استقر بخوزستان ملكا . وفى سلك سلوك نهج السلامة متسلكا

ذكر جلوس السلطان غياث الدنيا والدين أبي شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه

(فى أواخر سنة ٥٤٧)

قال : وقدم السلطان محمد همذان فى عدة يسيرة ، وعدة غير كثيرة ، فتلقاه خاصبك بلقائه مستبشراً ، وبوفائه مستظهراً ، وبصفاء وده ، وقناً ، وبصفات مجده ، مؤمنا ، والى دينه راكنا ، والى يمينه ساكنا ، وحمل اليه ما تجمل به من آلات الملك وأدواته ، ومخبيات المال ومدخراته ، وخيمه وسرادقاته ، والخيل العراب ، والعروض والثياب ، فملقت بالنفوس نفائس أعلاقه ، وسكن المسكين الى وفاء السلطان ووفاقه ، وخرج له من قشره ، وأرج منه بنشره ، ولقيه السلطان بوجه له باشر ، ولسان لحمده ناشر ، لكن ضميره للشر مضمر ، وفكره للفتك به مفكر . ثم انه فى اليوم الثالث من قدومه جلس فى أعلى القصر واستدعى ابن بلنكرى لمسارته فى التفويض ومفاوضته فى السر ، فجاء ومعه الامير زنكى الجاندار والامير كشطغان المعروف بشملة ، فلما حصلوا على سلم القصر عرف شملة العملة ، ورأى أمارات لا توافق المراد ، فعاد وجذب ذيل ابن بلنكرى ليعود فما عاد . ونزل وقد رهب ، فركب وهرب ، وأما ابن بلنكري وزنكي فانهما صعدا فأمر بحز رأس ابن بلنكرى ورمى بجثته الى الميدان ، وضربت أيضاً رقبة زنكي الجاندار وكان كبير الشان ، وارتاعت القلوب وارتابت النفوس ، وذرفت العيون وأطرقت الرؤوس .

ومما يعتبر به المستبصر ويستبصر به المعتبر ان خاصبك خلف أموالا لاتأكلها النيران. ولاتحويها الحسبان . ومن جملة ماوجد له الف ثوب وسبع مائة ثوب أطلس عتابيّ فكيف غيره من الالوان . وطلب له كفن فى ذلك اليوم فلم يوجد . وبقى على حاله ولم يلحد . وما ألقى عليه رداء . ولم يبذل له فداء . حتىٰ جيء له من سوق المسكر الكفن والقطن . وتهيأ لمن تولى أمره حسبة لله الغسل والدفن . فيا بعداً للدنيا ماأكدر صفاءها . وأغدر وفاءها. تخيف من آمنها . وتزعج من سكنها . وتقتل من أحياها . ولا ترعى من رعاها.

وأما السلطان محمد فانه ظن بعد قتله أن الموانع قد ارتفعت . والمنافع قد اتسعت . وأن الامراء النافرين منه بسببه يجتمعون . وعلى نصره يجمعون والى جنابه يفزعون . وكان وزيره فى خوزستان الوزير جلال الدين بن القوام أبى القسم الدركزينى وقد أبقاه على وزارته . وجرى ما جرى بمشورته واشارته . فأشار عليه بأن يسير رأس خاصبك الى الاميرين الكبيرين شمس الدين اتابك ايلدكز ونصرة الدين خاصبك بن أق سنقر صاحب مراغة . وظن انه يعجبهما اتلافه . ولا يسوءهما عصيان السلطان وخلافه . فلما وصل اليهما الرأس هالتهما حالته . وأعيتهما فى هذه العشرة اقالته . وقالا «لقد أقدم على فتك عظيم بعظيم . ولقد الام الكريم بظفر لئيم . أما كان استوثق منه باليمين . أما استمسك من وعده بالحبل المتين . واذا كان هذا الملك الاكرم ابن الملوك الاكرمين مجترئاً على مثل هذه الجرائم . ومستصغراً لامثال هذه العظائم . فقد عز العزاء . وخاب الرجاء . وجل المصاب وعظم البلاء» فمالا عنه . ونالا باللوم منه . وأرسلا اليه «انك أخطأت . وزعمت انك أصبت. وماشق قلب اليك . وان وثقتنا فانك باليمين التى حلفت بها له تحلف . ولمثل

الوعد الذي أخلفته منه تُخلِفُ » فليس لنا بك المام . ولالك معنا كلام

ذكر ماجرى للسلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه وجاوسه على سرير السلطنة

قال رحمه الله :كان لما خرج من مجلسه بقزوين . ووجد التمكن والتمكين . خرج به مظفر الدين الب ارغو بن يرنقش البازدار الى زنجان. وكاتب فيه الاميرين شمس الدين ايلدكز ونصرة الدين صاحب مراغة وهما في أمره متروبان فلما نفرا من محمد وتذمما وتذمرا سارا بعساكرهما الى زنجان طالبين لخدمة السلطان سليمان وحملاه الى همذان . وأجفل السلطان محمد فى شرذمة يسيرة الى أصفهان .فاستقر سليمان على سرير الملك وكان معه ينالتكين خوارزمشاه وأخوه يوسف وأختهما زوجة السلطان سليمان وهي لامره متولية .وعليه مستولية .وكان سليمان وزيراً شرّيباً خمّيراً .اذا سكر وقع صريعا .ونام أسبوعا . كلما رفع رأسه لاذ بالعقار .ثم لاث خمارا لخمار. وكان يقلى لانه لايلقي . ويشق عليهم انهم لايسعدون به وهو يشقي . وكذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر ابن الوزير المعين أبى نصر أحمد بن الفضل بن محمود القاشانى لايصحو ساعة.ولايمحو عنه شناعة .وهو أشبه بسلطانه.وكلاهما اليق بزمانه. فضجر الامراء الا كابر منهن للمقام .وشرعوا فى الانفصال والانفصام. وعاد شمس الدين ايلدكز الى آذربيجان لقصد أرانية وانتزاعها من يد روادى ابن عم ابن بلنكرى . وعزم نصرة الدين

آق سنقر على العود الى ولايته ثم ان الامراء الباقين بعد رواح شمس الدين ايلدكز قرروا مع نصرة الدين . وانتقلوا الى مرج قراتكين وخلوا السلطان مع خواصه بقصر همذان واجتمعت اراؤهم على قبض الوزير وأرادوا اتباع ذلك بقبض خوارزمشاه ينالتكين . والسلطان سليمان كان حينئذ قد نكح زوجة أخيه بنت ملك الكرج ودخل بها وهو فى عرس وانس فجاءت اليه أخت خوارزمشاه زوجته وقالت له « ان لم تأخذ لنفسك أخذت نفسك . وطال حبسك . ومضى غداً يومك . ورجع فى التطبق عليك أمسك» فهرب ليلا معها ومع أخويها وترك خاتون الابخازية وقد بنى عليها وأصبح الامراء وقد فقدوه . ونشدوه وما وجدوه . فتولت العساكر الى ولاياتها . وغابت تلك الاسود الى غاباتها

﴿ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه﴾ ﴿الى مقر ملكه بهمذان بعد غيبة سليمان﴾

قال : لما وصل السلطان محمد الى أصفهان . منحازا عن عمه سليمان . كاتب الجوانب . وراقب الاجانب . واتصل به الامير اينانج صاحب الرى فقويت يده وعرف ان العساكر الغريبة لاتقيم مع عمه . وانهم اذا انفصلوا عنه كان عزمه مليا بهزمه . فوصلته البشرى بان عمه عام فى بحر الليل سابحاً وساح لعرض الفلاة بالافلات ماسحا . فسر بما وعى . وسار وسعى .

وتلقاه أمراء الدولة مهنئين . وبحدة جده متهنئين . وعاد الى قصره . وعادة نصره . وذلك في سنة ٥٤٨

﴿ ذكر مااعتمده الامام المقتفي لامر الله بعد موت السلطان ﴾
﴿ مسعود محمد بن ملكشاه ﴾

قال رحمه الله: كانت السدة الشريفة الامامية قد منيت بجور الاعاجم . ولم يزل عودها من عداوتهم تحت سن العاجم . وكان أهون ماعندهم خلاف الخليفة وعناده . وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لامراده ولم تزل بغداد مظلمة . مشحونة منهم بالشحن الظلمة . ولهم من الديوان العزيز مطالب لا يفي بها خواصه . ومغارم تلحقه منهم يتعسر منها خلاصه . والحرم من جناياتهم خائف . والشرف لهاباتهم عائف . وشريعة الشريعة مكدرة . والدماء والفروج مستباحة مهدرة . والخليفة يغضي ويغضب . ويَعتِب ولا يُعتَب ويُقْدَر عليه ولا يَقدر . ويُغدر به وهو على العهد لايغدر . فلما توفى السلطان مسعود قال «لا صبر على الضيم . بعد اليوم . ولا قوام مع هول هؤلاء القوم» وآزره وزيره عون الدين بن هبيرة وأعانه . وثبت جنانه . وكان مسعود البلالى الخادم والى بغداد فقامت عليه قيامة . وتعذرت عليه الاقامة . فرحل الى الحلة . ومضى متحملا في تدبير الامور المضمحلة . وأقام يحشد ويحشر . ويطوي وينشر . وكان بالحلة السلار الكردى من اكابر امراء السلطان فلم يكترث بالخادم واسترسل اليه . وقصده

ايسلم عليه . فاخذه الخادم وقتله وغرقه فى الفرات . وجمع العساكر وأقطع تلك الولايات . وفرق على فريقه الاقطاعات . فسار اليه ابن هبيرة وهزمه وكسره ولحق البلالى بهمذان مستصرخا . وغدا عقد جمعه منفسخا . وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة الى حلوان . ومن حد تكريت الى عبادان . واقطع واسط واعمالها . والبصرة وانهارها . ومعاقلها وولاياتها . والحلة والكوفة ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل والراذان . وطريق خراسان الى نواحى حلوان . وأقطع الوزير عون الدين ابن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد . وأعانه على الاستعداد واضعاف الاعداء بتضعيف الاعداد . ونعته بتاج الملوك ملك الجيوش

وكان الامام لما استخلف استحلف على انه لايشترى مملوكا تركيا . وكان يقتنى مدة خلافته إما ارمنياً أو رومياً . ولم يكن له من الاتراك الا ترشك ملكه قبل الامامة فولاه الامارة على الامراء . واختص من مماليكه الروم والارمن عدة من النجباء . سماهم الجابية . وولاهم الرتب العلية . وأحكم اسوار بغداد وحفر خندقها ورتب الولاة فى الولايات وبث العيون وأصحاب الاخبار . وبعث الجواسيس الى جميع الامصار . واشتغل السلاطين بعضهم ببعض في تلك السنين . وأعطى الله الخليفة التأييد والتمكين . وكان الخليفة قد سير قطب الدين العبادى فى سنة ٥٤٦ أو ٥٤٧ رسولا الى محمد بن محمود بخوزستان فتوفى هناك . وختمت به الفصاحة الوعظية واظلمت مطالع العلم المضيئة

ولما عاد السلطان بعد هرب عمه سليمان الى همذان راسل الخليفة وخاطبه فى الخطبة له فما اجابه . وتجني عليه بقتل ابن بلنكرى وعابه . وآيسه

من ملك بغداد وخيب رجاءه . فحينئذ اجتمع عند السلطان الامراء الذين حلت اقطاعاتهم ببغداد وقالوا « ارزاقنا قد أُقطعتْ . واعراقنا قد قُلعتْ . ودورنا قد أُنزلت وولاتنا عزلت . ولا بد من مداواة هذا الداء قبل اعضاله . وتداركه قبل استفحاله » وكان السلطان محمد يرجع الى عقل ودين . وحلم وكين . ورأى رزين . فقال « لاتعجلوا فان مخالفة الخليفة شؤم . وموالية محمود ومعاديه مذموم . وأنا استقبح ان أستفتح سلطنتي بمعاداته . ونية مداواته » فقالوا له « نحن نمضي ونقضى هذا الشغل . ونخفف عنك هذا الثقل . ونلقى بجمعنا الجمع . ونحصد بسيوفنا الزرع » فقال لهم « كان رأيي ماذكرته . وعرفتكم ما أنكرته . والآن فافعلوا مارأيتموه . واعملوا مانويتموه » فودعوه وركبوا . وجاء اليهم من وافقهم وذهبوا . وتجمعوا فى جحافل حافلة . وعساكر فى ذلاذل السوابغ رافلة . وساقوا بين ايديهم التركمان ببيوتهم ومواشيهم . وأهاليهم وحواشيهم . وكان حصن تكريت قد بقى فى يد مسعود البلالىّ وبه نائبه أسبه وحصره الخليفة مرارا فتمنع ولم يفتح مغالقه المتصعبة . وفي هذه القلعة ملكان من السلجقية معتقلان وهما ملكشاه بن سلجق بن محمد بن ملكشاه وارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فقالوا لمسعود البلالى « أحضر لنا الملك ارسلان بن طغرل ابن عم السلطان . ليثق بحضوره جموع الاجناد وحشود التركمان » فاقطع عليهم بدره . ورفع جتره . ثم وصلوا الى نواحى العراق

ولما عرف الامام ذلك أمر فاصحرت أُسده الحوادر من عرّيسها . وتبدلت خيش الوشيج من خيسها . وبرز فى مظلّته . كأنه البدر فى هالته . ونور النبوة يشرق من جبينه . والقضيب النبوى يورق بالنصر فى يمينه .

والبردة الموروثة فوق ردائه . والقدر بالقـدرة على اعـدائه . ملبي ندائه . فسار فى موكبه الشريف وعلى مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة فى أسود استلأمت من الدروع بأهب أساود . وفى سحائب قساطل من المناصل والصواهل بوارق ورواعد . وفى الميمنة والميسرة امراء ومقدمون من عظماء العسكر كناصر الدين منكوبرس وأمير واسط مظفر الدين قتلغ برس وكلاهما من المسترشدية . وحامياً الحوزة المقتفية . ونخر الدين قويذان ومنكابه العباسى وبهاء الدين صندل والامراء المصطفون المصطنعون . والحماة الكماة المدرعون المقنعون . وخيم الخليفة على مرحلتين من بغداد في موضع يعرف بجمزا وأقام دون شهر ينتظر منهم البداية . ويستبعد من غوايتهم الهداية

ولما تزاحم المجرّان . وتراجم الجمران . تجرّأ العدى ببغيهم وغيهم على الاقتحام . وحسروا عن أقدام الاقدام . وقالوا ان للقوم بناطاقة . ما تحملوا من توسيع بمدة الاقامة اضاقة . فقد عزت الاقوات وعدم العلف . ووجد التلف . وجهلوا ان الامام متبع حكم الشرع . فى قتال أهل البغي عند صيالهم بالدفع . فركبوا وما رقبوا . وبرزوا وجلبوا . فركب امير المؤمنين فى مهاجريه وأنصاره . ووقف فى القلب منهم بين اسماعه وأبصاره . وقدم وزيره ابن هبيرة امامه . وسير معه اعلامه . وأمر الامراء ان يكونوا معه قدامه . فاقمرت ليالي الرايات السود بوجوه رافعيها البيض . واشرقت ايامن الايام الامامية بنوره المستفيض . وشرع برق الحديد اللامع على حواشي بوارق البوار فى الوميض . واولئك قد ساقوا دواب التركمان ومواشيها وأغنامها . وقدموها بين يدى صفوفها قدامها . وكانت آلافا كثيرة الاعداد . كثيفة السواد . ومن ورائها الوقاة الكماة . ذوو الحمية الحماة . وقد اخذت هذه

المواشي طول الارض وعرضها . ومنعت بتراصها تقويض صفوفها ونقضها

فنزل الامير فخر الدين قويدان قائد الجنود وقبل الارض للخليفة وطلب بلاد الحلة . واقتدى به ناصر الدين منكوبرس في طلب البصرة . فانعم بهما عليهما . فتأهبا للقاء . وتلهبا على الهيجاء . وحمل الوزير ومن معه فلم يجدوا في تلك النقاد للآساد طريقاً . وصادفوا فى ذلك الفضاء الواسع للانعام المحشورة اليه مضيقاً . وكان ترشك مملوك الخليفة للمخالفين مخالفاً . وفى الميمنة واقفاً . فحملت ميمنتهم على ميسرة الخليفة وفيها مهلهل ابن أبي عسكر والاكراد فهلهلت نسجها . وحلحلت برجها . وعادت صفوة صفوف الاكراد ا كداراً . وأجفلوا كالظلمان هزيمة وفراراً . ودخل ترشك بين اطناب السرادق الشريفة فطعن برمحه ظهير الدين بن الفقيه المرتب في المخزن فقتله وركضت ميمنتهم خلف المنهزمين فلم يعرجوا . ومروا وراءهم ومرجوا . وأما الميمنة الميمونة الامامية فانها حملت وفيها ناصر الدين منكوبرس وفخر الدين قويدان ونفذت الى القوم وقوضت ماقابله من البنيان المرصوص . وحكمت بنصر الحق المنصوص عليه على الباطل المنقوص . فلم ير غير رأس سائر . ورأس طائر . ورمح يتشظي . وصارم يتلظى . وتبدد شملُ آمال الاعادى وتفرقوا عباديد . وأخلفهم الشيطان ما كان مناهم من مواعيد وطاروا على خيولهم كانما استعارت من قوائمها قوادم . وتركوا بتلك المغانى من أغنام التركمان مغانم . وخبّتْ البشرى الى بغداد بالنصر بعقب ارجاف الاجلاف المنهزمين بالكسر

ووقف بعد الهزيمة مسعود البلالى فى قلبه ثابتاً قلبه . راجياً ان يثوب اليه حزبه . فهب اليه ابن هبيرة فهبره . وبرى أجزاء صفه وجزّ وبره . وانتهز

الفرصة الامير سنقر الهمذانى فانفرد بالملك ارسلان بن طغرل وسار به وأخفى مسيره فى مضايق كل وادى ومساربه. حتى وصل به الى شمس الدين ايلدكز زوج أمه وكانما أنزل به الغنى بعد عدمه . وأما الخليفة فانه سجد لله شكراً . وانشرح بالنصر صدراً . ودخل الى بغداد منصور اللواء . مصحوبا باملاك السماء. ولما تمت على أولئك القوم في أملهم الخيبة. تملكتهم من جانب أمير المؤمنين الهيبة . ونكصوا على أعقابهم عاثرين بذيل الخجل. عابرين علي سابيل الوجل . فلما رجعوا الى السلطان محمد بن محمود ندمهم. وعاتبهم على الملك الذي ندّ منهم. وقال «كسرتم ناموسكم واتلفتم نفوسكم . وأهلكتم التركمان وعرضتم للسبي الذرارى منهم والنسوان . ثم أخرجتم الملك ارسلان وغفلتم عن حفظه . وهو الآن عند ايلدكز وستبصرون ما يفضى اليه الامر . ولا بد ان يتوجه اليَّ من جانبه الشر . وقد صار الخليفة خصما فلا يخلص بعد هذا ورد دولتنا معه من الشوب . ولا يقبل على قبول التوبة ولا يرتضى صوابا ارضاء هذا الصوب » وكان كما حسب فان الخليفة لم يغفر للسلجقية بعدها ذنباً . ولا فرغ لهم من جهته قلباً . وكانت الوقعة بيجمزا فى أواخر سنة ٥٤٩

﴿ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه الى بغداد﴾
﴿وقبول الخليفة له وتجهيز الجيش معه وذلك فى سنة ٥٥٠﴾

قال رحمه الله: كان سليمان قد تخلى عن الملك وأخلى سريره. ووافق ادباره تدبيره. يدور فى البلاد ويبلى بالدوائر. ويجد مع المنجد ويغور مع الغائر. لا يستقر به قرار. ولا تؤويه دار. ولا يجيره جار. فلم ير لامره وأمنه حاميا غير حمي أمير المؤمنين. فقصد ان يعلق من عصمته الحبل المتين. قال وكنت حينئذ ببغداد فوصل الخبر بان سليمان قد دنا ودان فقابلوا بوفور القبول وفوده. وأكرموا وروده. ولو وفوه حق السلطنة لتلقاه الوزير ومعه قاضى القضاة والنقيبان. وأجلاء الخدم كما جرت عادة السلطان. لكنهم اقتصروا فى تلقيه على موكب شريف يقدمه عز الدين محمد ابن الوزير ومعه مخلص الدين ابن الكيا الهراسى وخادمان ووقف الموقف خارج البلد حتى قرب ثم لقيه ابن الوزير وخاطبه بكل ماأطربه وأعجبه. وقال «أمير المؤمنين صلوات الله عليه يسلم عليك ويهدي تحية اليك» وترجم ابن الكيا الهراسى له هذا السلام بالفارسية. فنزل سليمان عن فرسه وقبل الارض ثم ركب ودخل البلد وخرق الاسواق من باب سور الحلبة. الى أن جاوز فرضة الرحبة. وحين وصل الى باب النوبيّ أنزلوه وألزموه بتقبيل العتبة وقد أكرموه. وهنالك حجر اذا وصل الرسل ومقدمو الحاج نزلوا عنده ولثموه وعظموه. وماقبل تلك العتبة قبل سليمان

سلطان سلجقي . ولا ملك ديلمي . وكان منهم شقي وسعيد

ثم أركبوه وخرقوا به السوق حتى عبروا به باب سور السلطان وأنزلوه بدار السلطنة ووظفوا له الرواتب ورتبوا له الوظائف وشرفوه وسوروه وطوقوه وخطبوا له على المنابر فى الجمع والجوامع . وخصوه بالعوراف والصنائع النصائع . لكنهم لم ينعتوه الا بالمعظم ولم يسموه بالسلطنة ولم يسموه . وكانوا يقتصرون به على المعظم وذلك غاية أن يعظموه . لكنه كان فى قد عقلة من غفلته . وعى لهجة من غيّ جهلته . وفي كسرة من سكرته . وفى ذلة من لذته . فما زال مدة مقامه مستحلا لمحارم شهواته . مستحلياً مذاق اللهو فى لهواته . مترنماً بنغماته . متبغيا بخرافاته . والخليفة مع ذلك فى ولائه معتقد وللوائه عاقد . متيقظ لتدبير مصالحه وهو عنها راقد . وقد اوعز الى عساكره بالتأهب للمسير فى خدمته . واعادته الى عادته في سلطنته . واستوزر له شرف الدين الخراساني وكان رجلا كبيراً يرجع الى سودد وكرم محتد . وكان قد وصل الى بغداد فى عهد السلطان سنجر رسولا وأعاد البردة والقضيب النبويين معه الى دار الخلافة وكانا قد أخذا فى النوبة المسترشدية

وأقام شرف الدين هذا فى الظل الاماميّ وهو مخصوص بالاحترام فرأي المقتفى ان يجعله وزير سليمان . وسيّره الى آذربيجان . وجهز معه عساكر وافية العدد . وافرة العُدد . فمضوا به الي أرانية ثقة بآتابك ايلدكز فما رفع بهم رأساً . ولا اقراهم ايناسا . ووصل السلطان محمد بن محمود وجرى المصاف . ووقع بين الفريقين الانتصاف . ثم انهزم سليمان مولياً . وعن عسكر الخليفة متخلياً . فعادت العساكر الى بغداد عادمة للظفر . نادمة على السفر . ورجع سليمان عائداً الى بغداد فى طريق الدربند القرابلي فصبّحه زين الدين على كوجك من الموصل .

وقبضه فى المضيق وحمله الى قلعة الموصل . واعتقله وأراحه من التعب . واباحه ما كان يؤثره من اللعب . وكان ذلك فى شعبان سنة ٥٥١

ذكر اتصال الملك جغري شاه بن محمود باخيه السلطان محمد

قال رحمه الله : كان الملك جغرى شاه مع آتابك اياز فى آذربيجان . فشغل خواطر الاميرين ايلدكز وارسلان آبه صاحبي آذربيجان عند اتصالهما بالسلطان سليمان . بعد انهزام محمد الى اصفهان . فلما عاد محمد الى السلطنة سير شرف الدين كردبازو لاصلاحهم والصلح بينهم . فوصل والحرب قائمة على ساقها . آخذة من الارواح باطواقها . فأصلح ذات البين . وعاد قرير العين وقد تسلم جغرى شاه . وملأ بحمده ومدحه القلوب والافواه . وجمع شمل السلطان بأخيه وعاد آتابك اياز الى ولايته . وكانت رعيته آمنين فى كنف عنايته. واقتسم شمس الدين ايلدكز ونصرة الدين ارسلان ابه بلاد آذربيجان وأفرجا عن أردبيل للامير آغوش . وأعادوا من رسوم العدل النقوش . واجتمع السلطان محمد باخيه جغري . والاخوة تحمله على الشفقة والملك به يزرى .

قال: وكنت في ذلك العهد سنة ٥٤٩ بهمذان وقد عدت من الحج صحبة جمال الدين محمود بن عبد اللطيف الخجندى فشاهدت السلطان قد أنس بأخيه وسر به. وامتزج به في مطعمه ومشربه . ولاطفه بعطفه . وعطف عليه بلطفه . ثم امر باعتقاله ووكل به الامير عز الدين ستماز بن قايماز الحرامى

يرصده ليلا ونهارا . ويرعاه سرا وجهارا . وما زال الامر على ذلك حتى فارقنا العسكر . فما أدرى اين أقبل به القضاء بعد ما أدبر . ومن حين نقل ماسمع له خبر . ولا رئى له اثر . فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء وجبلت جبلتهم على الاغفال والاغفاء . فالرحم عندهم مقطوعة . والرحمة ممنوعة . والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة . والاغترار بهم غرر . وصفوهم كدر . يقسون ويحنثون . ويبرمون وينكثون

ذكر حوادث جرت في تلك السنين

قال : فى سنة ٥٤٨ استولى الغز على السلطان سنجر وكانت حادثة هائلة وسنذكر أيام سنجر عند وفاته . وفى هذه السنة استولى الفرنج على عسقلان وفى هذه السنة قتل العادل ابن السلار سلطان مصر قتله ابن امرأته . وفي هذه السنة توفي ابن منير الشاعر بحلب فى جمادى الآخرة . وتوفى ابن القيسرانى الشاعر بدمشق في الحادى والعشرين من شعبان . وتوفى ابو الفتوح بن الصلاح الفيلسوف البغدادى بدمشق فى الخامس والعشرين منه وفى سنة ٥٤٩ توفى تمرتاش صاحب ماردين فى أول المحرم . وفتح نور الدين محمود بن زنكي دمشق يوم الاحد ثالث صفر سنة ٥٤٩ . وقتل الظافر متولي مصر ليلة الخميس لانسلاخ صفر

قال : وفى هذه السنة توفيت حليلة السلطان محمد بن محمود بنت السلطان

مسعود لمجلس للعزاء . وامترى در البكاء . وكنت حاضراً في زمرة العلماء .
ووصل الى خدمته آتابك ايلدكز فى عساكر آذربيجان والامير شير بن آق
سنقر بعسكر أخيه وأقاما عنده على همذان ثم استأذنوا في العود وعادوا .
وزادهم السلطان حرمة وقوة فزادوا . ووصل رسول ملك كرمان فاكرم .
وأحضر حملا فقدم . وسير جمال الدين ابن الجندى مع الرسول رسولا الى
كرمان . ليخطب بنت الملك للسلطان .

قال : فعدت معه الى اصفهان فسامني السفر معه فى تلك السفارة .
فرأيت الربح فيه عين الخسارة . فتأخرت وتقدم . واحجمت فأقدم .
وأقمت فظعن . وأسهلت فاحزن . فاني عند مسيره الى كرمان سرت
على طريق خوزستان الى بغداد وجئت الى عسكر مُكرَم فى شوال
سنة ٥٤٩ والملك ملكشاه بن محمود مالكها . وقد امنت به ممالكها
ومسالكها . ولقيت رئيس الدين محمد بن القاضى أبي بكر الارجانى وهو فى
نيابة القضاء . موفور الحرمة فى العلماء . فذكرلى ان والده توفى سنة ٥٤٤
وأعطانى مسودات من أشعار والده . فتنزهت في رياض فوائده . ثم
ارتحلت الى بغداد بعد وصول الخبر بنصرة الخليفة فى حرب بجزا وظفره .
وكنت مع والدى لخرضته البشرى على سفره

قال : وشتى السلطان محمد بن محمود فى هذه السنة بساوه واستعجز
جلال الدين بن القوام وزيره . واستقصر تدبيره . واستقصى من فارس تاج
الدين الدارستى ليستوزره فوصل تاج الدين الى أصفهان وأقام مدة فبرد أمره
وخمد جمره . واستبطأ السلطان سيره . واستوزر غيره .

ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الدركزيني

قال : قيل للسلطان انه وزير عمك . وظهير عزمك . وقد سبقت له خدم وثبت له في القدم قدم . فنصبه في المنصب . ورتبه في أعلى الرتب . واستند وتصدر . وأورد وأصدر . وخاطب الامراء الذين استأثروا بالبلاد ان ينزل كل منهم عن شئ مما في يده ليكثر الخواص السلطانية . واستضاف بلاداً عامرة الى النواحي الديوانية . فتوفر الاستظهار وظهر التوفير . وأثمر الرجاء ورجي التثمير . وقال للسلطان قد اتسقت الاحوال . واتسعت الاموال . وقد فرغ البال لشغل بغداذ فاسترجع حقك المغصوب . ولا تترك نجحك المطلوب . فانها دار ملكك . ومقر أبيك وجدك . وأنت اذا مضيت بنفسك فما يقف قدامك أحد ولايكون معك لاحد يدٌ فلما خضر الربيع مائدته . ووفر فائدته . وأحسن عائدته . عاد السلطان الي همذان وذلك في سنة ٥٥٠ ورحل على سمت بغداذ ورحل عدة مراحل . ونزل في قصدها منازل . ثم بدا له فعاد لان الامراء الذين سبقت منهم المواعدة على المعاودة اخلفوا العدات . ولم يطاوعه العسكر على مفارقة البيوت والاقطاعات . عند ادراك الغلات . فانصرف راجعاً وتوجه الى آذربيجان . وتم المصاف الذى نصر فيه على عمه سليمان . ثم عاد الى مقر ملكه وفي قلبه من أمر بغداذ هم شاغل . في صميم روحه واغل . وعلم ان الجند لايفارق بلاده في الصيف . فانه لايجمع بين حر بغداذ وحر السيف . فواعدهم الى الخريف . وأمنهم من الغرر المخيف . واشتغل بالاستعداء والاستعداد . والاجتهاد في الاحتشاد . وتجهيز الكتب

الى مجهزى الكتائب . وتبريز المضارب وتمييز الطلائع والمقانب . فارتحل لما انقضى المصيف . وأقبل الخريف .

ذكر وصول السلطان محمد الى محاصرة بغداذ وما اعتمده أمير المؤمنين المقتفى لامر الله من حسن الصبر المعقب حميد الظفر والنصر

قال رحمه الله وصل الخبر الى بغداذ فى ذى القعدة سنة ٥٥١ بأن السلطان محمد قد قرب فى عسكر هائل . وعرمرم صائل . وهو بمنزل « قصر قضاعة » فصدق اهتمام الخليفة بالاحتراز والاحتراس . واجد لباس الجد للباس . وبالغ فى تحصيل العدد . وتحصين البلد . وأدار بالمنجنيقات سورا على السور . وملأ أبراجه بالحماة المساعير. وخرج الوزير ابن هبيرة وخيم تحت التاج الشريف عند المثمنة على شاطئ دجلة بحيث يطل الخليفة من المثمنة على خيمة وزيره . ويقرب الاستئمار فى دقيق الامر وجليله وقليله وكثيره . وفتح باب الكرم المرتجى المرتج . وثبت قلب الاسلام الخافق المرتج . وأعد العدد الخاصة والحرجية . واستخدم المنجنيقية والجرخية . وكان من حزم الخليفة انه مذ توفى السلطان مسعود ونفى مسعود الخادم البلالى من بغداذ أوعز باعداد الذخائر وادخار العدد والاستظهار بشغل صناع السلاح وكانت حجارة المنجنيق معوزة . فأحضر منها فى السفن ألوفا صارت محرزة . وأمر ببناء المراكب المقاتلة والسفن

فرعن في دجلة راسيات كالرعن . وعبر محمد شاه دجلة الي الجانب الغربى من أعلى بغداذ على بعد منها بجموعه . وراع كل قلب بصدوعه . وكان قدواعدزين الدين على كوجك فوصل بعسكر الموصل يوم الميعاد فى وفور من العدد والاعداد . وأطلوا من الجانب الغربى على بغداذ وكدروا المشارب . ووفروا المصائب . ثم بكروا وأشرفوا . وبالغوا فى العتو وأسرفوا . ووقفوا بازاء التاج الشريف وشرعوا في السبع . جارين على سوء الطبع . ونبعت من معاجس قسيهم غروب النبع . وجرحوا من النظارة جماعة أحسنوا بهم الظنون . وأمنوا منهم المنون . وقابلوا الفرض بالرفض . وقاتلوا الله تعالى بقتال خليفته فى الارض . ونزلوا على بعد من بغداذ حتى تألفت الوفهم . والتف لفيفهم . وسيروا الى الحلة والكوفة وواسط والبصرة ولاة ومقطعين . وشحناً ومتصرفين . وفى كل يوم يسير الخليفة فى دجلة مراكب . مملوءة بعقاب . فيها المجانيق الخفاف . والعرادات اللطاف . والرماة الكماة . والجرخية الكفاة . فيحاذون المعسكر المحمدي فى دجلة ويرمونهم . ويشوونهم ويصمونهم حتى رأى السلطان محمد التنقل الى حوالى سور بغداد فجاء ونزل على الصراة بدار برنقش الزكوى وعبر أمراءه الكبار الى الجانب الشرقى مثل آتابك أياز وعز الدين ستماز . ومن يجرى مجراهما من ذوى الاعتزاز وبقى على كوجك بالعسكر الموصلى فى الجانب الغربى والسلطان معه وهو يعبر فى دجلة الى دار السلطنة في جانب بغداذ كل وقت ويعود . والبيض قد هجرتها الغمود . والمقول قد انحات منها المقود . وتبرز خيل بغداذ فى كل يوم منها من يأتى سور السلطان والظفرية ويقفون خلف الباشورة المبنية . للحملة على من يكون منهم فى الجاليشية فهم يخزجون . ويجرحون ويجرحون . فيأمر لهم الخليفة بالعطاء . على قدر البلاء .

وكان لكل جراحة على مقدارها عطاء. ولكل عمل مبرور جزاء. فتوفرت دواعى العوام على التهافت فى نار الحرب تهافت الفراش فى النار. للفوز عند العود بالدين والدينار. فقامت الحرب على بغداذ بالمساء والصباح. والغدو والرواح. وطالت مدة الحصار. ولم يؤثر فى الاسعار. وما عز غير اللحم. ولا عز الملح. والامل مقترب النجح. وخسران الخصم دليل الربح. وكانوا قد نصبوا من الجانب الذى من دجلة على مسناة دار العميد وبقرب القمرية منجنيقين عظيمين وهموا بنصب منجنيق آخر على الخان الذى بناه سرخاك مقابل التاج. ولو تم ذلك لأعضل داء الازعاج. فعين الخليفة ليلا رجالا أتوا بنيانه من القواعد. وكان لوقوعه سحرا رجفات كأصوات الرواعد. وكانت السفن المترددة فى دجلة برماة الجروخ والنشاب والقوارير المحرقة. والنفاطات المزرقة. قد آذتهم وآذنتهم بعجزهم. وعزت بازهاقهم. فأزهقت روح عزمهم. وما كانت لهم مراكب الا عدة يسيرة يسخرون ملاحيها. ويخسرون مالكيها. ثم لا يثقون بالركوب معهم فيها فحاروا وخاروا. وتشاوروا واستشاروا. فقال لهم بدر بن المظفر بن حماد صاحب الغراف. وكان قد جاهر الخليفة بالخلاف. أنا أكفيكم بسفن مقاتلة. وأغنيكم بمراكب حاملة وجوارى منشئات. وزوارق وشفارات. من بلد واسط والبطائح. من الدانى والنازح. فحمدوه وشكروه ومضى وأقاموا ينتظرونه حتى وصل بالسفن الخفاف والثقال. والملاحين والرجال. فامتنع عليهم عبورها فى البلد اليهم ورتب الخليفة الرجال فى المراكب للقائها. واحراقها بالنار واردائها. ولما شق عليهم ذلك ردوها الى نهر عيسى بعد ان مدوها الى الفرات. وأخرجوها فوق بغداد فى الصراة. وتكاملت مدة شهرين فى ذلك. ثم

بدأوا بعقد جسر على دجلة فوق دار السلطان من تلك الزواريق . واتسعت طريقهم فى العبور بالتغريب والتشريق . وضايقوا فى الحصر من الجانبين . وشددوا في منع الميرة وقطع الاقوات بجدع الانوف وقطع اليدين . ووصل اليهم من الحلة امراء بنى أسد ورجالها . وفتاكها وأبطالها . وقالوا هذه بغداد من جانب دجلة ماعليها سور . وتوانيكم فى هجمها قصور وفتور . فسلموا الينا المراكب لنهجمها . وما اسهل علينا ان نقتحمها . واذن لهم السلطان فى الزحف فركبوا المراكب مستلئمين معلمين . وعبروا الى المدينة على الموت مقدمين . ولما وصلوا الى قرب السور خرجوا من السفن شاكين . فخرج اليهم من الباب من مماليك الخليفة من طاردهم وجالدهم . وهم مع ذلك يبعدون من الشاطئ . ويوسعون الى الموت خطوة المصيب غير الخاطئ . ثم كثر عليهم رجال بغداذ كثرة حصلوا منها تحت العسر . وفى قبض الاسر . وتظافروا الي السفن فغرق أكثرها . وانخسف بهم موقرها . وقبض الامير حسن المضطرب وأخوه ماضى وعدة وافرة من معروفي بنى اسد . وعدم كثير ممن غرق أو قتل أو فقد . وأمر الخليفة تلك الليلة بصلب حسن وأخيه على دقل زورق . واصبح الباقون على السور مابين مصلوب مشنق . ومقتول معلق . ففتح الله لخليفته من المهابة لاوليائه . والمهانة لاعدائه . كل باب مغلق . وسقط فى أيديهم . بعد ما بسط من تعديهم . ولما طال الحصار . وتمادى الانتصار . خاف الخليفة الغلاء . ففتح الاهراء . واقتصر للاجناد فى الاعطيات . على تفريق التمور فيهم والغلات . وأخذوها واحتاجوا الى أثمانها فى النفقات . فرموها فى الاسواق وباعوها بالدينار . فخمد بذلك استعار نار الاسعار . ومازاد سعر فى الاقوات

ولا غلا مطعوم فى وقت من الاوقات

وفى صفر سنة ٥٥٢ وصلت قافلة الحج فوجدوا دار الخليفة محصورة . والهم من الخارجين على خلاف تمظيها مقصورة . ونزلوا فى المعسكر السلطانى ثم تفرقوا الى بلادهم . ورحلوا طالبي أغوارهم وأنجادهم . ومن كان من بغداد تحيل في الدخول الى منزله . والوصول الى منهله . وببغداد حينئذ خلق من التجار يريدون بل يؤثرون مرافقة الحاج . ويقولون متى أخذوا البلد نهبوا بضائعنا . واستخرجوا ودائعنا . فحضروا التاج وأكثروا الضجاج. وحاولوا من ضيقهم الافراج . فقال لهم الوزير « أمير المؤمنين يقول لكم أنتم في حرم احسانى . وفى ضمان أمانى . ولكم بى اسوة وهذه النوبة . مالكم انبوة . وأموالكم فى البلد مصونة . وبأسباب الرعاية منا مضمونة . واذا خرجتم وضعتموها على طرق الطوارق . وتعرضت لكم دون السفر عوائد الحدثان فى البوائق . فاصبروا فان الصبر محمود العواقب . والله لنا كفيل بفل ناب النوائب . فضجوا حتي أضجروا . وزجروا فما انزجروا. فوكلوا الى أرائهم الفائلة . وآرابهم الحائلة . فاستبقوا الباب . وما استبقوا الالباب . فخرجوا وأحرزوا تلك البضائع فى الدار السلطانية . ولم يقدموا مع تلك الفتن على السفرة الهمذانية. فما مضت عليهم الا أيام قلائل . حتى غالتهم غوائل . فنهبوا وسلبوا وأصبحوا فقراء . وهذه سنة الله فى الاغنياء . اذ كانوا أغبياء . وسنذكر سبب ذلك ان شاء الله . قال وأما العسكر النازل فان السلطان رأى مراسلة الخليفة بالاستعطاف والاستعطاء . والاستغفار والاستعفاء . وكان فى صحبته من العلماء صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندى وشمس الدين أحمد شاذ الغزنوي فأرسل كلا منهما على حدة فلم يمكنا من الوصول . وقيل لامطمع فى نجح

السؤال بالرسول . فانكم لوأردتم الاجمال . لقدمتم الارسال .والآن ان استرجعتم . ورجعتم ورأى الورى منكم الندم على مافعلتم . فهنالك نسمع الرسائل. ونقبل الوسائل . فقنط القوم من قبول الرسالة وشرعوا في الشر وعادوا الى العدوان ولجوا فى العصيان والطغيان . وتخريب العمران . وانخرقت مهابتهم عند أهل بغداذ. فطلبوا بكل نوع عليهم الاستحواذ. فصاروا يكبسونهم فى الضياع . ويغافصونهم[1] بالقراع . ويقطمون الطرق على علافتهم . ويوجدون السبل الي تكثير مخافتهم. وكانت الاكلاك واصلة من الموصل اليهم بالميرة . والاقوات الكثيرة . فتلقوها فى دجلة فأخذوها . وعبرو بها عليهم وعجزوا ان ينقذوها . وامتنع أهل الموصل بعد ذلك عن تسيير الاكلاك فما أنفذوها. وكان وزير الخليفة منذ وصل محمد للمحاصرة واصل مكاتبة أتابك شمس الدين ايلدكز وحثه على الحركة مع أحد الملكين ملكشاه أو ارسلان شاه الى همذان فوصلهم الخبر بأن ملكشاه هجم على البلاد . واستولى على الطراف والتلاد . واقتطع الاقطاعات وحوي الغلات . ورفع الارتفاعات .ففت ذلك فى عضد العسكر وتضعضع ثباتهم بهذا الخبر . وحمي أيضاً عليهم الحر . واشتعل البر والبحر . فاجتمع عند السلطان الخواجكية والامراء. والاماثل والكبراء. وكان الوزير شمس الدين ابو النجيب الاصم الدركزيني والمستوفى رضى الدين أبو سعد الخوافى ونائب الاستيفاء كمال الدين ابو الريان ومن الامراء آتابك أياز وعز الدين ستماز وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالى وظاهرهم على الرأى زين الدين علي كوجك الموصلى وقالوا نعبر باجمعنا الى الجانب بالشرقى ونصدقهم القتال.

(١) غافصه أي فاجأه وأخذه على غرّة اه محيط للفيروزآبادي

ونديم عليهم النزال . فان تيسر الفتح . فقد سفر النجح . وان تعذر وتعسر تفرقنا على مواعدة المعاودة من قابل . وحصلنا من ادراك الطوائل على طائل . ثم عمدوا الى الجسر الذى لهم فاحكموه . وتجاسروا على الحكم الذى اعتمدوه . وأصبح العسكر فى يوم الاربعاء من شهر ربيع الاول وقد أخذ عدته . ولبس شكته . وركب خيله . وسحب من السوابغ على السوابق ذيله . وشرعوا فى العبور على الجسر مزدحمين . وعلى العثور بالمنية مقتحمين . واتفق في ذلك اليوم هبوب ريح عاصف . وتموّج بحر من الهواء قاصف . وتلاطمت الامواج . وتزاحمت الافواج . وثقل الجسر وانقطع . وهم العسكر ان يرجع . فلم يجد طريقاً للرجوع . وخاف من على الجسر من الوقوع . فمدوا ايديهم الى الدبابيس . فاضطربوا واضطروا الى التنكيس والتعكيس . ولم يشعر من ورائهم بالامر ولم يطلعوا على انكسار الجسر وانخرعوا لما هالهم . وحسبوا ان خطبا غالهم . فهاموا وما فهموا . وهموا بما وهموا . وركب السلطان عند اشتباه الخطب . واتجاه الخبط . وشط نازلا ونزل الى الشط . فقيل لزين الدين على كوجك ان السلطان قد ركب . وان العسكر قد اضطرب . وانه قد عبر الى الدار . وحصل على الاستشمار . فركب أيضاً فى العسكر الموصلى على سبيل الاستظهار . ولما شاهد أهل بغداذ اختلافهم واختلالهم . واختلاطهم واختباطهم . فتحوا أبواب البلد . وهتفوا بارباب الجلد . ونادوا بشعار أمير المؤمنين ونصره . وزحف العالم فى بره وبحره . وجذفت السفن الخفاف بمن خف من الرجال . وهجم الحق على الباطل بالابطال . والقوم مشغولون بانفسهم . حائرون لما عراهم من تمكسهم . ومن حصل منهم فى الجانب الشرقى . لاطريق له الى الجانب الغربى . فتقحم البغداذيون على الدار

السلطانية وأجلوهم عنها . وأبعدوهم منها . ودخلوها ونهبوا ما فيها من الاموال المودعة . والاثقال المجمعة . وعاثوا في بضائع التجر وودائع السفر . ولما لم يبق فى الدار شئ قلعت أبوابها . وقطعت اسبابها . وانصرف القوم هائبين . خائبين سادمين . نادمين . وشغلوا عن أثقالهم . وثقلوا باشغالهم . ووقفوا على صهوات الخيل . الي دخول الليل . ثم سروا وأدلجوا . وعرَّجوا الى تلك المسالك ولم يُعَرِّجوا . وسار من بالجانب الغربي من عساكر همذان وآذربيجان مع عسكر الموصل للضرورة . ودفعوا الي مالم يقدروه ولم يخطر لهم من الاخطار المقدورة . وأصبحت بغداد وقد أتاها الله بالفرج . وقرن بهاءها بالبهج . وأحكم حكم نصرها من الطافه بالحجج . وأنجي أهلها فى سفينة السكينة من طوفان الفتن المتلاطمة اللجج . وغيض الماء وقضى الامر . ونصر الحق وحق النصر . وكف المقتفى عن اقتفاء المنكفين . وستر على المستترين منهم فى المحال والمختفين . وانتشرت عساكر أمير المؤمنين فى البلاد . واستبشرت بالنصر المعتاد . وعرفت الاعاجم انه لامطمع بعدها فى بغداد . قال : وكنت حينئذ ببغداد . وحبرت قصائد في هناء الامام واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة فى النيابة عنه بواسط فنقلني من المدرسة الى العمل . وعطلني عن الاشتغال بالعلم وظن انه حلاني بشغله من العطل .

ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجق وشرح نبذ من (أحواله من ابتداء عمره الى خاتمة أمره)

قال رحمه الله : توفى سنجر يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٥٢ بعد خلاصه من أيدى الغز وكان مولده بظاهر سنجار يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ٤٧١ وولاه أخوه بركيارق بلاد خراسان سنة ٤٩٠

ذكر السبب فى ذلك

قال : كانت بلاد خراسان فى أيام ملكشاه ساكنة المهالك . آمنة المسالك . مشحونة الاطراف بالشحن . مسكونة الاكناف بالسكن . . وطنة الديار بالابرار . دارة المواطن بالمبار ونظام الملك بنظام الملك . مستتب مستدف . ونائله لذوى الفضل مستكف ولذوى الجهل مستكف . وما بخراسان رأسان . وما تسلط بها سلطانان . فلما استشهد النظام . وأباح حمي ملك ملكشاه الحمام . انفسخت تلك العقود . وانتسخت تلك العهود . واستشرى الشر . واستضرى الضر . واستولى كل صغير على كبير . وكل مأمور على أمير . وكان

للسلطان ملكشاه أخ يقال له ارسلان ارغون وكان مقطعاً بمبلغ سبعة آلاف دينار فى نواحى همذان وساوه فقيل له الي كم تلزم مرارة العطلة والقناعة. وتهجر حلية الملك والحلاوة . وحركوا ساكنه . وبعثوه على شغل أخلى عنه مساكنه . فنزل عن قراء القرار . وركب مطا المطار . واشتد بطل الطاب . وشد لبب الخبب . وجاء الي نيسابور فما تمكن منها . ودفعه أهلها عنها . فصدع مروة مرو . وقال أملكها ولا غروَ . فانقاد لامره الامير قودَن شحنتها . وجعلت تحت مكنته أمكنتها . فقوى ارسلان ارغون بقودن . فانه وجد الجواد وعدم الكودن . واستولي على بلخ وترمذ وصفت له خراسان . وحيزت بلدانه البلدان . وكتب الى ابن أخيه السلطان بركيارق « انى قد ملكت موضع جغرى بك داود جدّى . بجدى وجدى . وقد رضيت به رضاء قانع . وأنا فيما سواه غير طامع ولا منازع . وانا باذل لما تطلبون . وحامل لما فيه ترغبون » فرأى بركيارق انه بالعراق فى شغل شاغل . وهم زائد غير زائل . فأمسك عنه . وأظهر انه قبل منه . ثم بدا له وآثر قتاله وكان عنده عمه الآخر بورى برس بن الب ارسلان فأنهضه لقتال أخيه وضم اليه مسعود ابن ماجر وأمير آخر التونتاش . واجتمعت عليه عساكر خراسان فطار من النشاط وطاش . وحث العزم البطاش . فأما مسعود فان التونتاش توهم منه بما قيل له . ففتك به وبولده . وصار الامر كله فى يده . ووزر للملك بورى برس عماد الملك أبو القاسم بن نظام الملك فوضع ورفع . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وضيق وأوسع . وصاف بورى برس أخاه ارسلان ارغون وصدمه . وحط عليه وحطمه . وهز طوده وهزمه . فعاد ارسلان ارغون الى بلخ مكسوراً مخسورا . وأقام بورى برس بمكانه منصوراً مسروراً . ثم

أرسل ارسلان ارغون الى الاطراف والاوساط وحشد وحشر ونهض الى مرو وفرض مروتها . وحط ذروتها . وفتحها عنوة وهدم سورها . وقتل جمهورها . وبرز بورى برس من هراة لقصد لقائه . وحفظ البلاد من بلائه . فزحف العسكر الى العسكر . وطن الذباب فى المغفر . وضبح الثعاب فى لبة الغضنفر . وجنى ثمر النصر من ورق الحديد الاخضر . وطارت فراخ الجماب الى أوكار المقل . وأدمت لواحظ السهام من الخدود مواضع القبل وبرز البوار لبوري برس وكسر . وأدرك وأسر . وحمل الى اخيه ارسلان ارغون فما رق لهولا رفق . فاعتقله في ترمذ ثم خنقه . وأخذ وزيره عمادالملك ابن نظام الملك وصادره على ثلثمائة الف دينار ثم قتله . ولم يترك سوءاً الا عمله لا جرم أخذه الله وأقدر عليه قدره . وسلط على صفوه كدره . فانه عاد الى مرو وظن انه ملك . وان خصمه هلك . فقال له منجمه « أرى عليك قطعاً . وأنت لاتملك لما قدر دفعاً . والحزم تحرزك وتحرسك الى أن تؤمن المخافة . ولا تخشى الآفة » فاحتجب عن اصحابه . واغلق رتاج ابوابه . ولم يدع الا مملوكا صغيراً كان به يأنس فانتظره . وانكر تأخره . فلما حضر عاتبه كيف ابطأ . وعاقبه حيث اخطأ . فضربه الغلام بسكين معه وصرعه . فقضى موضعه . فلما قيل للمملوك لم فعلت مافعلته . وعلام قتلته . قال « اردت ان اريح الخلق من ظلمه . وكان هذا بقضاء الله وسابقاً في علمه » وقتل ارسلان ارغون فى سنة ٤٩٠ وسنه ٢٦ سنة

وكان السلطان بركيارق لما عرف استيلاء عمه على خراسان قلدها اخاه ابا الحارث سنجر . ورتب معه العسكر . فوصل الخبر بمقتل عمه فكفى قتاله . واستصوب انفاذ اخيه وارساله . وسار ومعه سنجر فلما وصل الى دامغان

وصله الخبر ان اصحاب عمه قد اجلسوا مكانه ولدا صغيراً له . فلما علموا بتقدم سنجر نهضوا بالصبي وهو ابن سبع سنين وطلبوا من السلطان بركيارق لما عرفوا قربه منهم له الامان . واظهروا له الاذعان . واحضروه عنده فاكرمه . واحترمه وقدمه . وكان وصول الصبي في خمسة عشر الف فارس وقد استصغروه . ونهبوا خزانته وافقروه . واقطعه السلطان بركيارق في نواحي الري وهمذان . ودخل بركيارق الى خراسان . وبلغ الى ترمذ واستولى على جميع بلاد خراسان ونفذ في سمرقند امره . وولاها الخان سليمان تكين ثم لمحمود تكين بعده . ثم اقرها على هارون تكين وحده . وأطاعه ابراهيم صاحب غزنة . وأعطاه الله في البسيطة المكنة . وبقي سنجر معه لا متولياً متحلياً . ولا موليا متخليا . بل عليه اسم الولاية . وعقد الرأي والراية . حتى سمع السلطان بركيارق عن العراق بما تم من الفتوق . وما وهي به من عقد الوثوق .

ومضى مؤيد الملك بن نظام الملك الى جنزة . لبعث السلطان محمد بن ملكشاه على طلب المملكة . وحثه على الحركة . فسار محمد الى الري وبركيارق بها . فلما وصل محمد اليها فارقها . وأُخذت امه زبيدة خاتون فحبسها السلطان محمد وخنقها . ومضى بركيارق الي بغداد على طريق خوزستان وواسط واتصل به سيف الدولة صدقة بن منصور . وعاد الى بلده بوفر ووفور . وحباء وحبور . وعاد اليه كوهرائين وكربوقا فخرج على طريق شهر زور واجتمع عليه من التركمان خلق كثير وحارب أخاه محمداً بموضع يقال له كور شنبه فانهزم . وانفل حده وانثلم . وسار في خمسين فارسا الى أسفرائين ثم تم الى نيسابور . واستنجد الامراء واستجدّ الامور . وقبض على وجوه البلد وأماثله . وأخنى على أعيانه

وأفاضله . ومات فخر الاسلام أبو القاسم بن الامام ابى المعالي الجويني فى اعتقاله . وكان السلطان سنجر حينئذ ببلخ مع رجاله . ومعه الامير كندكز وأرغش وكان قد استولى على معظم بلاد خراسان رجل يقال له حبشي بن التونتاق . وقد شق العصا بالعصيان والشقاق . وهو مقيم بالدامغان . وتحت استيلائه أكثر بلاد خراسان وطبرستان . وجرجان . ومعه قلعة كردكوه . وقد تطارق منه المكروه . فنهض سنجر فى أرغش وكندكز الى قتاله . وهو فى عشرين الفاً من رجاله . ومعه خمسة آلاف فارس من الباطنية أصحاب اسمعيل الكلكي صاحب طبس . وقويت قلوب السنجرية بوصول السلطان بركيارق فاقدموا اقدام الليوث . واستهلوا استهلال الغيوث . وصدموا الاطواد بالاطواد . وأنكحوا الهام بنات الاغماد . وكانت الكرة عليهم ثم صارت لهم . واستحلوا قتالهم وقتلهم . ووقع حبشي فى الهزيمة الى بعض القرى فاخذ وأثخن . وحمل الى الاميرين أرغش وكندكز فاعتقلاه . وبذل عن نفسه مائة الف دينار فلم يقبلاه وقتلاه

وعاد السلطان بركيارق الى العراق واتصل به جاولي سقاوو وايتكين النظامي واصبهبد صباوه ثم جاء الامير اياز فى خمسة آلاف فارس مدرع مقنع . وقصد همذان وهو فى خمسة عشر الفاً وأخوه السلطان محمد بها فى سبعة آلاف فاصطدما والتقيا . واحتدما واصطليا . وتجلت الوقعة عن هزيمة السلطان محمد . وأفلت منها بجمع مشرد . وأسر مؤيد الملك وقتله بركيارق بيده تشفيا منه بقتله . لما سبق اليه من سيئات فعله . وانتزح السلطان محمد الى جرجان واتصل الخبر باخيه سنجر فاغتم له واهتم . وساء ما تم . وانفذ اليه مالاً كثيراً من نيسابور . ثم سار للقياه ولقيه بجرجان وصحبه الى بغداد .

وجملا دار الخلافة المعاذ والمعاذ . وجلس الامام المستظهر لهما . وأفيضت الخلع عليهما . وعقد الخليفة لهما اللواء بيده . واستقام كلاهما من الملك على جدده . ورحل سنجر على سمت خراسان عائداً . وتأهب محمد لقتال بركيارق عامداً . وتصافا بقرب روذ راوَر ثم افترقا من غير قتال . واتفقا بعد ذلك على صلح وإصلاح حال . ثم انفسخ بينهما عقد السلم . وجرى كلاهما من قصد أخيه على الرسم . ووقعت بينهما بالري وقعة أخرى . واتصلت بين العسكرين رسل المنايا تترى . وحوصر السلطان محمد باصفهان فراسله الملك مودود بن اسمعيل ابن ياقوتي بن ميكائيل يعده بالاتصال به . واسعافه في تصرفه بمطالبه . فخرج السلطان محمد من الحصار ومضى صوب أرّانية واخترم مودود قبل اجتماعه به . وقوي محمد بعسكره . فسار بركيارق لحربه والتقيا على باب خُوَي في جمادى الآخرة سنة ٤٩٦ وانهزم محمد الى بلد آني . ثم توسط بين الاخوين الاقاصي والاداني . وقسم الملك بينهما قسمين واستقر ان يكون للسلطان محمد ماوراء النهر الابيض المعروف باسفيذروذ مع الموصل والشام . وعاد الملك بهذه القسمة الى النظام . وخطب لبركيارق ببغداد واصفهان وجميع العراق . وسائر الاقطار والآفاق . فلما سكن الى قدرته حركه القدر . ودنا من ورد عمره الصدر . وتوفي ببروجرذ في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨

عود الى حديث سنجر

قال واستمر أمره بخراسان وقويت سلطنته . وتسلطت قوته . فقدر قدر خان صاحب ماوراء النهر . انه ان عبر الى بلاد خراسان ملكها بيد القهر . وطمع فى سنجر لصغر سنه . ودار تسويل هذا السؤال فى ظنه . وكان الامير كندكز يكاتبه . وعلى التأخر يعاتبه . فعبر النهر فى مائة الف يضيقون الفضاء الواسع . ويحققون القضاء الواقع . وهو لقصد سنجر مصمم وللقائه مقدر . فاتفق ان قدر خان خرج عن عسكره متجرداً . وبخواصه متفرداً . وبعد عن مخيمه في ثلثمائة فارس متصيداً . فعرف سنجر الفرصة فيه فأدركها وانتهزها . واعتد انفراده غنيمة فملكها واحرزها . وأنهض اليه برغش اسفهسلار عسكره فى عدة منتخبة فتصيده من متصيده . ووقع فى يده وقد سقط فى يده . وسهل على سنجر من أمره ماعده عسيراً . وحمل قدر خان وأحضر بين يديه أسيراً . ثم أمر به فضرب عنقه وتفرق جمعه . وانطفأ شمعه . وعاد السلطان سنجر الى مقره . وطلع فيلقه بفلقه . وذلك فى حياة أخيه بركيارق قبيل أيام وفاته . وساعده السعد من جميع جهاته

ثم استمرت سعادته وسعدت أموره . وأنارت مطالعه وطلع نوره . وقصده بهرامشاه من أولاد السلطان محمود بن سبكتكين اليه لاجيا . ولانجاده راجيا . ولشقيقه المستقر على سرير ملك غزنة مشاققا مداجيا . فرعى وفادته . ورأى افادته . وآثر ايثاره في اجارته واجابته . واختار اختياره

فى اغاثته واعانته . فجعل غزنة منزاه وبلغ الخبر الي السلطان محمد فلم يحمده وكتب اليه ان « هذا بيت كبير فلا تقصده » فرد نصح الاخ . واستمد لاصراخ المستصرخ . وذلك فى سنة ٥١٠ وخرج صاحب غزنة وجر ذيوله . وأجري سيوله . وصف خيوله . وزف فيوله . وجاء سنجر والجتر على رأسه خافق . والنصر ليمينه مصافق . وكان لصاحب غزنة خمسون فيلا قد صفها بين يدي صفوفه . وألفها قدام الوفه . وعليها الكماة الحماة . وذووالحمية الرماة . وكادت تصح على سنجر الكسرة فان الخيول نفرت من الفيول . حين أقبلت كالسيول . فترجل الأمير أبو الفضل صاحب سجستان . وتهورفى الاقدام . ودخل بين قوائم الفيل الاعظم فشق بخنجره بطنه فصاح الفيل وولى ظهره . واتبعت الفيلة اثره . فانهزم العسكر الغزنوى . وانتصر الحرب السنجرى . واحتوي على أموال غزنة وخزائنها . وحصل على ظواهرها وبواطنها . وكان ملك آل محمود من اول عهده بكرا لم يفتض . وختما لم يفض حتى اتى سنجر وكسر سكره . وهتك ستره

فلما استصفى أموال غزنة وفرغ خزائنها المملوة . ونفض كنوزها المحشوة . نصب بهرام شاه على سريرها وأمره . وقد خربها بتعميرها وشغل ذمته بما يؤديه اليه كل سنة من قرار . وهو مائتان وخمسون الف دينار . وكتب الى أخيه السلطان محمد ببشرى الفتح . ويسرى النجح . فوجم لذلك وكان في مرضه الذى شفله . وسقمه الذي نهكه وانحله . وتوفى بعد ذلك بسنة وقوى سنجر . واجتمع عليه العسكر . وقصد بعد ذلك بسنتين سمرقند . واجنى جناها الجند . وذلك بعد تطويل حصره . وتضييق عصره . وكان صاحبها احمد خان . الكبير الشأن . الاثير السلطان . وهو الذى كان له اثنى عشر الف

مملوك تركي وكان لا يترك غزو الترك يتوغل فى بلادهم مسيرة شهرين . وينثني ظافر اليد قرير العين . ثم أصابته علة الفالج . وأعي طبه على المعالج . وبقي سنجر ستة اشهر يحاصره . ويضايقه ويصابره . الى أن اخرج اليه احمد خان . فى محفة يحملها الغلمان . فاجلس بين يديه ساعة . وهو لا يجد للكلام استطاعة . ولعابه سائل . وشدقه مائل . ثم حمل الى دار الحرم للقرابة التي بينه وبين تركان خاتون زوجة سنجر . وولى نصر خان مكانه . وأحيي به سلطانه

ثم غدر صاحب غزنة الملك بهرامشاه بعهد سنجر ونكل عن ضمانه . فعزم على التوجه الى غزنة ثانيا . ولاعنة جيوشه وجنوده اليها ثانيا . ونهض اليها ولما بلغ الى بست عسر عليه الوصول . وحالت الوحول . وتعذرت العلوفات . وكان التبن اعز من التبر . والشدة جاوزت حد الصبر . فما اكترث بذلك وتهور وأقدم فبهر بهرامشاه رعبة . وابعده الى لهاوور قربة . ووصل سنجر الى غزنة مغيراً . ولكأس الدوائر عليها مديراً . وسلبت أموال وأرماق ونهبت محال واسواق . ولما انحسر الشتاء ورتب امور غزنة عاد الى خراسان ولما توفى اخوه السلطان محمد بالعراق فى سنة ٥١١ وتولى ابنه محمود السلطنة وحدثت تلك الحوادث احتاج سنجر الي الالمام بالعراق فجرت الوقعة التى قدمنا ذكرها . واوضحنا عرفها ونكرها . وما عاد سنجر الا وقد خطب له بالعراقين وبالشام والموصل وديار بكر وديار ربيعة والحرمين . وضربت الدنانير باسمه فى الخافقين . ويلقب بالسلطان الاعظم معز الدنيا والدين . وولى ابن أخيه محمود بن محمد عهده بالعراق ونعته بمغيث الدنيا والدين . وقد ذكر وصول سنجر الى العراق في أيام محمود نوبتين . وفى عهد طغرل وفى عهد مسعود دفعتين . لكنه فى زمان مسعود لم يتجاوز الري

ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان

قال رحمه الله : كان من كتابه المخصوصين به في صغره العميد أبو الفتح ابن أبي الليث وصل معه الى بغداد في ثامن شوال سنة ٤٨٩ ومع سنجر أتابكه كج كلاه وذلك في عهد أخيه بركيارق وابتداء خلافة الامام المستظهر واستوزر عند مضيه الى خراسان فخر الملك المظفر بن نظام الملك وكان مبر المبرة . سري الاسرة . منصور الصحبة . مصحوب النصرة . ورزق التأييد والتمكين . ومشي الامور عشر سنين . وقتل يوم عاشوراء من سنة ٥٠٠ واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد بن فخر الملك فكفى المهم . وشفى الملم . ونظم المنثور . وضم المنشور . وقتل ببلخ غداة الاربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٥١١

ذكر السبب في ذلك

قال : كان للسلطان سنجر مملوك يقال له قاماز قد استحسنه واستخصه واشتهر بحبه واستخلصه وقد أصبح به صباً . وشغفه حباً . وتسحب على السلطان بدلاله وادلاله . وما صار يبالي لعمله باشتغال باله به بشغل باله . وكان هذا المملوك يعرف بكج كلاه . اي مائل القلنسوة . وكان الوزير ابداً ينهاه . ويرده الى نهاه . وقال له يوما « ان عقلت والا دبرت في تسويتك وقومت ميل قلنسيتك » فقال له غير مكترث بوعيده . وقابل تهديده

بتهديده «اما ان تسوى قلنسوتى و إما ان أسوى عمامتك» فاتفق ان السلطان كان فى ضيافة الوزير واصطبح واغتبق عنده ثلث ليال . فلما كان فى اليوم الثالث والسلطان فى سورة راحه . وسكر اصطباحه . وقد ذهب ذهنه . وضعفت قوة تمييزه . وعينه فى عين المملوك ويده في يده وقد ملكه بغمزته وتغميزه . فغافله ونزع خاتمه . وساره امره وكاتمه . وقام ومضى وهو حاقد والوزير في حجرته راقد . وقال « استأذنوا لى عليه فقد جئت من عند السلطان بمهم اليه » ولج حتى ولج . وكل من كان حاضرا بدخوله خرج . فلما استخلى المجلس . واصغى الوزير له واستأنس . حز رأسه وعلقه من يده ودخل على السلطان ووضعه بين يديه فصحا سنجر وهاله ماجرى من اجترائه واجترائه . وأخافه ماتم من اقتحامه واتقاحه . واستدعى الامير قماجا . وهو أوضح اصحابه في الرأى منهاجا . وقال له سرا « انظر الي ما صنعه هذا المؤاجر بوزيرى . وقد نغّص علىّ سرورى وسريرى . فاخرجه من عندى على وجهه سحباً . وقطعه اربا اربا » فقال له « هذا أمر فظيع . وصنع شنيع . وحفظ الناموس يوجب ان لايعرف احد من رعية بلدانك . ان مثل هذا الامر يتم فى سلطانك . بغير استئذانك . فاظهر انه جرى باذنك . وصن جاهك واحذر من وهنك . واركب الآن الي دارك . وارجع الى قرارك » فقبل النصيحة وكتم الفضيحة . ثم أمر بعد مدة بقتل ذلك المملوك اسوأ قتلة . ومثل به أقبح مثلة

واستوزر بعده ابن أخي نظام الملك وهو شهاب الاسلام . عبد الدوام . ابن الفقيه عبدالله بن على بن اسحاق وكان ذا فضل وافضال . وقبول واقبال . وبأس ونوال . متبحراً فى علم الشرع . متكلما في الاصل والفرع . وصارت

للفقهاء في زمانه سوق . وظهرت بهم حقائق وحقوق . ولم يزل مقصدا للفضلاء ومفضلا على القصاد . سديد الامر آمرا بالسداد . وتحلى الملك بحلاه . وتجلى بسناه . الى ان توفى بسَرَخْسَ يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ٥١٥

وتولى الوزارة بعده أبو طاهر سعد بن على ابن عيسى القمى وكان وجيه القدر . نبيه الذكر . وكانت وفاته يوم الاربعاء الخامس والعشرين من المحرم سنة ٥١٦

وتقلد الوزارة بعده الكاشغري وصرف عنها فى صفر سنة ٥١٨ وتقلد الوزارة بعده معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود وقد تقدم ذكر فضله . وشكر نبله . ولقد كان أمجد الاجواد. وأجود الامجاد . وهو الذي حسب أيام عمره . ورد كل مظلمة جرت على ذكره . واستدعاه السلطان سنجر لافتقار ملكه اليه وعول فى وزارته عليه . وفتكت به الباطنية يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة ٥٢١

وقلد الوزارة بعده نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبي توبة المروزى وكان أوزر الفضلاء . وأفضل الوزراء . ولم يزل للافاضل جامعاً . وللاراذل قامعاً . وقصده أهل الفضل . وآواهم بالاحسان الوافر الى وارف الظل . وخدمه العلماء بمصنفاتهم . وخصوه بمضافاتهم . وصنف له عمر بن سهلان كتاب البصائر النصرية . وهو الكتاب الذى لم يصنف مثله فى فنه . ولم يسبق الى احسانه فيه وحسنه . قال : وأنشدنى باصفهان شيخنا جمال الدين عبد الرحيم بن الاخوة الشيبانى البغدادي من مدائحه فيه عند سفره الى خراسان . واجتدائه منه الاحسان . قوله من قصيدة مدحه بها بنيسابور

ليلة عيد الفطر سنة ٥٢٥

خَلِّ الظَّلامَ لأيدى الضُّمَّرِ القُودِ　　يهتكن ما انبث مِنْ أثوابه السود
اللَّيْلُ والنَّاجِياتُ الضمرُ أخْلَقُ بى　　اذا تَصاريفُ أزماني حنَتْ عُودى

ومنها

وَلِلقَواضِب مني هبةٌ وَسِمَتْ　　بِهِنَّ ما ازورّ مِنْ هَامِ الصَّناديد
قرْعُ الظُّبي بالظُّبي أشهى لسامِعَتي　　من مُسْمِع خَنِث الاعطافِ غِريد
والأعْجبانِ وأحوالُ الوَرَى عجبٌ　　غُمْرٌ معنّي وحُرٌّ غيرُ مكدُود
وَمنتَشِينَ على الأكوارِ رَنَّحَهُمْ　　سُكْرُ الكَرَى لامجاجاتُ العناقيد
اذا اطمأنّتْ بِهِمْ أرض نَبَتْ بِهِمْ　　حاجٌ تُلاعِبُ بالمهرِيَّةِ القُودِ
شامُوا بُرُوقَ الغِنَي وأشتفَ أنْفُسهمْ　　تَطَلُّعٌ نحْوَ لا بأسٍ ولا جُودِ
حتى أطَبّاهم وقد كلّتْ عزائمهمْ　　نَدَى الوزير نصير الدين محمود
لين السجايا وفى أثنائها شرس　　والماء والنار يكتنان في عود
والمرء والسيف مالم يبديا أثراً　　حى كميت ومسلول كمغمود
فذاك والافق مغبر هياد به　　أروى لعافيك من وطف المراعيد
كما يراعك والهيجاء كالحة　　يغنى عن السمهريات الاماليد
اذ اعتلى صهوة القرطاس ضاحكة　　آثارك البيض فى آثاره السود
فدم بتا يكمد الاعداء مغتبطاً　　يفضى بك السعد من عيد الى عيد

قال: وصرف عن الوزارة فى سنة ٥٢٦ عند وصول سنجر الى العراق بعد وفاة ابن اخيه السلطان محمود بن محمد و ترتيب السلطنة لاخيه طغرل بن محمد مكانه . وكان القوام ابو القاسم الدركزيني مستولياً على الدولة وسأل

السلطان سنجر أن تكون وزارته باسمه. وتجرى رسومها برسمه . ويكون هو بالعراق لشغل طغرل مدبراً . وعلى توفر ماله وجاهه متوفراً . ويستنيب في الحضرة السنجرية من يكفل بامورها ويكفى . ويكلف بمصالحها ويشفى . فاجيب سؤله وأصيب سؤله . وعزل العالم وولي جهوله . وصرف ذلك الفاضل بهذا الناقص . وراج المغشوش بكساد الخالص . وتقلد نيابة الوزارة عن الدركزيني ظهير الدين عبد العزيز الحامدى . وكان عبد العزيز هذا يسكن اليه سنجر لامانته وديانته . وهو المعول عليه فى خزانته . وهو يناظر الوزراء في قرب مكانه ومكانته . وانما فوض اليه الدركزيني نيابته لانه علم ان الامر بغيره لا يتمشى . وان ثوب الملك بدون طرازه لا يتوشى . ولما صلب الدركزيني وضربت رقبته بالعراق . تقلد الوزارة السنجرية ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك فى جمادى الاولى سنة ٥٢٨ . واستمرت وزارته الى آخر العهد. وكان في تقويم ماتأود واصلاح مافسد باذلا للجهد . وتوفى بعد مجيء الغز فى ذى الحجة سنة ٥٤٨

ذكر جماعة من خواص سنجر ومماليكه احبهم ثم سلاهم ووضعهم بعد ان أعلاهم

قال رحمه الله : كان من عادة سنجر ان يشتري غلاما اختاره ثم يتعشقه ويشتهر بحبه . ويستهتر بقربه . ويبذل له ماله وروحه . ويجعل معه غبوقه وصبوحه . ويملكه حكمه . ويوليه سلطانه . فاذا نسخ الليل نهاره . وسيج البنفسج جلناره . سلاه وقلاه . وتخلى عنه وخلاه . وانتهي فى مقته الى ان لا يرضى بهجره بعد وصله . ورأى الراحة منه فى قتله . ومن جملة أولئك مملوك كان لصير فى اسمه سنقر . فعشقه سنجر قبل رؤيته فاشتراه بالف ومائتى دينار ركنية . بعد تشريف لمالكه وعطية سنية . وحكي عن ظهير الدين عبد العزيز خازنه انه قال استدعاني سنجر يوما وقال انى آمرك بما هو اوفق خدماتك . وأوثق لحرماتك . فانهض فيه بثباتك . وأت فيه الممكن بوأتك . فأجبته بالسمع والطاعة . وبذل الوسع والاستطاعة . فقال « هذا مملوكي سنقر الخاص قرة عيني وثمرة فؤادي . وريحانة روحي ونتيجة مرادي . وهذه خزائنى تحت ختمك . ومالى بحكمك . وحمول غزنة وخوارزم قد وصلت فاقبضها . وبذول الممالك قد عرضت فاستعرضها . وهذه خدمتي التى آمرك بها في حقه لا ترفضها وافترضها . ولا تستأذنى فى شيء ولا تستأمر . وقدم هذا المهم واستخر الله فيه ولا تستأخر . اريد ان تضرب له سرادق كسرادقى . وتجرى له سوابق كسوابقى . وتشترى له ألف مملوك

يمشون فى ركابه . ويمشون الى جنابه . وتحل اقطاع من رأيت حل اقطاعه وتعقده عليه . وتأخذ بلد من شئت وتفوضه اليه . وتجعل له خزانة كخزانتي بالمال مملوّة . وباجناس الصياغات الذهبية والفضية مجاوّة . وتجعل له ديوانا مجملا باماثل الكتاب . وأفاضل النواب . بحيث يكون بعد اسبوعين صاحب عشرة آلاف فارس» . قال فاستمهلته ثلثة أشهر فما أمهل . وأمر بترك الريث واستعجل . فما زلت به حتى فسح لي فى مهلة شهر ونصف وشرعت فى الامر وأنفقت على ماقدره فى عشرين يوما سبعمائة الف دينار ركنية . وذلك سوى مانقلته اليه من الخزانة من الآلات الخسروية . والثياب المعدنية . وذلك سوى الاقطاعات . والولايات والتقريرات . ثم أخبرته ولم يمض الشهر بانه قد استمر الامر فركب السلطان سنجر فرأى العساكر صفوفا . والخيل صفوفا . حول سرادق سنقر الخاص فرأي رواء ظاهرا . وبهاء باهراً . قال : فعانقني وشكرني . ونوّه بي وذكرنى . وفوض الي أمر خزانته . وأمرنى بتحصيل مطالبه . ووصى كلا منا بصاحبه . قال : فلم يمض سنتان حتى اشتعلت نار خده فى الدخان فشنف . وأنف . وعاف وعزف وسنقر يزيد فى التسحب عليه والتبسط . ويستديم مع عادة التسلى عنه عادية التسلط . وزاد فى غيظ الامراء . واستحقار العظماء . واستصغار الكبراء . وهو لايبالى بسنجر اذا توعده . ولا يلتفت اليه اذا تهدده . فاستدعى السلطان يوما جميع أمرائه الي حجرة مفردة مفردين . ومن جميع أصحابهم سوى سلاحى واحد مجردين . وقال لهم واذا دخل سنقر الخاص اليكم ضعوا فيه بأجمعكم السكاكين فبادروا الي ماأمروا به وامتثلوا . ووثبوا اليه ومثلوا . وعاد ذاك الضياء ديجورا . وذلك البهاء هباء منثورا

قال :ومنهم قايماز كج كلاه قاتل وزيره . وقد آل تعظيمه الى تصغيره . ومن جملة من حباه بحبه . واختصه بقربه . الامير المقرب الاجل اختيار الدين جوهر التاجى وكان مملوك أمه ومن خواص خدمها وكانت توفيت أم سنجر فى شوال سنة ٥١٧ فانتقل هذا الخادم الى خدمة سريره . ثم غاب حبه على ضميره . فغاب بذلك على تدبيره . ورقاه الى ذروة لم يتسنمها أحد قبله . وأسماه الى رتبة لم تر فيها عين مثله . وبلغ عسكره ثلاثين الفاً ثم مل السلطان طول مدته . ودبر فى أخلاق جدته . وضاق مجال احتياله . فدس الباطنية لاغتياله . ونمى الى جوهر تعرض جوهره لان يصير عرضاً . وعلم ان غرض السلطان ان يصير لسهم الحتف غرضاً . فاخفى التي علمها . وأسرها فى نفسه وكتمها . فقال السلطان له يوما (ياجوهر انى أخشى عليك هؤلاء الملاعين فتحرز منهم وتحفظ . وتحزم لامرك وتيقظ) فقال له (لو أمنتنى من نفسك ما خفت أحداً . وما أردت فى دفع غائلة القوم مدداً) فاحتمل السلطان مقاله . ورأى احتماله . وركب جوهر ضحوة من داره . وخرج خروج القمر من سراره . وفي ركابه الف سيف مسلول . فلما نزل فى دهليز دار السلطان وكماته حواليه . وحماته من ورائه وبين يديه . قفز اليه نفر من الباطنية . وضربوه بالسكاكين وأزاروه قادم المنية . ولما ارتفع الصياح قال سنجر وهو فى دار حرمه (هذا جوهر قد قتل) فعلم ان ذلك باذنه عمل

قال : وكان عاقلا متأنيا أريباً متهديا . ومن نكته المستحسنة ان السلطان كان أمره ببناء قبة عالية فى مرو يكون فيها ضريحه . وينضد عليها صفيحه . فوصل الى مرو ورآها غير مفروغ منها فقال (ياجوهر متى تتم هذه القبة)

فقال (لا أتمها الله) فابكى الجماعة بما ذكره . والطف موقع قوله عند السلطان وعذره

ذكر علو همة السلطان سنجر وكرمه

واسمام أصحابه وأمرائه من نعمه

قال : كان حليما حييا مليا . بالعرف وفيا . كبير النفس اريحيا . معديا للملهوف . مسديا للمعروف . مفرقا بالاقلام ما جمعه بالسيوف . ذكر عنه انه اصطبح خمسة أيام متواليات ذهب بها فى الجود كل مذهب. وأتى على معظم مافى الخزائن من عرض وذهب . فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة الف دينار أحمر . وجاء ماوهبه من الخيل والخلع أكثر . وعوتب على اسرافه فقال «اما رأيتمونى افتح أقليما يشتمل على اضعاف ما وهبته من المال . واهبه بكلمة واحدة لمن أراه قبل السؤال . فهذا بالاضافة الى ذلك الكثير قليل . وما للملام الىّ فى نهج هذه السبيل سبيل . »

ذكر عن ظهير الدين عبد العزيز صاحب خزانته انه قال أحببت أن يشاهد السلطان سنجر مااشتملت عليه خزانته . لتظهر كفاية متوليها وأمانته . فقلت له أخدمك بالف ثوب أطلس حتى تبصره . وتستعرض صامته وناطقه فسكت وظننت انه رضى بماذكرته . فجئت الى الخزانة وأبرزت مافيها واظهرته . وكان فيها مالم يجتمع قط فى خزانة سلطان قبله من طرائف يعز وجودها . وجواهر تجل عقودها . وصرر اكياس قد ملأت الفضاء نقودها . واعلاق

لا يعرف لها قيمة . وصناديق لآلئ كلها يتيمة . فلما نضدته وأبرزته . ولفقت كل جنس ونوعته وميزته . جئت وقلت له « اما تبصر مالك . وتشاهد حالك . وتشكر الله الذى خصك به وانالك » فقال « يقبح بمثلي ان يقال عنه انه مال الى المال . او نظر اليه اواخطره بالبال فقرق ما جعلته لى من الثياب الطلس على الامراء . واعرض عليهم ما فى الخزانة من تلك الاشياء . وقل لهم يقول لكم سنجر قد ادخرت هذا لكم . وجمعته لافرقه فى قمع عدوكم وجمع شملكم » قال : ففعلت ذلك ففرحوا واستبشروا . وحمدوا وشكروا . وكان سنجر لا يدخل خزانته ولا يعير هانظره . ولا يوجد بخاطره منها خطرة . وكان لكرمه يحسن الظن بنوابه . ويسلم حكم القلم الى كتابه . مفضلا على اصحابه . ويقول « ان الدنيا فانية فندعهم يرتعون معنا . ويسعهم من النعم ما وسعنا » وكانت جواهره فى طبول مختومة بختمه . محفوظة باسمه . فاذا اراد منها شيئاً استحضرها . وفض خواتيم اقفالها وأخذ منها . ثم أعادها بختمها الى حالها .

ذكر سبب اختلال ملكه وانحلال سلكه

قال : لما امتدت مدة حياته وأمدت بالطول مادة عمره . تسلط الامراء على سلطان أمره . وتسحبوا على قدره . وحقر الصغير حق الكبير . وتأخر الكبير لتقدم الصغير . واستخف الوقور ووقر الخفيف . وصرف القوى وصرّف الضعيف . ووقع التحاسد بينهم والتحاقد . وارتفع وانحل

التساعد والتعاقد . وكان أكابر الدولة في ذلك العهد سنقر العزيزي ويرنقش هريوه وقزل واضرابهم وأقدم منهم قماج وعلى الجتري وقد اختلفت آراؤهم وآرابهم وركب كل منهم ام رأسه . وعض على الاضرار باضراسه . فأول خطا أصاب سنجر كسر الكافر الخطائى له ولعسكره . ورد صفو ملكه الى كدره

ذكر السبب فى ذلك وانكسار سنجر فى حربه مع الخطائية

قال : كانت خيول قزاق فى نواحى سمرقند وقد وفرت اموالهم وانتشرت مواشيهم . وانتشئت غواشيهم وحواشيهم . وخيفت مضرتهم . وخشيت معرتهم . فأشار الامراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم . ويتنبه لردعهم . والقوم مستمرون على الصلاح لو خلوا . مستقرون من الفلاح على ما اليه دلوا . فمضوا اليهم وضايقوهم فى مراعيهم . وقايضوهم عن محاسنهم بمساويهم . وأسرفوا فى سرقة نسائهم وذراريهم . فانفذوا الى السلطان سنجر وبذلوا له الخدمة بخمسة آلاف جمل وخمسة آلاف فرس وخمسين الف رأس غنم . ليتمسكوا منه باقوى ذمم . وأوفى عصم . وليامنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم . فلما لم يقبل خدمتهم . ولم تحصل عصمتهم . حملتهم الحمية على الاحتماء بالتحمل . وآل بكبارهم الترحم والحنو على صغارهم الى الترحل . ودخلوا الى بلاد الترك قاصدين حضرة اوزخان صاحب خطا وختن ونما . ولم يكن في الكفار الخطائية أوسع منه ملكا . وأنظم سلكا . وأوفر عددا . وأكثر عددا . وكان أمره

ينفذ الى حدود الصين فلما وصلت القرلقية اليهم اقلقتهم . وشوقتهم الى الملك وشوقتهم . وأطمعت الكفر في الايمان . واستصرخت على أهل العدل باهل العدوان . وقالوا له « ان الممالك بخراسان وما وراء النهر مشمرة . وان السعادة من سلاطينها متنمرة . وان سنجر قد تخالف عسكره . وكسف معروفه منكره » فوسع الخطائى خطى وسمه . ودبت عقارب كتائبه للسب الدين ولسعه . وأقبل فى سبعمائة الف مقاتل ووصل فى قطع من ليل الكفر المعتكر . ووقع من سيل البؤس المنحدر . والسلطان سنجر فى سبعين الف فارس . لكن التوفيق عليه ساخط . والتاييد من حزبه ساقط . فشهد المشركون وحملوا بكراديسهم . واستشهد المسلمون وحملوا الى فراديسهم . وبقي سنجر فى عدد قليل . ومدد كليل . فقال له الامير أبو الفضل صاحب سجستان « قد أحدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر . فانج بنفسك لاقف مكانك تحت الجتر » فوقف ووقع فى الاسر . واسرت خاتون زوجة السلطان وبقيت فى الاسار . الى أن فديت بخمسمائة الف دينار .

واسر الامير قماج وبلى بكل عسف . ولقى كل عنف . حتى فدي بمائة الف دينار واما الامير ابو الفضل فانه علم الكافر استيلاء اولاده على بلاده . والاحتواء على طرافه وتلاده فحقق اقتراحه . واطلق سراحه . وقال « مثل هذا البطل الهمام . والشجاع المقدام . يجب الابقاء عليه . والاحسان اليه » وهذه الوقعة كانت فى سنة ٥٣٢

قال : واستولى هذا الخطائي على بلاد ما وراء النهر . وحصل المسلمون معه تحت القهر . واستشهد على يده الامام حسام الدين بن البرهان بن مازه رضى الله عنه ببخارا . ولقد كان فى علم الشرع لا يبارى ولا يجارى . وهلك اوزخان

وتوالت اخته بعده. وتولى تخته وبخته. واستمرت مملكة الخطائية في ما وراء النهر. الى هذا العصر. والولاة مسلمون من قبل ولاية الكفر. قال الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني مختصر الكتاب : وتمادت مدتهم فى تلك البلاد . واستيلاءهم بها على العباد . الى أن قيض الله تعالي استئصالهم على يد السلطان السعيد علاء الدنيا والدين محمد خوارزمشاه بن السلطان تكش بن ايل ارسلان بن اتسز بن محمد فانه جرد عزيمته لقطع شأفتهم وقلع ارومتهم واعتنى بشن الغارات عليهم . وتوالى الركضات اليهم . حتى اخرجهم من بلاد ما وراء النهر. وصب عليهم سياط القسر والقهر. ثم توغل ديارهم. وجاس بلادهم حتى قلعهم اجمعين. ولم يبق من الخطائية نافخ ضرمة فى الارضين . وذلك بعد سنة ٦٠٠

ثم اخذ فى قهر جنس آخر من كفار الترك وهم التتارية وممالكهم تنتهى الي آخر بلاد الصين. فلم يزل عليهم ظافر الجند. منصور الجد. متوغلا مسيرة خمسة اشهر من خوارزم الى بلادهم . باسطا يد السبي والنهب فى ذراريهم ونسائهم . وطرافهم وتلادهم. الى ان اجتمعوا واحتشدوا وخرجوا فاحجم عنهم السلطان فأخذوا بجميع بلاد ما وراء النهر. ثم دخلوا الى بلاد خراسان فخربوا ارباعها. وأخذوا قلاعها وسبوا نساءها. وقتلوا رجالها. وانتهبوا ذخائرها واموالها. وانحاز السلطان عنهم الي بلاد الجبل فتتبعوا أثره الي حدود اصفهان. واخذوا الرى وقزوين وهمدان . وقتلوا جميع من كان فى هذه البلاد. وما تاخمها من الاغوار والانجاد. وكان ابتداء دخولهم الى بلاد خراسان فى اوائل سنة ٦١٧ . وجرى منهم على المسلمين من القتل والاسر والقهر مالم يعهد مثله ولم يرد ذكره ابد الدهر. وطالت مدتهم فى بلاد الاسلام وأقاموا فيها على وتيرة واحدة

لا يفيقون من سفك الدماء وشن الغارات ثلث سنين الى ان خرجوا من طريق آذربيجان مخربين للبلاد . سافكين دماء العباد . وتوغلوا منها الى بلاد اللان . ومنها الى ارض قفجاق ثم عادوا من تلك الطريق الى بلادهم . والله تعالى يكفي المسلمين شر معادهم . ولا يمكن استيفاء شرح معرتهم . وذكر ماجرى على الاسلام من مضرتهم . الا في مجلدات طوال لكنا المنا بذكرها ههنا على اجمال . والحمد لله على كل حال .

عاد الحديث

﴿ ذكر انتعاش سنجر بعد ان عثر وانتقاشه وانجباره ﴾
﴿ بعد ان شيك وانكسر ﴾

قال : وكان عند اتجاه سنجر لجهاد الكافر وقتاله . انتهز خوارزمشاه أتسز بن محمد بن نوشتكين فرصة اشتغاله . فمر الى مرو ودخلها عنوة وقتل وجوه أهلها . وحرق بالجور مجاوري حزنها وسهلها . وجلس على سرير سنجر ومد الطغراء ووقع ونهى وأمر ونقل من الخزانة السنجرية صناديق جواهره ولما عاد السلطان عن وجهته عرف خوارزمشاه ان القدر غير مظاهره فرجع الى خوارزم . واستوبل ذلك العزم . ووصل سنجر الى دار ملكه فاستجد الجد وجمع الجنود ونهد الى خوارزم ووصل الى قلعة هزارسف فحصرها . ورمى بالحجر حجرها . وكان له خندق عريض عميق فجمله همه . وكان الماء قد طما به فطمه . وقسم السور على أمرائه فحسروا لثامه . وحققوا انثلامه .

وفتحت القلعة عنوة . وأضحت لما يرام فتحه من القلاع أسوة . وذلك بعد ان قتل عليها وفيها ألوف . وجدعت أنوف . وتعرفت نوب ونابت صروف ثم وقع الصلح . واسفر بعد تلك الظلمة الصبح . ورد خوارزمشاه على سنجر صناديق جواهره التي أخذها من الخزانة بمرو بختمها . وحقق سلامة نفسه بحق سلمها . وركب ووقف بازاء سنجر من شرقى جيحون . وقد سير فى البر والبحر عسكره المجرور وفلكه المشحون . ونزل بحيث يرى وقبل الارض . وتقبل الفرض . وعاد سنجر الى خراسان وهو عنه راض والقدر بنصره قاض . ولم يزل أمره يتمشى . وبرد ملكه بالحسن يتوشى . الى أن أراد الله شت الشمل . وبت الحبل . فسلب العز . وسلط الغز . وتحللت عقود الدولة . وتفللت حدود الصولة . وانقضى الدهر . وقضى الامر

ذكر نوبة الغز وذلك فى سنة ٥٤٨

قال رحمه الله : الغز من التركمان طائفة . للضيم عائفة . وكانت فى اهتمام الامير قماج . وهى تحمل اليه ماعليها من الخراج . وأميراها قرغود وطوطى بك يخدمان الحضرة . ويحضران الخدمة . ومازالت شوافعهم مقبولة . وذرائعهم موصولة . حتى تجنى عليهم الامير قماج ذنباً تنصلوا منه فلم يقبل . وتحيلوا فى تحليل عقد سخطه فلم يتحلل . وأرضوه بكل طريق وطريف فلم

رض وضيق عليهم من واسع البسيطة الطول والعرض . واضطرهم الى مضرته . ودفعهم الى الشر لدفع معرته . فاوحشوه وناوشوه . وهارشوه وهاوشوه . ولم يتركوا فى جلاده جاداً . وقتلوا له فى تلك الوقعة ولداً . فازدادت ضراوته . وثار ثاره . والتهب ناره . وأبرق وأرعد . وأرغى وأزبد وغض غضبه من حلمه . وسد جهله سبيل علمه . وحضر صلحاء القوم في اصلاحه . وانتهوا في البذل الى غاية اقتراحه . وبذلوا له احضار قتلة ولده . وايقاعهم فى يده . فابى الا قتلهم وقتالهم . وقتلهم واستئصالهم . وماج قماج فى بحره الزاخر . وصرف الى قصدهم أعنة العساكر . فركبو اليه وأ كربوه . والتهبوا به وألهبوه . وهزموه وهشموه . فجاء الى سنجر وهو قلق حنق . وكأنه بالغيظ مختنق . وقال له « قد اختل الملك . وانحل السلك . فان قعدت عنهم أقاموك . وان لم ترمهم ولم ترمهم راموك وراموك . فانهض اليهم بجنودك . ورد نحوسهم بسعودك » فلم ير أحد من أولئك الامراء اثارة أحد لذلك الامر . وما شاروا بالشر . وقالوا لسنجر « ان هذا قماجا قد شاخ . وباخ . وخشي وخاب . وأخطأ الصواب . فان أنجدته خذلت . وان هويت هواه لذعت وعذلت » فأنف قماج وشنف وعنف ولم يزل بسنجر حتى صغى صغوه . ونحا نحوه . وأمر أمراءه بالتأهب . وأضرى ضرمه بالتلهب . وسار فى جمع كالخضم زاخر . وسواد كليل المحب بلا آخر . فلما عرف الغز انهم غزوا . والى الشر عزوا . وصلوا وتوصلوا . وقالوا نخدم السلطان بخمسين الف رأس . من جمال وأفراس . وبمائتى الف دينار ركنية . وبمائتي الف رأس غنم تركية . ونحضر قتلة ولد قماج . ونلتزم كل سنة بخرج وخراج . وخشعوا ولانوا . وخضعوا واستكانوا . فأغلق سنجر باب

القبول فى وجوه هؤلاء الوجوه . وأبي ان يعاملهم بغير المكروه . فتوهلوا وتوجلوا . وتعزلوا واستقتلوا . ولجأوا الى أرض لا يسلك اليها الا فى واد لا يسع عرضه أكثر من مائة فارس وأعدوا فى الطرقات الطوقان . على رسم قتال التركمان . ونشروا المصاحف يطلبون أمان أهل الايمان . ثم اشتدوا وشدوا . وأعدوا واستمدوا . وجعلوا الخركاهات كالاسوار محدقة . ونيران النصال من ورائها للحدق محرقة . وصبروا حتى لابسهم العسكر . وفى قلبه سنجر . وامتلأ الوادى بسيل الخيل . واجتاب النهار لباس الليل . وكانت فى المقدمة أمراء خاروا وخاموا . وهموا بما وهموا وهاموا . واغتنم الغز اضعافهم . وركبوا أكتافهم . يقتلون ويأسرون . ويصدمون ويكسرون . وعز المخلص من المضيق . وفرشت جثث القتلى على الطريق . وقتلوا الامير قماجا وولده وأتوا على العسكر وأفنوا عدده وعدده . وخلصوا الى السلطان سنجر وهو فى خف من خواصه . وجواده قد بخل بخلاصه . فأحدقوا به احداق الاهداب بالحدقة . وحصل في وسط تلك الحلقة المحدقة . وبقى كالمركز فى الدائرة . ووقع فى الايدى الجائرة . ونزل أميرهم وقبل الارض وأمسك بعناده عنانه . وأطلق بدعائه لسانه . وقال « ان قومك فتحوا بالاذية . ولم يحسنوا رعاية الرعية . ونحن خولك حولك . نقول بقبولك ونسمع قولك » وأفردوه عن أصحابه . وعوضوه عن عز جماحه بذل أصحابه . ومكث معهم ثلاث سنين كالاسير . وقد ارضوه من طعامه وشرابه باليسير . لكنهم يجلسونه على السرير . ويقفون ماثلين بخدمته سوي قرغود وطوطى بك الامير وانتشروا فى البلاد انتشار الجراد . ودب دباءهم بالفساد . وأذهبوا الاموال والنفوس . وأعدموا النعم وأوجدوا البؤس . وخربوا مدينة نيسابور وقتلوا

أهلها تحت العذاب . وسفكوا دماء العلماء والائمة فى المحراب . وكانوا يستصحبون سنجر معهم . وهو لايقدر ان يردعهم . وربما خشن عليهم فى القول ونهاهم ونهرهم . وسبهم وسبعهم . وهم لايجيبونه اذا نجههم بالمكروه وأسمعهم

ولما يئس الباقون من عسكر سنجر من خلاصه . ورأوا مضيقاً عليه فى قفص اقتناصه . فرقوا وتفرقوا . وخفقوا وأخفقوا . فهرب منهم فى آخر عمره ووقع الى ترمذ . وأرهف حد العزم وشحذ . فأصابه سهم الاجل ونفذ . فاحضر عسكره سليمان شاه ابن أخيه محمد ليتولى مكانه . ويجد سلطانه فلم يفلح ولم ينجح . ولم يصلح ولم يصلح . فبعد الى الرى ومنها الى بغداد . ولم يجد امره للنفاذ النفاذ . واجمع العسكر على الاتفاق فى تولية محمود خان ابن اخت سنجر واقام بنيسابور متكمنا . حسنا فى هيبته محسنا . وذلك فى ايام السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه . فكتب له العهد من همذان وولاه . ثم استولي الامير المؤيد آى ابه بنيسابور وأخذ محمود خان واعدمه . وتولى الامور وبقى الغز بمرو وبلخ وسائر البلاد ضالين عن نهج الرشاد . عابدين للجور جائرين على العباد

ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان محمد بن محمود

عن بغداد بعد حصارها فى سنة ٥٥٢

قال رحمه الله : قد سبق شرح الحصار . وما قوى الله به أمير المؤمنين المقتفى من الانتصاب والانتصار . وكان من أقوى الاسباب فى دفعهم ان الخليفة راسل آتابك شمس الدين ايلدكزان ينهض بعسكره الى همذان حتي اذا عرف السلطان محمد ان سريره قد فرع . وان سروره قد رفع . ارتحل عن بغداد فسار آتابك ايلدكز بالسلطان ملكشاه بن محمود الى همذان ودخلها واستولى على ذخائر الملك بها ونقلها . وأجاس ملكشاه على السرير . وقام بين يديه بالتدبير . فلما عرفت العساكر المنازلة لبغداد ان منازلها بهمذان نزلت . وان ولاتها فى ولاياتها عزلت . تشوشت خواطرها . واستوحشت ضمائرها . واتفق عن بغداد انفلاتهم وانفلالهم . وقدر انفصامهم وانفصالهم وعادوا الى همذان ولما أحس ملكشاه بقرب أخيه محمد انصرف وانحرف . وقفاه آتابك ايلدكز وما توقف . وكان قد استوزر المظفر بن سيدى من زنجان وكان كبير الاصل . كثير الفضل . وله نظم رائق . ونثر فائق . فمن ذلك قوله فى شمس الدين أبى النجيب وزير السلطان محمد

أبا النجيبِ وما فى الحق مَغْضَبَةٌ ... أأنت مثلى فاين العلمُ والحسبُ
وأنت أنت وهذا الوفر منتقلٌ ... الى سواك وهذا الامر منقلبُ

وقوله

إني وتيجان أسلافى وتلك لنا ... أليـةٌ بَرَّةٌ لاتعتريـك فيها

لأُلحظُ الملكَ الطَّاغي بِصَوْلتِهِ ... شزْراً وأُعرِضُ عن غشيانه تيها
يبغي الوزارةَ قومٌ يكثرونَ بها ... وقد تصاغرَ قدري في توليها
قلّدتها مكرهاً والقومُ في قلق ... يراوغـون سُمُوّاً في مراقيها
وَعفتُها طائعا والدولة اضطربت ... من بعدِ منْ هو بعد الله يحميها
وَرَدَّ نفسي الى التقوى تيقُّنُها ... أنَّ التقى هومن اجدى مراميها
وأسألُ الختمَ بالحسنى اذا انقلبت ... نفسي الى الله مولاها ومُوليها

قال : وبقي السلطان بعد ذلك سقيم الامل قسيم الالم . عديم الشبه في سيرته لكنه شبيه العدم . متوجع الجسم متعوج الرسم . معضوض النشاط مقبوض الانبساط . وكان في عصره أكابر الدولة من الفحول . وذوي الهمم والعقول . عز الدين سماز وناصر الدين آقش وأمين الدين أبو عبد الله أمير الدولة ومن الخدم شرف الدين كردبازو ونجم الدين رشيد وهؤلاء مازالوا أكابر في الدول . مقدمين ذوي العديد والجيوش والخيول . يلازمونه في السفر والحضر . ويثبتون معه في سبيل السلامة . وودع أخاه ملكشاه وعقد له على خوزستان فما تمكن منها منهاجه . ولا تم بها ابتهاجه . لاستيلاء الامير ايذُغدي ابن كشطغان المعروف بشمله عليها وتغلبه وتبطل أمره بتطلبه . فبقي في البلاد دائرا حائراً . صابرا بالبلاء والى الضيق صائرا . وأما السلطان محمد فانه مع تكسره . وامتزاج صحة مزاجه بسقمه . ووقوف رصد المنون على لقمه . رغب في التزوج بابنة ملك كرمان فخطبها معما هوفيه من خطبه . وبذل وحمل . واتحف واحتفل . ووردت الخاتون الكرمانية فزينت لقدومها القصور ووفر لحضورها الحبور وهم اذا

بهمذان واستقبلها السلطان لمرضه فى المحفة . وأحلها فى كنفه . وتركها لايقدر منها على متعة . ولايطيق الالمام من روضها برتعة . فما اقتضت باقتضاضها قدرته . ولا افترت بافتراعها مسرته . بل عجز عن البناء عليها . وقصرت يد صحبته عن الامتداد اليها . وبقيت فى جنابه مخيمة . وفى حياته متأيمة . وعرضت للوزير شمس الدين أبي النجيب هيضة غربت بها شمسه وفاضت نفسه . وغاض بفيضه رمسه . وانقطع غده ونسي بيومه أمسه . ولقد كان أقوم قومه سيرة . وأمثل امثاله وتيرة . وكان بالتواضع حاليا . ومن التكبر خاليا . وقلد السلطان وزارته ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الاصفهانى فنقله الى الوزارة من منصب الطغراء . وزف عروس تلك المرتبة منه امثل الاكفاء . ولقد كان فى السيادة عريقا . وبالرئاسة لبيقا . لكنه جاءته الوزارة وهو مشارف الوجل . ومشار الاجل . فما قرب من الوسادة حتى قبر ووسد . وما قام خطه بقدره حتى قاومه القدر واقعد . فحزن السلطان موته . وحزبه فوته . وكان قد طالت له صحبته . وأدالت منه لذته صحته . وهو يعده بالوزارة ويعرضها المطل . وجادت بوصل حين لاينفع الوصل .

ومكث السلطان بعد ذلك لاحيا فيرجّى ولاميتا فيسجّى ثم انه توفى يوم السبت لانسلاخ ذى القعدة سنة ٥٥٤ وكثر عليه الترحم . وزاد بمصابه التألم . فانه كان أوقر السلجقية حلما . وأوفرهم علما وأحبهم للعدل . وأحباهم للفضل واختلف من بعده الامراء فاجتمعت أراؤهم على استدعاء الامير ايناج صاحب الرى . ونشروا من الامر المستور بمالاته ما كان فى الطي . ثم تعارضت أراؤهم وتناقضت أهواؤهم فنهم من مال الى ملكشاه أخي المتوفى . ومنهم من رأى الارسال الى الملك ارسلان لمكان اتابك ايلدكز

زوج امه . ومنهم من أشار بتمليك سليمان عمه . وكان الامير ايناج يومئذ أكثر جندا . وأكثف جمعاً وأرهف حدا . ومال الى سليمان وقال هو أسلم جانباً وأوطاه . وأثبت عن الاذية رأيا وابطأه . والخليفة كان قد ولاه ووالى اليه الجميل وأولاه . فاذا أجلسناه قام الخليفة بتربيته . ورضى بتوليته

قال وكان سليمان بالموصل فى اعتقال على كوجك فاتفق الامير ايناج وناصر الدين آقش وشرف الدين كردبازو على ارسال الامير مظفر الدين الب ارغون صاحب قزوين الى الموصل للوصول به . وكوتب صاحبها فى طلبه . وكان زين الدين على كوجك اطلقه عند علمه بوفاة السلطان محمد وجهزه بعد التوثقة منه بالايمان . فقدم واستقر بهمذان على سرير الملك ودخل في طاعته سراة الترك وانتظم أمره . واضطرم جمره . ووافقه مخالفوه . ووفاه مخالفوه . وأصبح بالامير ايناج حل الدولة وعقدها . وبيده حبلها . وبأيده وصلها . وصار مظفر الدين الب ارغون بن يرنقش صاحب قزوين . الامير الحاجب الامين . وقلد وزارته شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز النيسابورى وكان وزير ايناج فنفذت فى الاقاليم اقلامه . ومضت بالاحكام احكامه . وأعاد الى وجه الوزارة ماءها الذاهب . وأوضح فى انارة افاقها المذاهب . ولما رأى انه ليس في الاكابر اعظم من اتابك شمس الدين ايلدكز وان الملك ارسلان بن طغرل معه . وانه ربما قصد سليمان ليدفعه سير اليه بولاية ارانية منشوراً . ونظم وضم ما كان هنالك منثوراً . منشوراً وجعل ولاية العهد للملك ارسلان بعد سليمان . وتذلل الصعب وهان . وحسبوا ان السلطان بعد غموضه ينبه . ولكأسه يريق . ومن سكره يفيق فبقى على الشرب مكباً . وللعب محباً . وللعقل هاجراً . وللحم زاجراً . فلا

جرم حالت حاله وساء ماله . وسنذكر ذلك بعد ذكر بعض الحوادث في أيامه . ونصل افتتاحه بافتتاحه

ذكر وفاة الامام المقتفي لامر الله وجلوس ولده الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف امير المؤمنين

قال رحمه الله : كان الامام المقتفي لامر الله بعد الحصر آثر ان يخرج الى البلاد ليراها . ويثري ببركة حركته ثراها . فاحضر طرفا الا خضره وما نظر كنفا الا نضره . وكان في اقامته عسكره طال ام قصر سفره الاخباز والاغنام والحوائج والعلائق تفرق على عدد الناس والدواب . وعما كره مجرون من جراياتهم . ونفاقاتهم واعطياتهم على المبارّ والمحابّ فما ينفق لاحد فرس الا اخلفه عليه . ولا يلتمس صاحب معونة ولامئونة الا عجل بها اليه . واجناده يتمنون ان تطول اسفاره . ليدوم لصبح سعاداتهم بعطاياه اسفاره . ووصل الى واسط فى أواخر صفر سنة ٥٥٤ وانا نائب الوزير ابن هبيرة بها وخرجت في أصحابى للتلقى . وكنت من زحمة اللقاء على غاية التوقى . فبصرت بموكب الخليفة وقد أقبل فى أفواجه . كأنه البحر فى امواجه . فنزلت وتقدمت اليه . وقبلت الارض بين يديه . فوقف لاركب اشفاقا على من الزحمة . وكانت فطرته مجبولة على الرأفة والرحمة . وقال له مخلص الدين ابن الكيا الهراسي هذا الذى يقول فى أمير المؤمنين من قصيدته كأنه يصف هذه الحالة

لما شفعت العزم وهو مؤيد بالحزم أسفر بالمنى منك السفر
وبرزت مثل الشمس تشرق للورى وسناك يحجب عنك ناظر من نظر
بمظلة سوداء تحكي هالة وجه الامام يضيء فيها كالقمر

وقال الوزير هذا صاحبي وقد وليته . وأصحبته وأوليته . وبهج بخدمتي ونجح . وبذخ بنيابتي ورجح . فوصى الامام وزيره بي . وأعجبه سمتي وأسلوبي . وسار على رسله ودخل الى دار الديوان . وجلس ساعة فى الايوان . ثم قام وجلس الوزير فى الدست وكتب ووقع . وقال واسمع . والناظر حينئذ فى واسط الامير شمس الدين أبو الفضائل قاتن وهو من أكابر الخدم الذين لهم المزايا والمزاين . ثم انتقل الخليفة الى سرادقه . والوزير الي مضاربه . ونزل أرباب الدولة كل منهم على مراتبه

قال : وحضرت بميدان واسط والمقتفى رضى الله عنه حاضرا ومعه أولاده ولي العهد المستنجد يوسف وأبو علىّ وابو أحمد وولده المستنجد أبو محمد وهو المستضيء الذي تولى بعده ولعبوا بالكرة . ولم يلبث بواسط ثلاثه أيام حتى عاد الى بغداد سريعاً وكان وصوله للانحدار الى النزّاف فزاد الماء زيادة منعت العبور فرجع على نية الرجوع . وعند عودته غرقت بغداد وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ٥٥٤ وذلك لان الماء زاد في تلك السنة على خلاف عادته وتهور به بثق القورج وتقور . وغلب وبلغ السور من صوب الظفرية وتسور . وطاف بتلك النواحي طوفان نوح . وراح شبح كل بناء بغير روح . وكان ذلك منظرا هائلا . وقدرا نازلا . وطارقا كثرت طرقه وفتقا عسر رتقه . وركب الوزير وأرباب الدولة فصدوه وسدوه . وردعوه وردوه . واتفق انه نقص ووقف . وغرق معظم ما من ذلك الماء العظيم

غرف . ولما انصرم الصيف وانكسر الحر وصل المقتفى الى واسط مرة أخرى وانحدر الى ناحية الغراف وعزل عن ولايتها ظفرا خادمه وولاها أبا جعفر بن البلدي وقبض على ابن افلح وزير ظفر وعاقبه . والزمه بما استخرجه من دفائن ابن حماد وطالبه . وكبا به الفرس فى بعض تلك السواقى فوقع وتألم . واعتذر بصحته اليه القدر مما تجرم . وذلك في شهر رمضان من السنة

ولما دخلت سنة ٥٥٥ خرج الخليفة الى هيت وكان مقطعها نور الدولة ابن الامير العميد فخل عنه الاقطاع . وألزمه شحه المطاع . وأقبل من سفره سافر الاقبال . ظافر الآمال . فما عاد حتى عاده سقم . والمّ به ألم . فتوفى فى يوم الاحد ثانى شهر ربيع الاول سنة ٥٥٥ وانتقل الى جوار الرب . طاهر الذيل نقى الجيب . أمين الغيب . بريًا من العيب . ولما عرف ولده وولى عهده الامام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ان والده قد وقع اليأس عنه أشفق من اتمام الامر لأخيه ابى على . وانه للعهد غير ولى . وهجم الدار . وقبض الكبار والصغار . وعقل واعتقل . ونقل وانتقل . وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده . واحتوى على طارفه وتالده . وقبض عدة من الامراء الجلية مماليك الخليفة المقتفى واعدمهم . وانتخب جماعة من مماليكه وأمرهم وقدمهم . وأخذ القاضي سديد الدين بن المرخم أخذا شديدا . وردد العذاب عليه ترديداً . الى ان فاضت نفسه . وغاض به رمسه . وحبس المخلص ابن الكيا الهراسى مدة ايام خلافته . وحرمه حظ عاطفته ورأفته وأقر عضد الدين ابن رئيس الرؤساء على استاذية الدار . ورفع قدره على الاقدار . وأقر عون الدين ابن هبيرة على وزارته . وبقى ماء الدولة به على

غزارته. واستولى على دولته مملوكه قايماز . وعز بالاستظهار وظهر بالاعزاز

ذكر مراسلة الخليفة للسلطان

قال : وأرسل الخليفة الي السلطان سليمان . يسأله الطاعة والاذعان . ويطلب منه ان يخطب له فى جميع البلاد . ويقوى رجاءه منه فى نيل المراد . ويذكره باحسان الامام المقتفى اليه . وأفضاله عليه . فبادر السلطان الي التثام الارض. وامتثال الفرض. وقبل كتابه وقبله. وكتب الي البلاد ليخطب له . وظن ان بغداد قد وصلت الى بغيته .وحصلت فى قبضته. وانها فى انتظار نهضته فرتب القاضى نبيه الدين ابا هريرة الهمذانى رسولا . وكان مقبلا فى سمته وسمته مقبولا . وهو من أعيان المملكة وأماثلها. وعلماء الامة وأفاضلها. وندب معه الامير ابن طغايرك ليكون ببغداد واليا. ويبيد ما رخص ونزل من قدر السلجقية غاليا عاليا. فعزم في عدة. وزعم انه على عدة. وسار القاضى والامير ومن معهما مع رسول الخليفة وهو الحاجب سونج النظامى ذو النطق واللسن والرأى الحسن .والعلم والفصاحة. والحلم والحصافة. فاستصحب القاضي والامير ووصل. على ظن انه بالمراد حصل. فلما قربا قربا. وبالرغائب رغبا. واقيمت الوظائف. ووضعت اللطائف. واقاما مدة للتقرب والترقب. ثم قاما للتطلب والتغلب. وقالا انما حضرنا للتعرف والتصرف. لا للتوقى والتوقف. فقال لهما الوزير ما بالكما. وما حالكما وبم ارسالكما . وفيم سؤالكما فقالا ما جئنا لنذهب. وانما جئنا لنخاطب ونخطب. فقيل لهما ما أنتما الا سفيرا اهتداء واهداء

وخفيرا ولاية وولاء. والتعرض للخطبة تعرض للخطوب. ولا ترغبا فى الخطبة ان رغبتما فى الولاء المخطوب. فقال رسولكم بها وعد فقيم اخلاف المدة . واتلاف الجدة. واثارة الثائرة الموجدة للموجدة . فقيل لهما ماكان لرسولنا ان يقول مالم نشربه. وفيم رضانا عن مرسلكما امن شربه وسربه . وغدا يوافقكم رسولنا على انه لم يقل ماقلتماه . ولم يعقد ولم يحل فيما به عقدتماه . فافترقوا للاجتماع فى غد والمعاودة لموعد .

فاتفق ان رسول الخليفة وهو الحاجب سونج النظامي فى تلك الليلة توفى . واخمد سراج حياته واطفى . وكتم سره تحت التراب واخفى . وكان هذا من اعجب الغرائب . واغرب العجائب . حتى تحدث الناس بذلك الحادث . وانبعثوا لذكر ماتجدد عليه من المباعث . وقيل انه خير بين ان يقتل صبراء او يشرب سما وما فيهما حظ لمختار . وقيل بل بقضاء من الله جار . وأجل . وقوت بمقدار . فلم يجر بعد وفاته لتلك المواعدة معاودة ولا موافاة . ووقعت من الرسولين منافرة ومنافاة . فاتفق ان القاضى أباهريرة أحد الرسولين توفي بعد أسبوع من وفاة سونج . ولم يكن دينه أيضا من القدر بمنج . فرجف الناس وأرجفوا . وتحدثوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا . واستشعر الرفيق الآخر وقال ما فى الاقامة خلاص . وأفلت راحلا وله خصاص . فانه غلب على ظنه انه ان أقام قضى . ولحق بمن مضى . فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها . ولروعة مثل ذلك الحادث لم يرجعوا الى مثلها . ووقعت فى انفسهم من بغداذ الهيبة . ومن حصولها الخيبة . فلم يقدم ملك اليها . ولم يقدم سلطان عليها

قال : وفى هذه السنة وهي سنة ٥٥٥ توفى ملكشاه بن محمود بن محمد وذلك انه لما عرف ملكشاه ان عمه ملك . وان حساب الممالك به تفذلك .

وانه يتعود خلوته . ولا يخلى عادته . ويريد هواه ولا يهوى ارادته . نهض وافر المدد . وافى المدد . وجاء الي نجيّ . بلالىّ . ووفر حبور أهل اصفهان بحضوره . وأذعنوا لاوامره اذ عنوا بأموره . واستبشروا وأنسوا ببشره . ونشروا الطيب وطابوا بنشره . وقالوا عاودتنا الالطاف الالهيـة . وعادت علينا الايام الملكشاهيـة . وأقام وسـير الكتب الى الاطراف . بالاسـتمالة والاسـتعطاف . وخطب اللهو ولهـا عن الخطب . وغفل عن اسراع الذوى الى عوده الرطب . وكان مغروراً بالشباب مشبوب الغرار . مقدرا للامن آمناً من الاقدار . فلم ينقض عليه شهر حتى اشتهر انه قضي ومضي . وان برقه ويومه مضى . وذلك فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ربيع الاول من غير مرض سبق ولا عرض عرض . بل كانت له مغنية قد استهوته واستغوته . وخبلت خلبـه وسلبت لبـه . فصار يا كل من يدها ويشرب . ويجيء بجنبها ويذهب . وقيل انها بغت موته فمات بغتة . وقيل بل اصابه سكتة . وانها قد رغبت حتى سقته سما . وكان قدرا حتما . قد احاط الله به علما

ذكر ما آل اليه امر السلطان سليمان . وكيف جفاه زمانه وخان

وكيف قبض من مجلس ملكه . ونقل الى منزل هلكه

قال : لما اتسع ملكه . واتسق سلكه . ظن الامراء انه قد لاحف الفلاح . وصافح الصلاح . فلم يضنوا بالاحسان اليه لحسن ظنهم فيه ومازالوا فى تقرير اسبابه وتسبيب قرار مساعدته ومساعفته حتي بدالهم ابداله فان الامير ايناج عاد الى ربه . والسلطان سليمان انهمك فى غيه . وأخل مظفر الدين صاحب قزوين بموضع الحجبة . وثبت الباقون من الامراء على الفتك بالسلطان فانه اشتغل بلهوه ولها عن شغله . وجد حبل جده بخبله . وقالوا الصواب ضبطه وربطه . وقبضه لا بسطه . ومكثوا امدة يتشاورون فى خلعه . ويتوامرون فى وضعه . ويكاتبون شمس الدين ايلدكز ليقدم بابن زوجته الملك ارسلان بن طغرل وانهم لا يقطعون أمرا حتى يصل وأحكموا العهد وأبرموا العقد . واتفق انه حدث بالسلطان سليمان مصرع لصرعة من فرسه . فقضت بضيق نفسه ونفسه . فعادوه لالمه وعادوه فى امله . واعتقلوه فى قصر من الدار السلطانيه ووكل كل امير به من ثقاته جماعة . واعقدوا على اضاعته عهدا واعتقدوا لعهده اضاعة . وذلك فى شوال سنة ٥٥٥ ثم انهم نقلوه الى قلعة همذان وجرعوه كاسا مسمومة . وازاروه ميتة مذمومة . وكانت وفاته فى ثالث عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٥٦ بعد جلوس ابن اخيه فى السلطنة

ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا والدين ابي المظفر ارسلان

ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان

قال : وصل ارسلان الي همذان بعد اعتقال عمه في ذى القعدة من السنة وجلس على سرير سروره . واجتاب حبر حبوره . ونمت شمس الدين ايلدكز بآتابك الاعظم . فتقدم وأقدم . وأهان وأكرم . وكان السلطان تحت سلطانه . يرتوى من احساء احسانه . ويأكل من خوانه مع اخوانه . فان أولاد آتابك ايلدكز بنو أمه . وصار واسطة عقدهم ورابطة عقدهم بنظمه اليهم وضمه . وسعى سعد آتابك ايلدكز بقدم التقدم . وجدّ جدّه في التوسع والتوسم . وتصاغر له الكبراء وأتمرله الامراء . وتقررت الوزارة على شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز . والحجبة على طغرلتكين اياز وأقاموا بهمذان شهرين ثم توجه السلطان الى اصفهان وجعل ساوه مسلكه . واستصحب معه ايلدكز آتابكه . ووصل اليه في ساوه الامير ايناج بك سنقر صاحب الريّ فابتهج بلقيته واتى منه بهجة . وأقام بايضاح محجة خلوصه على حكم طاعته حجة . وصار بينه وبين آتابك ايلدكز مصاهرة وتمت بذلك للسلطان معهما مظاهرة . وزوجت ابنة ايناج بابن ايلدكز الاكبر وهو نصرة الدين بهلوان محمد وهو أخو السلطان لامه . وأقوم أهل الدولة بمهمه . ثم اكرموا ايناج وردوه الى ولايته غير انه باق على عتوّه . راق في غلوّه . متكره بتكثر ايلدكز متكرّث . متأثر قلبه من تقدمه متأرث

لكنه أبدى الرضا بما بدي . وأظهر انه مع الاولياء . وأسر كونه مع المدى

ووصل السلطان والجماعة واثقين بالمذكور . معتدين بعمله المشكور .

الى اصفهان ودخل السلطان الى دار السلطنة فاحتل سريرها . وقرّ بها سامي العين قريرها . ومدّوا باصفهان أيديهم . وأجدّوا تعديهم . وأخذوا البريء بالسقيم . والكريم باللئيم . والحميد بالذميم . وساقوا الناس بقلم التوزيع الى لقم التفزيع . واستثمروا أصول المصادرات بالتقريع . وسدوا الانهار على البساتين حتى أخذوا أثمان المياه . وشفهوا الموارد وصدوا عن الصادى ورد الشفاه . وأقام السلطان كذلك برهة ولما عزم على الرحيل تلوى عليه الامير عزّ الدين ستماز وتخلى عنه وتخلف . وتوقى منه وتوقف . وكان قد كاتب الامير ايناج لمناواة السلطان . وشق العصا بالعصيان . واستدعاء أخيه الملك محمد بن طغرل من فارس وأحس السلطان بالتدبير . فوقع فى التشويش والتشوير . فان آتابك ايلدكز وأولاده كانوا بهمذان . وهم لا يظنون من أولئك بالايذاء الايذان . فأغذ في السير . واستعار فى القدوم عليهم قادمة الطير . فلما اتصل بهم أفرخ روعه وأفرق . وأشرف ضوءه وأشرق . وامتد ايناج من الريّ متوجها مسارعا الى لقاء السلطان ومناجزته . قبل التقاء آتابك ايلدكز به ومحاجزته . فاتصل بايناج عز الدين ستماز وصاحب قزوين البارغو فى جموع حاشدة . وحشود جامعة . والملك محمد ابن طغرل معهم وقلوبهم معه . وقد ضاق الفضاء بالعسكر فما وسعه . والسلطان فى عرمرمه العرم وجحفله الحفل

فزحف الجيشان . ورجف الجاشان . وتحرك المجران . وتحرق الجمران . وكان اجتماعهما بنواحى الكرج . وكرب الحرب معوز الفرج . وكان

السلطان قد اتهم الوزير بمداجاته . ومكاتبة ايناج ومناجاته . وكانوا حملوا السلطان على قتله . وحذروه من مكره وختله . فما سمع فيه مقالا ولا رأي له اعتقالا . بل وكل له في السر جماعة يظهرون انهم فى خدمته . ويظاهرون فى حفظ حرمتـه . وكان فى اهتمام نصرة الدين بهلوان فقرر أمره على هدايا يهديها . وأربعين ألف دينار يؤديها . فأخذوا منه فى المآل المال . وتركدوا فيه القيل والقال . فصرفوا المال فى مصالح العسكر . وعاد الوزير الى سعده الازهر وجده الابهر . وقدم الحركة . يوم المعركة . ولما تواقف الجمان . واجتمع الموقفان حملت ميمنة ايناج على ميسرة السلطان وكسرتها فوجد السلطان ووجم . وهجم عليه الهم بما هجم . لكنه ثبت فى قلبـه . وانتحي ايلدكز فحمل بأولاده وصحبه . وخفقوا على قلب ايناج فنجا وقلبه خافق . وهمه لوهمه مصافح مصافق . والطرد من ورائه ورأيه فى الطـراد . وغاب فى الغبار وأضمرته دياجى الضمر الجياد . واصابت وجـه الوزير فى هـذه الوقعة ضربة سيف أذهبت عينـه اليمنى . ولم يدر انه بعـد ذهاب ذهبه وعين نضاره بذهاب ناظر عينه يمنى . وحمل الى همذان في محفة ليتداوى . وشمت به عداته وعادت ضواريها عليه تتعاوى . فولى ايناج مدبرا وأدبر موليا . وخلى رحله ورحـل متخليا . وعاد السلطان الى عادته فى السلطنة واتسع ملكه . واتسق سلكه ودار فلكه . ودر فلكه . وتفرد زوج أمه آتابك ايلدكز بالامر والنهى . والنشر والطى . والحسم والكى . والاثبات والنفى . فأدني وأبعـد . وأشقى وأسـعد . وراقب الاضراب . وضرب الرقاب . وحابي الاعـداء وعادى الاحباب .

ولما وضعت الحرب أوزارها وجه السلطان الي الرى براياته . ووصل

سراياه الى ايناج لقطع سراياته . فقدموها وجبوا اعمالها . وجنوا أموالها . وجمعوا ذخائرها . وفرقوا اخايرها . وكان ايناج منهم بنجوة . وقد قنع من العيش بفجوة . وهو فى حدود الدامغان ومازال بها يستعطف ويستسعف . ويتوصل ويتوسل . الى ان صلحت أسبابه واستتب صلحه . ونجحت آرابه وأربى نجحه . وقصروا رأيه على القناعة بالرى . وتعوض برشده عن الغى . وحلت عنه جرباذقان وساوه . وعاودت معيشته وعيشته الطلاوة والحلاوة . ورحلوا الى قزوين فتحصن صاحبها فى قلعة سرجهان . وعاين وعانى الامتحان والامتهان . ففرقوا العمال . وجمعوا الاموال . وأقاموا الى ان دهم الشتاء بشتات الدهماء . ورحل البلاء بنزول البلاء . فانهم لم يقيموا بالمكان ولم يتمكنوا من المقام . وفكوا عن البلدة عروة الازدحام . وسار السلطان نحو همذان . وآتابك ايلدكز الى آذربيجان . ثم استقرت سلطنة ارسلان ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه . وعدم فى عزه ونفاذ أمره الاشباه . وحكم عليه وعلى البلاد جميعها شمس الدين ايلدكز زوج أمه . وجرى فى اقامة ناموس سلطانه على رسمه

وكانت الوزارة مستمرة بشهاب الدين الثقة . وله من الناس لكرمه وعلو همه المقة . الى ان توفي باصفهان واستوزر بعده الوزير فخر الدين ابن الوزير المعين المختص ولما توفى بهمذان بعد سنين استوزر جلال الدين ابن القوام الدركزينى وامتدت وزارته فى الايام الارسلانية . ووفى باحكام الأحكام السلطانية

ذكر وفاة السلطان ارسلان في سنة ٥٧١

ووفاة آتابك ايلدكز قبله

قال رحمه الله: كان السلطان قد تزوج بأخت فخر الدين رئيس همذان. فاتفق وفاة شمس الدين ايلدكز بنخجوان . وتمكن ابنه محمد المنعوت بهلوان . وهو أخو ارسلان من أمه. فأراد الاستبداد دونه بحكمه . وكان ارسلان مريضاً فنقل الى دار زوجته بهمذان وتوفى بها. وقيل ان أخاه بهلوان سقاه. وللحزم فى بقائه ماأبقاه . وأجلس ولده طغرل الصغير . وشغل به السرير . ونفذت أوامره في الممالك . واضحة المسالك . واسعة المبارك . وما زال أمره مستقيما واستقامته مستمرة . وثنايا دولته عن مباسم السعود مفترة . الى ان توفى بهلوان فى أوائل سنة ٥٨٢ وتولى أخوه مظفر الدين قزل ارسلان بن ايلدكز الملك . ونهج المسلك ونسق السلك . وطغرل قدشب وأرب فوجد أمره مهجورا . وعزه محجوبا محجوراً . فأحب الانفراد. وأراد الاستبداد . فهرب ليلا وانضم اليه جماعة من الامراء البهلوانية . وبعثوه على التوحد بالعزة السلطانية . وكان سيئ التدبير . يعاقب على التهم بالقتل والتدمير . وكانت البهلوانية قد انجدوه . وساعدوه وأسعدوه . وأقام قزل ارسلان مراراً فأقعدوه . فاتهمهم يوما على ظنة أضرمت نار اشتطاطه. فقتلهم غيلة على بساطه . فنفرت منه القلوب . وتمكن قزل ارسلان . وتضعضع السلطان . واتهم وزيره عزيز الدين بن رضى الدين يوما فقتله وأخاه صبرا . وزادفى فتكه بخواصه كلما انكسر ولم يلف خيراً . واغتال فخر

الدين رئيس همذان وسمه . وسلط على كل من تقرب منه وهمه وهمه . وكلما تمكن أزعجه عمه قزل ارسلان حتى وصل فى سنة ٥٨٥ الى الامير حسن بن قفجاق وتزوج بأخته . وجرى معه على حكم وقته . فنهض معه لينصره . ويعضده ويوزره . ووصل الى مدينة أرمية فأغلقوا بابها دونه. والقفجاقية معه يسعدونه . فدخلوا المدينة واستباحوها ونهبوها . واجتاحوها وخربوها . وسير السلطان صلاح الدين من الشأم رسله فى الاصلاح بينه وبين قزل ارسلان . فدان له ولان . وكاد الصلح يتم . والجبر ينم . فأبى سوء الاراء استواء الآراب . وتستر الصواب بالحجاب . فعن للسلطان ان يقصد قزل ارسلان بهمذان . اخماداً لنيران الافتتان . فقبضه يوم قدومه واعتقله في بعض المعاقل . فتعفت آثار تلك الطوائل . وسكن الدهر . وقضى الامر . وضرب قزل ارسلان النوب الخمس . ووطن على الاستبداد بالسلطنة النفس . ولهى بالصفاء عن الكدر . وغفل عن القضاء والقدر . فوجد ليلة من الليالى بهمذان مذبوحا على فراشه . وقد يئس عاثر الملك به من انتعاشه . وكان بين حفاظه وحراسه . ولم يعلم من الذى أقدم على قطع رأسه . وذلك في شعبان سنة ٥٨٧

وسار ابن أخيه نصرة الدين أبو بكر بن بهلوان الى آذربيجان فملكها . وسار أخوه قتلغ اينانج بن بهلوان الى طريق الرى فسلكها وأدركها . وسعى بعض الامراء فى اخراج طغرل من محبسه . واعاده من السلطنة الى مجلسه ومضى الى دار الملك همذان . واستأنف الامكان . واستجد العدل والاحسان . فجاء السلطان خوارزمشاه في سنة ٥٨٩ للتغلب على المملكة . فلقيه السلطان طغرل في المعركة . وخرق بفئة قليلة الصف الخوارزمي . واظهر البأس الرستمى .

فأحدقوا به ورموه . واخذوا رأسه وما ذب عنه اصحابه ولاحموه . وسير رأسه الى بغداد . واستولى السلطان خوارزمشاه على البلاد . وختمت الدولة السلجقية بطغرل . وكان افتتاحها بطغرل . وكانت مدة ملكهامذ وصل طغرل بك الى بغداد الي هذه الغاية ١٤٠ سنة . وكانها اشبهت سنة . فسبحان الذي ملكه لا يزول . وحكمه لا يحول .

ذكر الوزراء المتولين

قال رحمه الله : كانت الوزارة لجلال الدين بن القوام فلما توفى وزر اخوه قوام الدين . ثم عزل واستوزر كمال الدين الزنجانى . المعروف بالتمجيلي . وبقى سنين وعزل . ثم استوزر صدر الدين قاضى مراغة ثم استقرت الوزارة بعد عزله على عزيز الدين ابن الرضى . ذى الخلق والكرم المرضي . ثم جرى ما جرى من قتله . وآذن الملك بشتات شمله

قال : وفى شهور سنة ٥٦٥ وجد ايناج صاحب الرى مقتولا على سريره . ولم يعلم كيف كان سبب تدميره . وأضيف الفتك به الى مماليكه . بتدبير الوزير وتشريكه . وكان وزير ايناج سعد الدين أسعد الاشل . فاستوزره شمس الدين ايلدكز واستقل . وكان وزير ايلدكز من قبله مختار الدين

قال : وتولى السلطان طغرل فى الدولة الامامية المستضية . وكانت ولاية المستضىء بأمر الله فى ربيع الآخر سنة ٥٦٦ . وانتقل الى رحمة الله تعالي فى آخر شوال سنة ٥٧٥ وتولى الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضىء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بن المقتفى رضى الله عنهم أجمعين

قالت وامتدت ولايته الى آخر شهر رمضان سنة ٦٢٢ وتوفى فى هذا التاريخ وتولى ولده الامام الظاهر بامر الله أبو نصر محمد وتوفى رضى الله عنه فى رجب سنة ٦٢٣ وتولى ولده الامام المستنصر بالله أبو جعفر منصور اعز الله انصاره . وضاعف اقتداره

قال الامام عماد الدين رحمه الله: وقد كنت اوثران انهى هذا الكتاب الى آخره بشرح حادثة كل عام . والانتهاء فيه الى كل مرام . لكنه بغيبتى الى الشلم . وتباعدي عن معرفة صروف تلك الايام . اقتصرت على ما عرفته من المجمل . واستغنيت بها عن ذكر المفصل . ولانّ السلطنة فى تلك الايام وهنت وهانت . وبانت اسباب اختلالها وظهرت اسرار وهانها وهانت . وما تمكن وزير من سيرة سارة . ومبرة بارّة . حتى انوّه بذكره وأنبه . وفيما انشأته من محاسن الايام الناصرية كفاية . ولكل موفق الى هداه هداية

فهرست

كتاب تاريخ دولة آل سلجوق

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحفيـة

صحيفة

تمت